

(الانثروبولوجيا)

تأليف

نخبة من اساتذة الانثروبولوجيا
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

١٩٩٨/٩٧

مركز سروات للابحاث
٣٠ شارع د. مصطفى مشرفة (سوتير سابقا)
امام كلية الحقوق - أسكندرية

اهداءات ٢٠٠٣

الدكتور/ إبراهيم مصطفى إبراهيم
الإسكندرية

المدخل إلى



(الانثروبولوجيا)

تأليف

نخبة من اساتذة الانثروبولوجيا
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

١٩٩٨/٩٧

مركز سروات للابحاث
٣٠ شارع د. مصطفى مشرفة (سوتير سابقا)
امام كلية الحقوق - اسكندرية

الفصل الاول
مدخل الي الانثروبولوجيا *

* عن كتاب المدخل لعلم الانسان للاستاذ الدكتور / عبدالله عبدالغنى غانم ، رئيس قسم الانثروبولوجيا واخرين .

الفصل الاول
مدخل الي الانثروبولوجيا *

تعريف الانثروبولوجيا :

.. قبل ان نعرف الانثروبولوجيا من حيث نشأتها ومجالها وخصائصها لابد من العودة بالخيال الى تلك المرحلة الأولى من مراحل العلاقة بين الانسان والطبيعة. مع التأكيد على الاعتماد فى هذا الاسترداد التاريخى على حقائق دينية وعلمية فى المقام الاول ، والبعد عن تصورات الكتاب الذين اعتمدوا على الاساطير والخرافات فى محاولاتهم لاعادة تصوير حياة الانسان الاول . فالواقع يؤكد ان الحياة الاولى جمعت الانسان مع الحيوان جنبا الى جنب، ولا نستطيع فى تلك المرحلة ان نفرق بين حياة الانسان والحيوان الا من حيث التكريم الذي خص الله سبحانه وتعالى به الانسان علي ما عداه من سائر المخلوقات . قال تعالى : «ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر» [1] . ومن حيث التقويم فى الصورة والهيئة قال تعالى «ولقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم» إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التى توضح تلك الفروق . ولا شك ان الانسان والحيوان عاشا على الطبيعة كل منهما يقلد الآخر فى طريقة حصوله على الغذاء وطريقة تناوله، ثم فى مقاومة الظروف الطبيعية أو حتى فى محاولة التكيف معها ، ومن ذلك التقليد مثلا ما فعله قابيل عندما أراد أن يدفن جثة أخيه هابيل مقلدا الغراب قال تعالى «فبعث الله غرابا يبحث فى الارض ليريه كيف يوارى سوءة أخيه» [2] .

---

* عن كتاب المدخل لعلم الانسان للاستاذ الدكتور / عبدالله عبدالغنى غانم واخرون .

(١) سورة الإسراء ، آية رقم (٧٠) (٢) سورة المائدة آية (٣١) .

غير ان الانسان الذى اختصه الله بالعقل والوعى والقدرة على فهم الامور استطاع ان يعدل فى مواقفه وسلوكه بما يتلائم مع حاجاته وبما يحقق له اقل قدر ممكن من الحياة التى تميزه عن الحيوان فعندما اكتشف الانسان ان الاغصان لا تحتمل وزنه ولا تضمن له عدم مهاجمة الحيوان له وافتراسه ، نزل عنها واستبدلها بالكهوف ، وعندما وجد ان الوحوش تهاجمه ليلا ونهارا بدأ يفكر فى ايجاد ما يحقق له الحماية ويضمن له البقاء فكانت العصى والسهام الرماح وسيلته الى ذلك . وعندما وجد ان أكل اللحوم بنفس الطريقة التى تأكلها بها الحيوانات لا تلائمه ، بدأ يستخدم النار من اجل اعداد الطعام ، وعندما وجد ان عورته مكشوفه وادرك ان فى ذلك اساءة له بدأ يسترها بأوراق الشجر ، وهكذا استطاع الانسان ان يميز نفسه عن الحيوان بطرق واساليب مختلفة ومتعددة .

ولم يأت ذلك بطبيعة الحال فى فترة وجيزة وانما ظل لانسان يطور نفسه عن طريق العقل حتى أصبح لا يمت للحيوان بصلة الا من نواح بيولوجية .

ولقد اعتمد الدارسون لثقافات المجتمعات الانسانية على الحفريات والآثار ليستخلصوا منها شواهد يعيدون بواسطتها تصوير حياة تلك المجتمعات وقد كان ذلك ممكنا الى درجة كبيرة بالنسبة للمجتمعات ذات الحضارات القديمة والتى توفرت عنها وثائق مادية تسهم فى أمكان اعادة تصوير الحياة الاجتماعية والثقافية. ولكن معظم المجتمعات الانسانية - وخاصة فى الفترات التاريخية البعيدة لم نتوفر عنها مثل تلك الوثائق ، ولذا لجأ أولئك الى الاعتماد على شواهد غير مباشرة لتحقيق ذلك الهدف . ومن تلك الشواهد : المصنوعات ، ولسنا هنا بصدد اثبات صحة تلك الوسيلة من عدمها . لكننا فقط نذكر بأنها الوسيلة الوحيدة التى يمكن بواسطتها اعطاء صورة أو صور متعددة عن حياة المجتمعات الانسانية عبر مراحل تاريخية مختلفة . ولا زلنا حتى الآن نسمع بالكشف عن آثار قديمة فى مناطق مختلفة من العالم ، ومن بينها المملكة العربية السعودية . ويعكف علماء الآثار والحفريات على دراستها

وتحديد تاريخها وبواسطتها يمكننا ان نتعرف على نمط الحياة فى تلك الفترة التاريخية .

ولم يتوان الانسان عن البحث والتنقيب والكشف والاختراع ، ذلك لان العقل المميز الواعى لم يتوقف عن التفكير والمتابعة وربط الاسباب بالمسببات، وعلى الرغم من تقدم الانسان الهائل فى مجالات مختلفة الا انه لم يحاول الكشف عن نفسه الا فى فترة متأخرة نسبيا ، ويبدو أنه انشغل بما حوله ونسى نفسه، لكنه عندما لاحظ المشكلات التى يعانى منها الانسان بصفة عامة . ادرك انه فى حاجة الى دراسة النفس الانسانية أو على الاصح «دراسة الانسان نفسه».

ولم يتوان الباحثون فى الفلسفة وعلم النفس عن تقديم الجهود التى لا نستطيع نكرانها ، وهم يحاولون الكشف عن كنه الانسان من أجل توفير الحياة المستقرة له والتى فى ظلها يستطيع الاستمرار والبقاء والعطاء من اجل الانسان فى كل مكان وزمان . ولكنهم ركزوا على جوانب وأهملوا أخرى أو أن علم النفس اعتمد فى منهجه وأسلوبه على الفرد وأهمل المجتمع مثلا . ولذا كان لابد من وجود علم يهتم بالفرد والمجتمع على حد سواد . ويدرس الانسان من كل الجوانب. فكان علم الانثروبولوجيا الذى حقق ذلك الهدف . أو هو اقرب الى تحقيقه . وان كان الانثروبولوجيون القدامى قد ركزوا اهتمامهم فى دراسة المجتمعات والثقافات البدائية واتخذوا من سكان استراليا الاصليين مجالا ونموذجا لدراستهم [1] ، فان المحدثين منهم وخاصة أولئك الذين يهتمون بالثقافات العديدة والمختلفة قد ركزوا كل اهتمامهم بالمجتمعات المعاصرة ، على

---

(١) لمزيد من الايضاح انظر : لوسى مير . مقدمة فى الانثروبولوجيا العامة . ترجمة د. شاكر مصطفى سليم دائرة الشؤون الثقافية والنشر : الطبعة الرابعة : الطبعة الرابعة ١٩٨٣ ، الفشل الاول والثانى ، وانظر ايضا :

Broce. G history of Anthropology Mennecpiolis U.S.A. 1973. p. 162.

اعتبار ان الجانب الاكبر من الثقافات البدائية قد اختفى أو ابيد تقريبا كما هو الحال بالنسبة للهنود الامريكيين . أو لأن الثقافات البدائية قد تغيرت جذريا بسبب المد الحضارى الحديث ، وأصبح هؤلاء يهتمون بأساليب الحياة المختلفة فى المجتمعات الحديثة ، ومن ضمن تلك الاساليب نشأة الفرد ، وكيف يعيش مع الآخرين ؟ وكيف يفكر؟ وماذا يفعل؟ وماذا يحب وماذا يكره ؟ وما هو سلوكه الى غير ذلك من الأمور المرتبطة بحياة الانسان اليومية . وبما ان الامر كذلك فيبدو ان الانثروبولوجيين أخذوا تعريف هذا العلم مأخذ الجد ، ولم يحاولوا الخروج عليه فى الشكل والمضمون . فكلمة انثروبولوجى تتكون من كلمتين اغريقيتين دمجتا معا لتعنى (علم الانسان) فكلمة (Anthropos) معناها الانسان (Logos) معناها العلم فأصبحت كلمة (Anthropology) تعنى علم الانسان او دراسة الانسان . ومن هنا انطلق الباحثون فى دراسة المجتمع الانسانى بالتركيز على الانسان فى كل مكان .. وفي حين لا يزال الالتباس قائما لدى الكثيرين الا ان الرؤية واضحة لدى الانثروبولوجيين فهم يعرفون كيف يبدأون ... دراساتهم وما هى المناهج المناسبة التى يستخدمونها ، وما الموضوعات التى يمكن ان يولوها عنايتهم واهتماماتهم والتى يرون أنها تفتح الافاق أمامهم للدراسة والبحث العلمى الجاد . ولم تعد الانثروبولوجيا ذلك المفهوم السائد لدى البعض - خاصة بدراسة المجتمعات البدائية - أو بدراسة وحدات اجتماعية محددة . أو ينحصر اهتمامها بالوصف او المقارنة وحدها بل تجاوزت ذلك الى ما هو اشمل وأعم فأصبحت اليوم تشمل المدينة والقرية جنبا الى جنب . ولم ينشأ ذلك من فراغ او بمحض الصدفة أو المقارنة وحدها بل تجاوزت ذلك الى ما هو اشمل وأعم فأصبحت اليوم تشمل المدينة والقرية جنبا الى جنب . ولم ينشأ ذلك من فراغ او بمحض الصدفة وانما اعتمد على اساس منطقى ومنهجى ظل الرواد فى هذا الميدان يسعون لتطويره وتوسيع دائرته بما يتناسب مع طموحاتهم واهدافهم التى تنحصر فى خدمة قضايا ومشكلات الانسانية عن طريق معرفة الارتباط والتداخل بين

قضايا المجتمع وظواهره ثم تقديم صورة كاملة عن هذا وذاك ثم تقديم الاراء والمقترحات التى يمكن ان تسهم بفعالية فى علاج المشكلات الاجتماعية ورسم السياسة الاجتماعية المثلي .

نشأة الانثوبولوجيا :

لا أحد يستطيع أن يقول ان دراسة الانسان وثقافته حكرا على العصر الحديث ، بل يمكن القول وبموضوعية انه لم يخل تاريخ الانسان من اهتمامات مختلفة بدراسة الانسان والثقافة فى الماضي ، بصرف النشر عن نوعية الانسان والثقافة ، ولقد كان الاهتمام بمثل ذلك فى العصور الماضية يتمثل فى اهتمام أولئك بالاساطير والحكايات ذات العلاقة بالدين ، ومن ضمن تلك الشواهد اساطير خلق الانسان ، أو محاولات الانسان البدائى فى تحقيق بعض الانجازات الثقافية كاكتشاف النار مثلا ، أو انتاج بعض الادوات التى تساعد فى الصيد أو اعداد الطعام وانتاجه . الى غير ذلك من الامور التى تبرز بعض الاهتمامات بالانسان والثقافة .

أما بعض الشعوب القديمة التى ساد فيها التعليم والتى يطلق عليها (الشعوب المتعلمة) فقد قدمت لنا تراثا شعبيا يتمثل فى قصص الاغريق واساطيرهم عن اصل النار وأصل الزراعة ، ومن أبرز المفكرين الاغبريق «هيرودوت» الذى عاش فى القرن الخامس قبل الميلاد حيث قدم بعض الفروض حول «لغة الانسان» [1] . وتمثل مؤلفات «هيرودوت» .. بالاضافة الى ما تبعها من مؤلفات قديمة المحاولات الاولية التى تختص بدراسة الانسان والثقافة من حيث الشكل على الاقل.

---

(١) رالف بيلز وهارى هويجر ، مقدمة فى الانثروبولوجيا العامة ، «الجزء الاول» ترجمة /.محمد الجورى والسيد الحسين – دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٦ ، ص ٢٧.

ومنذ القرن الخامس عشر الميلادى - وهو عصر الاكتشافات الكبرى بدأت تتراكم كميات كبيرة من المعلومات عن الانسان ، وتجمع ذلك الكم عن طريق الرحالة والمبشرين والجنود والتجار ، وامتزج فى ذلك الكم القليل من الحقائق والكثير من الحكايات، مما يمكن القول معه بأن ثقافة الانسان تعرضت لكثير من التشويه والتحريف تبعا لتأثر الرواه بميولهم الثقافية ، بحيث ينظر كل منهم الى ثقافات الشعوب الاخرى من منظار ثقافة مجتمعه ويتعصب لها ، وعلى الرغم من ذلك فان المادة التى جمعت خلال تلك الفترة اعتبرت الركيزة الاولى التى نهض عليها علم الانثروبولوجيا الحديث .

وخلال النصف الاول من القرن التاسع عشر ، بدأ عدد من الدارسين يعكفون على دراسة البقايا العظيمة التى عثر عليها فى عدد من الجهات فى اوروبا ، معتمدين فى ذلك على التقدم الذى احرزته الدراسات الجيولوجية وعلم الآثار والحفريات ، وكان لتلك الدراسات الفضل فى تحديد «عمر الارض» والتى رجحت إن الحياة على الارض تعود الى فترات تاريخية ابعد من تلك التى تصورها القدماء ، وقد كان «بوشيه دى بيرت» الفرنسى أول من قال بوجود الانسان فى أوربا منذ العصر الجليدى حيث عثر فى عام ١٨٣٠م على ادوات حجرية فى وادى سوم ، وعكف على دراستها ونشر نتائجها فى الفترة بين عام ١٨٤٧/١٨٦٤م . وفى عام ١٨٦٥م نشر «جون لوك» دراسة أوضح فيها ولأول مرة الفرق بين ثقافة الانسان فى العصر الحجرى القديم وثقافته فى العصر الحجرى الحديث وفى المانيا وخلال نفس العام ١٨٦٥م اكتشفت بعض البقايا العظمية للانسان الى جانب بعض من عناصر الثقافة المادية ، وكانت اول دليل مباشر على وجد الانسان القديم فى المانيا وهو ما عرف باسم انسان «نياندرتال» نسبة الى القرية التى عثر عليها فيها .. وقد أكدت تلك الاكتشافات الثقافية والعظيمة

---

(١) رالف بيلز وهارى هويجر . مقدمة فى الانثروبولوجيا العامة ، مرجع سابق ص ٢٨ .

وجود الانسان فى أوروبا منذ عصر سحيق ، وكانت ايضا بمثابة ركيزة اخرى نحو قيام علم الانسان الحديث .

وقد أدى التراكم التدريجى للمعلومات عن الانسان وثقافته الى نتيجتين :

(١) بذل جهود علمية لتصنيف الانسان ، وتحديد موقعه فى المملكة الحيوانية وتحديد سلالته وبيان تاريخ تطوره .

(٢) قيام علم مقارن لدراسة الثقافة الانسانية .

وفى الفترة ما بين عام ١٨٦٥/ ١٨٩٠م تطور مجال الدراسات المقارنة.. للثقافات نتيجة زيادة المعلومات عن مختلف شعوب الارض ونتيجة لتطور علم الآثار الذى ساهم فى تطور علم الانسان ، وكان من ابرز علماء تلك الفترة «ادوارد تايلور» الذى نشر مؤلفه الهام فى هذا المجال «الثقافة البدائية» عام ١٨٧١م فى بريطانيا . ثم «لويس مورجان» الذى نشر كتابه بعنوان «المجتمع القديم» عام ١٨٧٧م فى الولايات المتحدة الامريكية . وتلاهما كل من «هنرى مين» و «باخوفين» الاول فى بريطانيا والثانى فى المانيا حيث كتبا عن تطور النظم السياسية والقانون . ويبدو ان الهدف الذى سعى اليه هؤلاء وغيرهم من علماء القرن التاسع عشر فى مؤلفاتهم ودراساتهم ينحصر فى محاولة اكتشاف القوانين السيكولوجية التى ينطوى عليها التاريخ البشرى والتى تحدد مساره كما هو واضح من كتاب Tylor الثقافة البدائية وكتاب Morgan المجتمع القديم.

ومع مطلع القرن العشرين بدأت تتضح ملامح الدراسات الانثروبولوجية الحديثة الفيزيقية والثقافية على السواء ، حيث اصبحت الانثروبولوجيا تخصصا اكاديميا معترفا به واصبحت مادتها تجمع عن طريق الباحثين المدربين ميدانيا وقد اتسع ميدان الانثروبولوجيا اتساعا كبيرا واسهمت اسهاما بارزا في اثراء العلوم الاجتماعية بصفة عامة ، ويمكن تلخيص هذا الاسهام في القول بأنها اسهمت فى

توضيح مفهوم السلالة أو العنصر مما كان يسوده من خلط بين مفهوم اللغة والقومية والثقافة في الماضي ، كما أوضحت مفهوم الثقافة الذى أصبح اليوم محور الفكر المعاصر [١] .

ويمكن القول بأ الانثروبولوجيا لم تبدأ فى معناها الحقيقى الا فى منتصف القرن التاسع عشر مرتبط بالحركة الاستعمارية ، وخاصة الاستعمار البريطانى حيث بدأ الباحثون الانثروبولوجيون بدراسة الشعوب المستعمرة للتعرف على طبائعها وخصائصها والاستفادة من نتائج تلك الدراسات أما فى احكام السيطرة الاستعمارية عليها بمعرفة موطن ضعف المجتمع ثم رسم سياسة التعامل معه واما فى تعديل بعض الاوضاع لتصبح ملائمة لطبائع الشعوب وبالتالى استمرار الاستعمار ، ويبدو أن الفضل فى اتساع الامبراطورية البريطانية يعود ولو فى جزء محدود الى البحوث والدراسات الانثروبولوجية بطريقة أو بأخرى .

مجالات الانثروبولوجيا :

بدأت المحاولات الفعلية للاستفادة من الانثروبولوجيا بعد الحرب العالمية الأولي حيث ارتبط اول استخدام عملى لها ، «ادارة شئون المستعمرات» حيث نجد ادارات للمستعمرات البريطانية والفرنسية والهولندية ، تستخدم وعلى نطاق واسع الدراسات الانثروبولوجيا كما استخدمت الحكومة الامريكية هذا النوع من الدراسات فيما يتعلق بتقديم الخدمات المطلوبة للهنود الحمر وكذا فى المناطق التابعة لها فى المحيط الهادى ، وذلك وفقا لخصائص وثقافة تلك المجتمعات . وفى الوقت الحاضر نجد ان نتائج الدراسات الانثروبولوجية بدأت تفيد فى مجالات أخري كالصناعة وخاصة العلاقة بين الادارة والعمال ، وفى مجالات

(١) انظر فى ذلك :

Pelto, P Anthroopological ressarch, New York 1970, p. 18.

العمل المختلفة ، كما انها مفيدة الى درجة كبيرة فى مشروعات الاسكان والتوطين وكذا تنمية المجتمع المحلى والتنمية الاقتصادية . كما انه يمكن الاستفادة من اساتذة الانثروبولوجيا والباحثين فى دراسة جوانب مختلفة كالمشروعات الصحية ، وعمليات التكيف فى المجتمعات التى تتجه نحو التصنيع وخاصة تلك المجتمعات التى تعمد على عمالة بدوية وريفية .

.. وعلى الرغم من اتساع النطاق التطبيقى للانثروبولوجيا - وهو ما حاولنا اختصاره هنا - الا أن أغلب المتخصصين فيها لا يزالون يقتصرون على عملهم الاكاديمى فى الجامعات او فى معاهد البحوث اذ لا يجدون لهم أماكن فى مجالات العمل الوظيفى الا نادرا لاعتقاد البعض ان الانثروبولوجيين لا يستطيعون القيام بأعمال الوظائف العامة نتيجة لان المفهوم التقليدى للانثروبولوجيا لا يزال غامضا فى اذهان الكثير من الناس علي الرغم من التطور الهائل الذى شهدته الانثروبولوجيا من حيث المنهج والتطبيق والمجال فى الآونة الأخيرة والذى يجعل المتخصصين فى هذا العلم ذوى كفاءة جيدة فى القيام بأعمال ووظائف مختلفة .

علاقتها بالعلوم الاخري :

ولا أحد يستطيع ان يدعى ان الانثروبولوجيا هى العلم الوحيد الذى يدرس (الانسان) فعلم الاجتماع وعلم النفس والبيولوجيا ايضا علوم تهتم بدراسة الانسان، ولكن وجه الاختلاف بين هذه وتلك يكمن في ان الانثروبولوجيين خطوا خطوات ابعد من تلك التى تتضح فى علم الاجتماع او علم النفس مثلا . وهى انهم فى دراسة الانسان يتعاملون معه كعنصر ثقافى حى) ومن خلال نظرة شاملة فالانثروبولوجيا تبحث دائما أصل السلوك الانسانى الشامل دون التركيز على السلوك الفردى هذا بالاضافة الى تميزها بالمنهج والادوات وفى الوقت الذى يبحث علم

الاجتماع عن العموميات او يعتنى بدراسة العموميات Generaiceatiõn نجد ان الانثروبولوجيا تعتنى بحالات Particular Case ومن ناحية ثانية فانه يمكن القول بأنه ان كان علم النفس يدرس الجوانب الداخلية للانسان كالشعور ويدرس علم الاقتصاد ما يمكن تسميته (بالسلوك الاقتصادي) ويدرس علم الاجتماع السلوك الانسانى فى المجتمع ، وتدرس البيولوجيا وظائف الاعضاء ، ويدرس علم السياسة الانشطة ذات الطابع السياسى ، الا ان هذه العلوم تنطلق من تعميم علي أساس ما سميته بوحدة الطبيعة الانسانية Uman Unity لكن هذه الطبيعة الانسانية التى كانت الاساس فى تقنيات عديدة فى العلوم المختلفة المرتبطة بالانسان وسلوكه ، هى فى الحقيقة شيء غامض . .فنحن لا نعرف أنفسنا حق المعرفة ، لكننا نتحدث عن شيء اسمه الطبيعة الانسانية ونؤكد عليها بما نذهب اليه من تعميمات عن سلوك الانسان . ولعل ذلك له علاقة بالحقيقة التى تقول بوجوب عمومية النظرية ، وضرورة اختبارها على مستويات اجتماعية مختلفة حتى تكتسب المزيد من التأييد والثابت . وبذلك يمكن ان نقول بأ الانثروبولوجيا يمكن ان تسهم فى علوم جديدة بما يمكن ان تقدمه فى مستويات مختلفة اجتماعية وثقافية وجغرافية ايضا عن (طبيعة الانسان).

كما ان هناك جوانب تغفلها معظم العلوم والتى ترتبط بتخصصاتها وفى نفس الوقت لا تشكل زءا فى دراستها ، فمثلا الطب العلاجى ، لا يعير الطب الشعبى اهتماما ، ولا يعطى للسحر وأساليبه أية أهمية ، كما ان علم النفس لا يقدم تفسيرا واضحا عندما يسقط الفرد مريضا ويعتقد انه تعرض لعملية السحر، فى حين أن ذلك يعتبر طرفه يضحك منها البعض . كما ان دارسي القانون يهتمون فى دراساتهم بالقوانين المرتبطة بحياة المجتمع ويسعون للمحافظة على النظام ومقاومة الجريمة ، ولكنهم لا يقدمون لنا تفسير عندما تتحول الجريمة نفسها الى هيكل نظامى له قوانينه الخاصة . ولكن الانثروبولوجيا وحدها تعتنى

بذلك كله ، ولذا فانها تحتل موقعا وسطا بين مختلف العلوم ، فهى بالاضافة الى تخصصها فانها تتناول الجوانب التى تغفلها معظم العلوم المتخصصة . وهى ايضا تمد الباحثين في الفروع المختلفة بالكثير من الحقائق التى يمكن ان تكون اساسا للمقارنة وموضعا لاختبار صحة وعمومية ما يتوصلون اليه من قوانين (١).

والنظرة الشمولية هى ميزة خاصة للانثروبولوجيا عن غيرها من العلوم التى تعنى بدراسة الانسان . وهى مرتبطة بالمنظور الوظيفى فى الدراسات الانثروبولوجية الذى يرتكز على الاعتماد المتبادل بين الظواهر الاجتماعية وينظر الى المجتمع كوحدة تتكامل داخلها الاجزاء والتى تتبادل التأثير فيما بينها ، فاذا كان الاقتصاد يمكن ان يدرس على حدة عملية الانتاج او عملية التوزيع، فان الانثروبولوجى يتناول نفس الموضوع بالدراسة ولكن ليس على أساس ان عملية الانتاج عملية جزئية فى نظام اكبر هو النظام الاقتصادى بعملياته المختلفة من انتاج واستهلاك وتوزيع تبادل وغيرها فقط ، ولكنه يربط بين تلك العملية والمجتمع بنظمه المختلفة كالنظام السياسى والاقتصادي والقرابى وغيرها على أساس ان هناك تأثيرات متبادلة بين هذه النظم وعملية الانتاج . ومعني ذلك ان الانثروبولوجيا عندما تدرس أى نشاط انسانى أنها تسلك اتجاها مختلفا عن غيرها من العلوم ، أذ ان لها مفهومها المحدد الذى مؤداه : أنه لا يمكن فهم سلوك أو ظاهرة فهما صحيحا بعيدا عن الكل الذى يتضمن ذلك السلوك أو الظاهرة . وعلى هذا فان الانثروبولوجيا تقدم تفسيرا متكاملا للسلوك و الظاهرة، وتستعين من أجل ذلك بكثير من التخصصات التى لا تنتمى اليها ، حيث تلاحظ ان الباحث الانثروبولوجى يستعين فى سبيل تحقيق هذا الهدف ببيانات من علوم أخرى كعلم النفس والاقتصاد والفسيولوجيا والايكولوجيا

(١) انظر الفصل السادس عشر الانثروبولوجيا التطبيقية من كتاب (لوسى مير) ص ٣١٧ وما بعدها ، مرجع سابق .

وغيرها من العلوم الاخرى . كما ان المنهج وطيرقة الدراسة وادواتها تعتبر من أهم ما يميز الانثروبولوجيا عن غيرها من العلوم . فالدراسات الانثروبولوجية بطريقة خاصة فى البحث الذى يميزها بلا جدال عن غيرها من التخصصات والفروع الاخرى بما فى ذلك علم الاجتماع الذى يقترب منها كثيرا بالمقارنة بغيره من الفروع وهذه الطرق ترتكز أساسا علي البحث الحقلى .

وكذلك استخدام المنهج المقارن ، فاذا كانت العلوم الطبيعية يتوافر لها امكانية اعادة التجربة المعملية ويتوافر لها امكانية اعادة التجربة ، والحصول على الظروف المناسبة لها معمليا . فأن الانثروبولوجيين قد ابتدعوا الطرق الحقلية لتحل محل التجارب المعملية اذا جاز هذا التعبير .

فعندما يريد الباحث الانثروبولوجى بحث نظرية معينة فانه يبحث عن بعض المجتمعات التى تتوفر فيها العوامل اللازمة لاختيار هذه النظرية كما يستعين الباحث الانثروبولوجي فى نفس الوقت بالكتابات السابقة فى هذا الموضوع وما تم التوصل اليه وهنا فان الباحث الانثروبولوجى يلتزم طرقا معينة فى البحث تقتضى الاقامة بمنطقة البحث واستخدام الملاحظة بالمشاركة .

واذا كنا قد اشرنا الى اهتمام الانثروبوولجيا بتسجيل التشابه والاختلاف وقلنا نها تمد العلوم المختلفة بمعيار لاختبار نظرياتها من خلال ما تصل اليه من قوانين ومع ما توفره من بيانات ومعلومات .

ولذلك فان الانثروبولوجين عمدوا الى دراسة ومقارنة الظاهرة فى اكبر عدد ممكن من المجتمعات البشرية سواء المجتمعات القديمة او الحديثة ثم قارنوا بين ما توصلوا اليه من حقائق من خلال هذه الدراسات عندما ارادوا التوصل الى خصائص الجنس البشرى الفزيقية ، وهذا هو ما يفعله دارسو الثقافة ايضا فى محاولتهم التعرف على سمات السلوك الانسانى .

اقسام الانثروبولوجيا وفروعها :

وكما لاحظنا فى السابق من تنوع الاهداف والمجالات لعلم الانثروبولوجيا حيث انه علم متميز بين العلوم الانسانية يمكن ان تستخدم نتائج دراساته وابحاثه فى ايجاد الحلول لكثير من قضايا المجتمع ومشكلاته ، كما يمكن ان تساهم تلك النتائج في تنمية المجتمع وتطويره عن طريق الاستفادة منها فى رسم السياسة الاجتماعية بصفة عامة ، وجدير بعلم يمتلك تلك الصفات المميزة ان تتعد فروعه واقسامه تبعا للحاجة اليها فى مجالات مختلفة ، ونظرا لما للانثروبولوجيا من أهمية فقد اتجهت الجامعات الكبرى فى كل من بريطانيا واوربا وكذا الولايات المتحدة الامريكية ومصر الى انشاء اقسام متخصصة فى الانثروبولوجيا ووفرت لها كل الامكانات المطلوبة المادية والبشرية التى تؤهلها للقيام بالمهام التى أسست من أجلها .. ومن خلال التطور الذى شهدته وتعدد المجالات التى أشرنا اليها فأنه يمكن القول بأن هناك اتفاقا على تقسيم الانثروبولوجيا فى الوقت الحاضر الى قسمين رئيسيين هما :

(١) الانثروبولوجيا الثقافية والاجتماعية .

(٢) الانثروبولوجيا الفزيقية .

ويتدرج تحت كل فرع من هذين الفرعين الكبيرين الكثير من الفروع الاخرى ذات الصبغة المحددة والتخصصات الدقيقة ، وحيث ان الكتاب الثانى من هذه السلسلة سيخصص بكامله لموضوع الانثروبولوجيا الثقافية والاجتماعية مع الاشارة بتوسع محدود الى الفرع الثانى ، على أمل ان يخصص لهذا الفرع فى المستقبل القريب كتابا ثالثا . لذا فانه يمكن عرض الاقسام والفروع هنا بطريقة مختصرة تفيد المبتدئين فى الدراسات الانثروبولوجيا وتفتح لهم الطريق نحو المزيد من القراءات والاطلاع فى هذا المجال الحيوى الهام .. وطالما ان هدف هذا الكتاب كذلك فأنه يمكن ان نعرض للقسم الاول على النحو التالى :

الانثروبولوجيا الثقافية والاجتماعية هى التى تهتم بصفة اساسية بدراسة تاريخ واصول الثقافات والمجتمعات الانسانية من حيث نموها وتطورها ، كما تدرس البناء الثقافى للمجتمعات واداثه الوظيفى فى كل مكان وزمان حيث ان الانثروبولوجيا الثقافية تهتم بالثقافة ذاتها فى الماضى والحاضر وم خلال الثقافة يستطيع الانثروبولوجيون الكشف عن التأثير المتبادل بين البيئة الطبيعية والانسان من خلال تفاعلات المجتمعات مع بعضها البعض . ومن خلال محاولات الناس الحياة والعمل فى آن واحد . ويمكن ان تكون دراسة الانثروبولوجيا الثقافية والاجتماعية ذات جانبين [1]:

الأول ك الدراسة المتزامنة أى دراسة المجتمعات والثقافات عند نقطة معينة من تاريخها ، والثانى : الدراسة التتبعية والتاريخية أى دراسة المجتمعات والثقافات عبر التاريخ . وعلم الاثار هو العلم الذى يضطلع بالقيام بهذا النوع من الدراسات من خلال تركيزه على الثقافات والمجتمعات القديمة وكذا بدايات الحضارة الحديثة . حيث يحاول علماء الاثار اعادة رسم صورة الاشكال الثقافية القديمة ثم تتبع نموها وتطورها عبر الزمان [2] . ولا يغيب عن الذيهن ان الجانب الكبير من معرفتنا عن تاريخ المجتمعات القديمة يعتمد على تلك الوثائق التى كتبها افراد عاصروا احداث تاريخية وكتبوا عنها . ومن خلال تلك الاحداث التاريخية .. يمكن ترتيبها حسب السياق التاريخى ، ثم ربطها ببعض للتعرف على طبيعة المجتمعات التى كتبت عنها تلك الوثائق . كما يمكن لعالم الاثار اعادة رسم صورة الثقافات القديمة مستعينا بالاثار المادية الى جانب الوثائق التاريخية ، فقد يعثر عالم الاثار على بعض الكهوف والملاجىء أو على بعض

---

(1) Emestne, Fried: Vasilika Avillage in madern Greece. by Rinchart and winston. In. New York. 1982, pp/ 21 - 80.

(٢) رالف بليز . مقدمة فى الانثروبولوجيا العامة ، مرجع سابق .

الادوات والاسلحة للانسان القديم ، أو على بعض الرسوم او النقوش أو على اطلال المنازل والمعابد ، ومن. خلال كل ذلك يتمكن من وصف جوانب الثقافة القديمة وربطها بالبيئة الطبيعية لذلك الانسان ، ولا شك ان السايق التاريخى الذى عن طريقه يعيد عالم الاثار رسم صور الثقافات القديمة - غير المكتوبة - لا يرقى الى نفس الدرجة من التى تستطيع الوصول اليها من خلال دراسة آثار الشعوب والمجتمعات المتعلمة التى تركت لنا اثارها وتاريخها مكتوبا. ومن خلال ما تقدم يمكن ان نعرف اين ومتى ظهرت الثقافة لاول مرة . كما نتوصل الى قدر من المعرفة بتطور الثقافات البشرية ، ومن خلال ذلك يمكننا من معرفة تعاقب الانماط الثقافية المختلفة مثل مجتمعات الالتقاط فالصيد فالمجتمعات الزراعية. كما امكننا ان نعرف ان تطور الثقافة لم يسر على نمط واحد أو بسرعة واحدة فى كل المجتمعات الانسانية ، فعلى الرغم من ان جميع الثقافات التى نعلمها الان قد تعرضت لتغيرات هائلة منذ ظهور الانسان البدائى منذ نحو (مليون سنة) الا ان هذه التغيرات كانت تسير بخطوات سريعة عند بعض المجمعات فى حين لم تكن كذلك لدى مجتمعات أخرى .

وعندما يقدم لنا علم الآثار كل ذلك فان مهمته تنتهى حيث تبدأ مهمة الاثنولوجيا Ethnology وهى ذلك الفرع الذى يهتم بتصنيف الناس على اساس خصائصهم الثقافية والسلامية الى جانب الاهتمام بتحركات الفارد ، وانتشار السمات الثقافية ، ثم الدراسة المقارنة لتلك الثقافات وبحث المشكلات النظرية التى يمكن ان تنشأ من خلال تحليل العادات الانسانية وعلى هذا الاساس فان الاثنولوجيا تهتم بالثقافة نفسها دون البناء كما تهتم بالتفسير الى جانب الوصف [1] . وعلى ذلك فان الانثولوجى يهتم بدراسة ووصف الثقافة فى كل

(١) محمد عاطف غيث ، قاموس علم الاجتماع ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٩ ، ص ١٦٤ .

مكان من العالم ليس فى المجتمعات القديمة فقط بل حتى فى القرى والمدن الحديثة، ويجب ان ندرك ان ثقافة الانسان تختلف من مجتمع لآخر بنفس الاختلاف بين فترة تاريخية وأخرى . فلكل مجتمع او لكل منطقة ثقافة خاصة بها فعادات اوروبا مثلا تختلف عن عادات شعوب آسيا ، وكذلا تختلف عادات شعوب افريقيا عن عادات امريكا وهكذا ... وتهتم الانثولوجيا اهتماما كبيرا بتفسير أوجه التشابه والاختلاف بين الثقافات الانسانية .

وقد يتناول الباحث ذلك تاريخيا فيحاول ان يلتمس فى تاريخ شعب معين وخاصة فى حالة اتصاله او عدم اتصاله بشعوب اخرى . اسباب أوجه التشابه والاختلاف ، وقد يعمد الى المقارنة المنهجية المنظمة بين الثقافات رغبة فى الوصول الى تحديد بناء تلك الثقافات وكيفية ادائها لوظائفها .

وقد تقوده تلك الدراسات الى تفسير لاوجه التشابه الواسعة الانتشار والى أوجه الاختلاف النوعية ، وكذلك فأن الدراسات المسحية المقارنة للثقافات الانسانية ماضيها وحاضرها تساعد على تفسير العمليات التى تغيرت بموجبها الحضارات البشرية فى الشكل ، وكذلك القيام بتحليل لبناء المجتمعات البشرية وادائها لوظايفها .

وان كل مثل هذا النوع من الدراسات يتدرج تحت الانثروبولوجيا الاجتماعية وليس الثقافية [(١)] .

ويمكن ان نجيب على هذا التساؤل بالقول : أول من استخدم مصطلح الانثروبولوجيا الاجتماعيه هو «جيمس فريزر» فى محضرة القاها فى جامعة «ليفربول» فى مايو عام ١٩٠٨ ، وهو بهذا ميزها عن المفهوم القديم الاثنولوجيا Ethrology وكان عنوان محاضرته مجال الانثروبولوجيا الاجتماعية The Scope of Social Anthropology .

(١) رالف بيلز . مقدمة فى الانثروبولوجيا العامة . مرجع سابق ص ٢٤ .

حيث حدد «فريزر» مجال دراسة الانثروبولوجيا الاجتماعية فى محاولة الكشف عن «القوانين العامة» التى تحكم الظواهر الاجتماعية بحيث تفسر ماضى الانسان وتجعل من الممكن تحديد ملامح مستقبله استنادا الى القوانين الاجتماعية العامة التى تنظم تاريخ الانسان ، ذلك ان الطبيعة البشرية تتسم بأنها واحدة وان اختلف الزمان والمكان .

ويرى «فريزر» أن الانثروبولوجيا الاجتماعية دراسة من نوع خاص . لانها دراسة تقوم على التجربة والفرض . تجربة حقلية تستند الى فروض نظرية موجهة وعلى المشاهدة العملية المظنمة ، ولذا كانت الدراسة الحقلية Field work عبارة عن محاولة تطبيق المنهج الاستقرائي inductive Method وهو منهج فى اصله مرتبط بصلب مناهج العلوم الطبيعية [1] .

والدراسات الانثروبولوجية المعاصرة لم تعد تقتصر على المناهج التقليدية التى كان الاوائل يستخدمونها . بل يستخدم الباحثون الان مختلف المناهج التى تقوم على التجربة وتخضع للمشاهدة المباشرة . كما تتم دراسة النظم والانساق الاجتماعية استنادا الى الملاحظة والتحليل والمقارنة . ولعلهم فى ذلك يسيرون وفق تعريف «راد كليف براون» الذى عرف الانثروبولوجيا بأنها : «دراسة طبيعية المجتمع الانسانى دراسة منهجية منطمة تعتمد على مقارنة الاشكال المختلفة للمجتمعات الانسانية بالتركيز على الاشكال الاولية «المجتمع البدائى» [2] .

ولكن ينبغى ان نكون على حذر من الوقوع فى الخطأ الشائع حول مفهوم معنى المجتمع البدائى ، فليس المقصود به المعنى «التاريخى» اذ أن النظم

---

(١) قبارى محمد اسماعيل ، الانثروبولوجيا العامة . منشأة المعارف ، الاسكندرية غير مبين سنة النشر ، ص ١٢ ، ص ١٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٤ .

البدائية لا تعنى تلك المراحل الاولية . فليس من المنطق ان نقارن معنى البدائية المحلية والتى غالبا ما نقصد بها «التقليدية» بالبدائية التى كانت فى تاريخ الانسان الحضرى الذى انقرض منذ فجر التايخ ولعل هذا الخطأ الشائع مصدره ما نتج عن المذهب الداروينى والتيارات التطورية التى التحمت بالدراسات الانثروبولوجية . اذ قارن الدارسون بين الثقافة فى مجتمعات افريقية واسترالية وثقافة المجتمع الاوربى والامريكى . ولذا نظروا الى تلك الثقافة على انها «اشكال أثرية» وان تلك المجتمعات عبارة عن «متاحف» وتلك نظرة خاطئة حيث ان الانسان لاذى تطلق عليه اليوم صفة «البدائى» والذى يعيش فى مجتمعات مختلفة الان يمثل مرتبة عالية من التطور مقارنة بالانسان الحضرى القديم . كما ان للمجتمعات البدائية الحالية تاريخها وثقافتها التى ترجع الى الاف السنين .

ومنذ حوالى ربع قرن تقريبا بدأ علماء الانثروبولوجيا الاجتماعية يوجهون اهتماماتهم نحو دراسة الدور الذى يوديه الفرد فى المجتمع ونحو موضوع ارتباط نمو الشخصية بالتراث الثقافى فى محاولة للتوصل الى اجابات : ما هو دور الفرد فى بعض العمليات الثقافية؟ وما هى الوسائل التى تحاول المجتمعات الانسانية من خلالها تشكيل الشخصية الفردية؟ وما هى انواع السلوك المقبولة فى المجمع والمرفوضة وفقا للثقافة السائدة؟ وإلى أى مدى يمكن للفرد الابتعاد عن السلوك الثقافى المقبول وما الموقف ازاء ذلك ؟!

ومن خلال هذه الدراسات استطعنا ان نتزود بمعلومات اكثر تحديدا عن عمليات نمو الثقافة واتساع نطاقها كما امكن التوصل الى نظريات تساعد فى فهم الشخصية من حيث طبيعتها ونموها . مما يساعد على التوصل الى طرق افضل لتعليم الصغار وانتهاج اساليب الضبط الاجتماعى الملائمة . وللانثروبولوجيا الاجتماعية مهمة تختص بدراستها وهى (السلوك الاجتماعى) الذى يتشكل على هيئة نظم اجتماعية كالاسرة والتنظيم السياسى والقرابى على انها تركز على العلاقة بين هذه النظم سواء فى المجتمعات المعاصرة أو القديمة أو

التى يتوفر لدينا منها معلومات تاريخية . ونظرا لاتساع نطاق الدور او المهمة كما ذكرت التى يختص بها هذا الفرع فقد قسمت مجالاتها الى فروع مستقلة سميت بمجال اهتمام كل منها مثل :

(١) الانثروبولوجيا الاقتصادية .

(٢) الانثروبولوجيا التطبيقية .

(٣) الانثروبولوجيا السيكلوجية.

(٤) الانثروبولوجيا الطبية .

(٥) انثروبولوجيا التنمية .

وقبل ان نشير الى بعض هذه الفروع بقدر ما نراه ضروريا للتعرف على الانثروبولوجيا وفروعها نود ان نلقى بعض الضوء على العلاقة بين الانثروبولوجيا الثقافية والاجتماعية .. فهناك من يعرف الانثروبولوجيا الثقافية بأنها «الفرع الذى يدرس الانسان ككائن ثقافى ينتمى الى نمط ثقافى خاص متميز» فهى اذن تركز على الصيغة الكلية للسمات الثقافية والعلاقة المتبادلة بين تلك السمات [(١)].

ويمكننا التعرف بسهولة على الفرق بين هذين الفرعين ، اذا علمنا ان منشأ الانثروبولوجيا الاجتماعية كان على يد الباحثين البرطيانيين ، الذين بدأوا فى اجراء الدراسات والبحوث - كما ذكرت سابقا - على بعض الاقطار التى كانت مستعمرة بهم وخاصة فى افريقيا حيث هناك المجتمعات من معايشة تلك المجتمعات الصغيرة ودراسة العلاقات الاجتماعية التى تسود فيها .

وكذا التعرف طبيعية النظم السائدة فيها ، كالسياسة والاجتماعية والقرابية وغيرها ، ولذا فقد ساد الاتجاه البنائى وكان الطابع المميز للدراسات والبحوث البريطانية .

(١) محمد عاطف غيث ، قاموس علم الاجتماع ، مرجع سابق ، ص ٩٩ .

فى حين ان الاتجاه الانثروبولوجى الثقافى كان الطابع المميز للدراسات والبحوث الانثروبولوجية فى امريكا وذلك لان مجتمعات قبائل الهنود الحمر فى امريكا كانت تنتشر على مساحات شاسعة فى السهول والبرارى الامريكية مما جعل دراسة تلك المجتمعات بنفس الطريقة فى افريقيا امرا بالغ الصعوبة نتيجة الانتشار المكانى للهنود الحمر وعدم قدرة الباحث على الاحاطة بكل انماط العلاقات الاجتماعية هناك من جهة ولتداخل الثقافات بين تلك المجتمعات المتناثرة من جهة ثانية ، ولذا انصرف الباحثن عن دراسة العلاقات الاجتماعية. كما فعل البريطانيون واتجهوا نحو دراسة الثقافة المتمثلة فى اللغة والدين والعرف والعادات والتقاليد والجوانب المادية الثقافية للهنود الحمر . وهكذا نلاحظ ان الفصل بين النوعية نشأ لظروف طبيعية خلقت فوارق بين مناطق الدراسة وبالتالى حددت سير ومجال الدراسات نفسها ، ونشأ عن ذلك اثراء فروع هذا العلم بالكثير من البحوث ، والدراسات ذات الفاذدة على المستويين النظرى والعملى ، مما ساعد بشكل واضح على تقدم العلم بخطوات واسعة خلال فترة وجيزة [(١)] .

الانثروبولوجيا الاقتصادية :

علم الاقتصاد اهتم بدراسة العمليات الاقتصادية ، هذه العمليات تعنى من وجهة نظر بعض الاقتصاديين : توزيع الموارد النادرة على الاهداف المختلفة. بينما يرى البعض الاخر شمول التعريف ليضم الطاقة الانسانية ، والمهارات والمعرفة، أما الأهداف فهى تعنى كل ما يشبع الرغبة الانسانية .. اما الانثروبولوجيا فتهتم بدراسة بعض الظواهر التى يوليها عالم الاقتصاد اهتمامه ، اعنى بذلك انتاج السلع والخدمات وتوزيعها واستهلاكها فضلا عن ذلك فان عالم

(١) انظر : ايفانز برتشارد . الانثروبولوجيا الاجتماعية . ترجمة الدكتور احمد ابوزيد ١٩٦٥.

الانثروبولوجيا يهتم بدراسة العلاقة بين هذه النظم والانساق الفرعية من ناحية وبين الجوانب الاخرى للنسق الاجتماعى الثقافى الكلى من ناحية أخرى [1] .

ولقد ظلت العلاقة بين علم الاقتصاد والانثروبولوجيا موضوعا لجدل طويل ولا يزال هذا الجدل مستمرا حتى الان . فالنظرية الاقتصادية الصورية تطورت فى المجتمعات الغربية وقد استطاع الاقتصاديون تطوير نماذة استنباطية تتناول الظواهر الاقتصادية بفضل القدرة علي صياغة افتراضات حول المجتمع وطبيعة الانسان .. وتشير الانثروبوولوجيا الاقتصادية عددا من التساؤلات حول الافتراضات الاساسية فى النظرية الصورية الاقتصادية منها : الى أى مدى تتصف الافتراضات التى تدور حول السلوك الانسانى بالشمولية ؟ وهل تحتل البيانات المتعلقة بالمجتمعات غير الصناعية أهمية فى سبيل تطوير النظرية؟ والى أى حد يمكن ان تكون النظرية الاقتصادية الصورية ذات فائدة فى فهم اقتصاديات المجتمعات غير الصناعية ؟ الى غير ذلك من التساؤلات التى تطرح العديد من القضايا والتى تحتاج الى دراسة وتعميق فهم . ويميل بعض علماء الانثروبولوجيا الى القول بأن النظرية الاقتصادية لا تنطوى الا على القليل من الفاذءة التى يمكن ان تقدمها لعالم الانثروبولوجيا [2] . ويرى الانثروبولوجيون ان من بين الوظائف الاساسية للانثروبولوجيا الاقتصادية تقديم وصف لحالات اقتصادية خاصة ثم محاولة ربطها بالنظرية الاقتصادية التى لابد ان تشمل فى كثير من جوانبها الكثير من الانساق الاجتماعية . ثم دراسة الوسائل المختلفة التى يمكن من. خلالها ان تتوزع وظائف النسق الاقتصادى على النظم التى تختلف بوضوح عن تلك النظم التى تؤدى الوظائف فى المجتمعات الغربية مثلا وهكذا نلاحظ ان الانثروبولوجيا الاقتصادية يمكن ان تسهم اسهاما واضحا فى

---

(١) رالف نيلز : مقدمة فى الانثروبولوجيا ، ص ٤١٢ ، ٤١٣ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٤١٢ ، ٤١٣ .

انارة الطريق امام النسق الاقتصادى طبقا لاحتياجات المجتمع بأختلاف الزمان والمكان والثقافة .

الانثروبولوجيا التطبيقية :

بعد ان كانت الانثروبولوجيا مرتبطة بالمجتمع البدائى والمجتمعات لاصغيرة فى أذهان الكثير ، استطاعت الانثروبولوجيا بفضل تطور مناهجها وادواتها فى الدراسة ان تتجاوز المجتمع البدائي والفردى لتصل بالدراسة والبحث الى مجتمع المدينة أو المجتمع الصناعى وعلى الرغم من آن فرع الانثروبولوجيا التطبيقية يعتبر حديثا الى حد ما . الا ان الدراسات التطبيقية التى أجريت فى افريقيا واستراليا مثلا وغيرها من المناطق تؤكد ما ذهبنا اليه ويكاد يرتبط هذا الفرع بدراسة شهيرة تمت في جامعة هارفارد بالولايات المتحدة الامريكية وهى دراسة تطبيقية فى مجال الصناعة ، وقد ركزت هذه الدراسة على بعض المشكلات المتعلقة بالانتاج وقياس مدى كفاءة المصنع فيما عرف باسم الانثروبولوجيا الصناعية Industrial Anthropology وهذا بالطبع يؤكد قدرة الانثروبولوجيا التى أشرنا اليها على الانتقال من الارتباط بالبدائية والمجتمعات المتخلفة الى دراسة الانساق الصناعية، ومن ثم البحث في مشكلات الصناعة والتصنيع وغيرها من المجالات ذات الارتباط المباشر بالانسان والمجتمع .

الانثروبولوجيا السيكلوجية :

هناك صلة وثيقة بين الانثروبولوجيا وعلم النفس فهناك دراسات مرتبطة بعلم النفس الاجتماعى Social Psychology والانثروبولوجيا السيكولوجية Psychological Anthropology تلك التى تدرس المظاهر السلوكية العامة للجنس البشرى حين يعيشون فى جماعة او طبقة أو مصنع ، ويدرس هذا الفرع الخصائص العقلية والسلوكية في مختلف الانماط الثقافية .

ويقول : راد كليف براون فى هذا الخصوص «عندما ندرس سيكلوجية الفرنسيين أو الالمان او الامريكان . فأننا نقصد معالجة الخصائص العقلية والملامح السلوكية الناجمة عن شروط الحياة فى نسق اجتماعي معين بالذات» [1] ويتضح من هذا النص ان هذا الفرع يدرس سيكلوجية الجماعات وثقافات الشعوب ، ومدى تأثير الظروف البيئية العامة فى سلوك الانسان . كما تدرس تقاليد وعادات الشعوب ، نظرا لانعكاس ذلك على انماط الفعل واشكال السلوك مستعينة بالاثار ومعتمدة على التاريخ الانسانى ، فى محاولة لاعادة تصوير حياة الانسان والمجتمع ظلت تنمو وتتطور حتى اصبحت علما متميزا من حيث النظرية والمنهج والموضوع والهدف ، فمن. حيث النظرية نجد ان التساؤل عن أصل الانسان والنظم الاجتماعية نتج عنه ما يسمى بـ«المدرسة النشوئية» والسؤال عن تطورها تولى الاجابة عليه ما يعرف بـالمدرسة التطورية» أما مسألة انتشار تلك النظم فقد تولى البحث فيه ما عرف بـ«المدرسة الانتشارية» وأما دراسة وظائف الظواهر الاجتماعية فى تعامل وحركة المجتمع وتفسيرها فهو من اختصاص «المدرسة الوظيفية» . هذا بالاضافة الى المدرسة الامريكية المعاصرة التى تهتم بالتحليل الوظيفى للبناء الثقافى الى جانب اهتمامها بالدراسة الايكلوجية الحضارية والتى تؤلفها العناصر التالية . البيئة ، السكان ، التكنولوجيا ، التنظيم الاجتماعى ، والمناطق الحضارية .

ومن خلال تطور النظرية تطورت المناهج وتعددت ، ولا نستطيع الفصل بين النظرية والتطبيق ذلك أن تطور النظرية ارتبط بتطور المنهج والعكس ، بمعني أن هناك اثرا متبادلا بين كل منهما فهناك علاقة قوية بين منهج البحث وفلسفته. وبايجاز يمكن القول بأن كلا منهما صدر عن الاخر . ولم يمنع ذلك من تخصيص (فصل خاص) عن مناهج البحث الانثروبولوجي فى هذا الكتاب أما عن موضوع الانثروبولوجيا فهو الانسان والمجتمع ، ولم تقتصر الانثروبولوجيا على دراسة نسق معين فى المجتمع انما امتازت بالشمولية والمشاركة فى كثير تصصات العلوم الاخرى كما أسلفنا ، واما الهدف فهو خدمة قضايا المجتمع والساهمة الفعالة فى

تقديم الحلول للكثير من المشكلات فى المجتمع الانسانى والمساهمة فى رسم سياسة اجتماعية واقتصادية مفيدة للمجتمع بحيث يمكن من. خلال الاعتماد على نتائج الدراسات والبحوث الانثروبولوجية تجنب الكثير من المزالق والمحاذير خلال عمليات التنمية وتحديث المجتمعات . ويمكن القل ختاما لهذا الفصل بأن اركان هذا العلم راسخة الان تماما . مما يجعلنا اكثر تفاؤلا فى مستقبل تستطيع فيه الانثروبولوجيا ان تضطلع بدور اكثر اتساعا وشمولا في خدمة الانسان فى كل زمان ومكان .

الفصل الثاني
طرق البحث السوسيوأنثروبولوجي
في دراسة المجتمعات البدوية*

* كتب هذا الفصل أ.د. محمد عبده محجوب - عميد كلية الآداب

الفصل الثاني
طرق البحث السوسيوأنثروبولوجي
في دراسة المجتمعات البدوية *

من المعروف ان الانثروبولوجيا قد ارتبطت فى البداية بدراسة الشعوب والمجتمعات والثقافات البدائية Primitive societies and cultures ، ولعل هذا الارتباط قد قام فى جانب منه على أساس ان كلمة انثروبولوجيا تثير فى الذهن معانى متعددة – وبخاصة فيما يتعلق بتطور الحياة العضوية فى مراحلها المتأخرة لدى القردة العلياAnthropoid apes بصورها فى الاسلاف الغابرة للنوع الانسانى ، كما قد تثير لدى البعض معانى تدور حول الشعائر الغريبة والخرافات التى تمارسها الشعوب المتوحشة Savage peoples فى المجتمعات الافريقية وغيرها .

كذلك فمن المعروف أن التعريف بهذه الكلمة «انثروبولوجيا» Anthropology يتمثل فى اشتقاقها الذى يعنى علم الانسان . والكلمة تشترك فى الاشتقاق مع كلمات اخرى تعنى علم تسلسل الانسان، أو الاشارة إلى مرتبة معينة من مراتب الحياة العضوية ، وتعنى مرتبة البشريات Anthropoids التى تشتمل الانسان والقرود معا ، وبالاضافة الى ذلك فهى تشترك مع كلمات تعنى : دراسة مقاييس الجسم الانسانى ، وتشبيه الانسان بالله ، والاشارة الى اكلة لحوم البشر Anthropophagey . ولعل فى هذا ما يفسر تلك الظلال الكثيرة التى تحيط بالكلمة حين يقصد بها معناها الفنى لعلم يعنى بدراسة الجوانب المتنوعة فى الانسان Man .

---

* كتب هذا الفصل أ.د. محمد عبده محجوب – عميد كلية الاداب .

ويتمثل ارتباط الانثروبولوجيا - وبخاصة فى دراساتها الحقلية المبكرة بدراسة تلك المجتمعات البدائية أو المجتمعات المتوحشة مثلا فى كتابات مالينوفسكي . وهو من الكتاب الانثروبولوجيين الذين أعطوا لهذا الاسم صورته المعاصرة حيث يتكلم عن القانون والعرف في مجتمع الارجنوتس المتوحشCrime and Cuiton in savage Society[1] كما يتمثل فى دراسات رادكليف براون Radcliffe - brown فى مجتمع جزر الاندمان فى المنطقة الشمالية من المحيط الهندى[2] ودراسات ايفانزبريتشارد Evans-Pritchard, E.E, فى مجتمع النوير بالسودان الجنوبي [3].

وقد كانت هناك ضرورات تاريخية ومنهجية وتطبيقية دفعت الباحثين الى هذا الاهتمام بالمجتمعات البدائية أو المنعزلة ، ولا بد لنا من الاشارة هنا الى تلك الضرورات بايجاز لأنها تتصل اتصالا وثيقا بالاهتمام القائم بدراسة المجتمعات البدوية والريفية Rural Societies ، وبوجه عام في التركيز على دراسة المجتمعات المحلية الصغيرة Little communities التى يمكن اعتبار المجتمع القروى بجزيرة فيلكا والجهراء فى الكويت ومجتمع اولاد على فى الساحل الشمالى بالصحراء الغربية المصرية - التى تستند اليها هذه الدراسات التى يضمها هذا الكتاب - نماذج متنوعة لها .

وقد كان هناك نوع من سوء الفهم الشائع لمصطلح المجتمع البدائى Primitive society كما يستخدم فى الكتابات الانثروبولوجية والسوسيولوجية-Sociological ، فكثيرا ما كان هناك خلط بين المعني الفنى الذى تشير اليه كلمة بدائى او مجتمع بدائى ، ومعانى التأخر او التوحش او الافتقار الى الحضارة والاساليب

(1) Malinowski, B; Argonuts of the Western Pacific; London, 1992.
(2) Radcliffe - Brown, A.R: The Andaman Islanders; The Free Press, 1948.
(3) Evans Pritchard, E.E' The Nuer: O.U.P., Oxford, 1940.

المدنية الاخرى . ولكن الانثروبولوجيين يقصدون بهذه الكلمة الاشارة الى تلك المجتمعات الصغيرة سواء من ناحية عدد السكان او المساحة او تشعب العلاقات الاجتماعية ، والتى تمتاز ببساطة الفنون الآلية والاقتصاد ، وقلة التخصص فى الوظيفة الاجتماعية اذا قورنت بالمجتمعات المتقدمة . وهناك من. يحب أن يضيف الى ذلك مقاييس اخرى من أهمها : عدم وجود تراث مكتوب، وبالتالى عدم وجود أى فن أو علم لاهوت منهجى منظم [(١)] .

لا شك ان تلك الاوضاع الايكولوجية والسكانية والثقافية المستقرة فى تلك المجتمعات البدائية كانت تنعكس فى شكل النظم الاجتماعي-Social institutions بخاصة فى النسق القرابى Kinship system ونظم تقسيم العمل والميكنة ، رغم السلطة والزعامة والتقنين Codification التى تختلف كل الاختلاف ، تلك النظم ذاتها فى المجتمع الصناعى الحديث . فنجد مثلا انه فى حين تتحكم الظروف الايكولوجية الى حد كبير فى حياة المجتمع البدائى ، نجد من الناحية الاخرى ان التقدم التكنولوجى فى المجتمع الحديث Modern society او المجتمع الصناعى Industrial Society يتيح مزيدا من. القدرة على اعادة ترتيب تلك

---

(١) انظر : ايفانز ريتشارد: الانثروبولوجيا الاجتماعية - ترجمة الدكتور احمد ابوزيد - منشأة المعارف - الاسكندرية - ١٩٥٨ ، ص ص ٢٦ - ٢٧.

- قبارى محمد اسماعيل : الانثروبولوجيا الوظيفية - دار الكتاب العربى - الاسكندرية - الطبعة الاولى - ١٩٦٨ ، ص ص ١ - ٢٥.

- محمد عبده محجوب : الانثروبولوجيا السياسية - مقدمه لدراسة النظم السياسية فى المجتمعات القبلية - نفس المرجع الذى سبقت الاشارة اليه .

Lowie, R.H. Prوهنمس Society, Routledge and Kegan , Paul, London, 5th impression, 1960.

Redfield, R.. "The Folk Society, The American Journal of Sociology, Vol, LII, Jun. 1947, pp. 293 - 308.

---------------, Peasant Society and Culture: An Anthropological Approach to Civilization, Chicago, 1956, pp. 9 -10.

الظروف او تكييفها لتتلائم مع حاجاته ، وكذلك حيث يقوم تقسيم العمل فى المجتمع البدائي على الاساس القبلى او العرقي او الدينى ، نجده يقوم فى المجتمع الصناعى على اساس القدرة الشخصية والكفاية المهنية فى الدرجة الاولى لكن ابراز تلك السمات البنائية لا يعنى بأية حال المصادرة على وضع تلك المجتمعات فى مرتبة حضارية أو مرحلة تطورية معينة .

أما فيما يتعلق بتلك الضرورات التاريخية والمنهجية التى دفعت الباحثين الى الاهتمام بوجه خاص بدراسة تلك المجتمعات التقليدية Traditional Socie-ties إنها كانت مرتبطة بطبيعة مصادر المعلومات التى توفرت لدى هؤلاء الباحثين الاوائل ، وقامت على اساسها التحليلات التطورية التى عنيت بها تلك الدراسات الانثروبولوجية المبكرة ، وقد تمثلت تلك المصادر الى حد بعيد في كتابات الرحالة المبشرين ورجال الادارة فى المستعمرات الاوربية فى القارة الافريقية وغيرها من بلاد الشعوب الاسيوية والامريكية ، التى كانت تستويهم شعائرها وطقوسها وعاداتها الغريبة - المختلفة كل الاختلاف عن شعائر وطقوس وعادات وتقاليد الرجل الابيض والثقافة الاوربية بصفة خاصة ، ولم تكن تتوفر لدى هؤلاء الباحثين الانثروبولوجيين الاوائل اية دراسات او مادة اثنوجرافية Ethnographic حول الجماعات القروية Villages او الجماعات الحضرية urban communities أو الصناعية التى كانت قائمة فى اواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن الحالى .

كذلك فقد ساعد على تركيز الاهتمام بتلك المجتمعات البدائية أو المنعزلة من ناحية اخرى رغبة الباحثين الحقليين فى تطبيق المنهج البنائى - الوظيفىStructural - Functional method فى تحليلاتهم النظرية ، وهذا المنهج يعتمد علي النظرة التكاملية الشاملة فى دراسة المجتمع . وهو يفرض على الباحث الذى يتوفر على دراسة نظام اجتماعي معين او مشكلة معينة فى المجتمع ان يأخذ فى اعتباره كل تلك العلاقات المعقدة التى تربط بين هذا النظام او تلك

المشكلة ، وبين النظم او الجوانب الاخرى فى نفس المجتمع ، فمثلا عند دراستنا النظام السياسى فى مجتمع قبلى معين ، يجب ان نقوم بالضرورة الى جانب دراسة نظام السلطة والرئاسة او الزعامة والقانون العرفى - بدراسات فى جوانب اخرى فى هذا المجتمع مثل : العلاقات القرابية Kinship relation وبخاصة فيما يتعلق بأسس الوراثة Inheritance ونظام السلطة Authority فى العائلة ، وأسس تفاوت الفئات الاجتماعية Social stratification التى تنتمى اليها الوحدات القرابية والعرقية Ethnic units والمهنية ، وكذلك نظام الانضمام والانشقاق Fission and Fusion التى بمقتضاها تستطيع الوحدة القبلية الانقسامية ان تكتسب او تخسر اعضاء عاملين فيها - يلتزمون بالواجبات السياسية والاقتصادية باعتبارهم اشخاصا «اعضاء» في جماعة قرابية واحدة ، كما يجب على هذا الباحث ان يقوم بدراسات اخرى فى جوانب النظام الاقتصادى - بقصد معرفة الدور الذى يلعبه العرف القبلى فى تقنين المناشط الاقتصادية ، وهذا كله الى جانب التعرف على ملامح النظام الاقليمى الذى يكون بمثابة اطار محدد لمدى الوحدة السياسية فى المجتمع . ولعل نسق الضبط المجتمعى Societal Control System فى تلك المجتمعات البدائية التى دارت حولها دراسات انثروبولوجية حقلية - فى القارة الافريقية بوجه خاص - والذى يقوم على اساس من الانقسامية Segmentary system قد ساعد على تأصيل ذلك الاتجاه البنائى الوظيفى .

ومن المعروف أن المجتمع الانقسامى مجتمع يفتقر الى وجود سلطة مركزية تستطيع ان تصدر من القوانين التى تقسر اعضاء هذا المجتمع على الخضوع لها. كما يقوم نسق الضبط الاجتماعى فى تلك المجتمعات على حق الجماعة فى الاعتماد على قوتها الذاتية فى المحافظة على حقوقها التى يحددها العرف . ويبرز تمايز الجماعات السياسية الانقسامية - أو الجماعات القبلية الثأرية - من خلال وحدة الانتماء القرابى او الوطن الذى تقع فيه عناصر الثروة الطبيعية التى تعيش عليها تلك الجماعات . ولكن تلك الجماعات التى تنتمى الى أصول قرابية

واقليمية مشتركة تنضم الى بعضها البعض لتتماسك وتتعاضد ضد أى عدوان تتعرض له ، وتكون المسافة القرابية او الاقليمية التى تفصل بين اطراف النزاع محددة لمدى الجماعات التى تنضم وتتماسك فى مواقف الصراع . فجماعة الاخوة تتماسك مكونة وحدة متمايزة في نزاعها مع ابناء عمومتها ، بينما ينضم الاخ، وأولاد العم اذا تعرضوا لعدوان جماعة قرابية اخرى . كما يتمثل الانشقاق فى ضرورة وقوف ابناء العمومة موقف الحياد فى حالة تنازع الاخوة [١] .

وفى هذا النسق المجتمعى الذى تتداخل فيه الجوانب القرابية والجوانب السياسية والاقتصادية ايضا - حيث يتناظر التوزيع بين اقسام الوطن القبلى من ناحية والتوزيع القرابى والسياسى ومناطق الحيازة القبلية من الناحية الاخرى - تبرز خاصية الناقد البنائى بين النظم والانساق الاجتماعية التى تقوم عليها النظرية البنائية بدرجة عالية من الوضوح ، وذلك بالاعتماد علي تلك الطرق التقليدية التي اعتمدت عليها دراسات الباحثين الانثروبولوجيين الاوائل - كطريقة الملاحظة بالمشاركة Parcticipant observation والاعتماد على المعلومات المستمدة من العارفين بالعادات والتقاليد والمعلومات التى يأتى بها الآتون بالاخبار Informants .

---

(١) انظر فى التعريف بالنسق الانقسامى :

احمد أبو زيد : البناء الاجتماعى - الجزء الثانى - الانساق - دار الكاتب العربى للطباعة والنشر - الاسكندرية - ١٩٦٧ .

محمد عبده محجوب : الانثروبولوجيا السياسية : مقدمه لدراسة النظم السياسية فى المجتمعات القبلية - الهيئة المصرية العامة للكتاب - الاسكندرية - ١٩٧٦

smith, M.G., Segmentary Lineage System, J.R.A. I., Vol. 86, part II.
Foretes. M. and Evans-Pritchard. E. E., (eds). african Political Systems. Oxford, 1940.
Evans Pritchard, E.E., The Nuer, op.cit.

ويقول آخر فلقد ساعدت تلك الخصائص التي تميزت بها المجتمعات البدوية القبلية البدائية - وبخاصة فيما يتعلق بقلة عدد السكان ، وبساطة الحياة الاقتصادية والتكنولوجية ، والاعتماد المباشر على استغلال عناصر الثروة فى البيئة الطبيعية النباتية والحيوانية ، فضلا عن صغر المساحة الاقليمية التى تكون وطن تلك المجتمعات - ساعدت على تأصيل مفهوم بناء Structure المجتمع بما يضمه من نظم Institutions متمايزة تنتظم العلاقات الاجتماعية وتتساند فيما بينها تساندا وظيفيا يكون الاطار المنهجى للتحليل الانثروبولوجى . ويعبر استقرار ذلك المفهوم فى الدراسات الانثروبولوجية الاجتماعية عن التزام اتجاه منهجى دقيق فى تحليل مشكلات الاستقرار Social stability والتغير الاجتماعى Social Change وبخاصة فقد وجدت بينات Evideuces واضحة على تساند In- terdependence تلك النظم المتمايزة تساندا وظيفيا Functional interdepen- dence فى بناء المجتمع المتغير . ونجد مثلا ان التغير الذى يطرأ على نظام حيازة الارض Land tenure - وبخاصة فيما يتعلق بتفتت ما يعرف بمناطق الحيازة القبلية ، نتيجة لعوامل الوراثة - يسفر عن تغيرات فى التنظيم القبلى الانقسامى تفقد فيها الوحدة القبلية السياسية المتمايزة خاصة من أهم خصائصها وهى : خاصية التمركز الاقليمى ، نتيجة لتشتت اعضائها فى مناطق اقليمية متباعدة ، حيث يصبح الوطن القبلى الواحد - أو المنطقة القبلية المتمايزة - محلا لاقامة واستغلال اشخاص ينتمون الى وحدات ثأرية متنوعة قد تكون فى صراع او حرب .

والى جانب تلك الضرورات التاريخية المنهجية - التى فرضت تركيز الاهتمام بدراسة تلك المجتمعات البدائية المنعزلة - كانت هناك ايضا بعض الضرورات التطبيقية ، وقد تنبه الباحثون الاوائل لأهمية الاسراع بدراسة تلك المجتمعات الى أخذت تنفتح على العالم الخارجى ، وتقع تحت وطأة الثقافة الاوربية الصناعية - التى ينقلها الرجل الابيض بما يفرضه من نظم وطرق جديدة

فى العمل والسلوك ، تتناقص مع النظم والطرق المستقرة فى تلك المجتمعات البدائية ، او تؤدى الى تدمير وحدتها المميزة وتحولها الى مجتمعات جديدة ذات نظم ومعايير مغايرة تماما لنظمها ومعاييرها التقليدية . وكان على هؤلاء الباحثين ان يسرعوا فى وصف ملامح الحياة فى تلك المجتمعات ، وفى تسجيل تلك الملامح ابقاء عليها للاجيال القادمة كنوع من التاريخ الاجتماعى الذى يفيد فى دراسات التطور Social evolution والتغير الاجتماعى . .

ولعل الاوضاع السكانية والاقتصادية والثقافية السائدة الآن فى كثير من مجتمعات الشرق الاوسط والعالم العربى بوجه خاص ، تبرز أهمية الاسراع فى القيام بمسح انثروبولوجىAnthropological Survey يتناول الكثير من المجتمعات المحلية التقليدية : التى تتعرض الان اما بظهور موارد جديدة للثروة وما يترتب على ذلك من. تغيرات سياسية واقتصادية عميقة ، أو تتعرض لبرامج التنمية الاجتماعية Social development والاقتصادية بوجه خاص من خلال برامج «التوطين Sedentarisation وادخال الصناعات الجديدة او الاستفادة بخدمات التعليم والاسكان وغيرها من الخدمات الاجتماعية ، أو حتى من خلال محاولة اخضاعها لنظم السلطة المركزية Centeral authority فى الدول التى تقع فيها .

ويقول آخر من المعروف ان تلك المجتمعات القبلية تتعرض الان لكثير من التغيرات الاساسية فى نظمها الاجتماعية ، فالقبائل التى يحكمها العرف -Cus tem وتنظم التقاليد Traditions طرق العمل وصور التفاعل بين اعضائها - اصبحت الآن تدخل تحت سيطرة وسيادة دول تحاول ان تطبق القوانين التى تتناقض فى بعض الاحيان مع الاعراف السائدة ، والتى تؤدى الى تغير التماسك الاجتماعى التقليدي فى تلك المجتمعات . كذلك فان تلك المجتمعات القبلية التقليدية التى كانت منعزلة اقتصاديا عن العالم الخارجى وتعتمد فى اشباع حاجاتها على المصادر الطبيعية التى تسيطر عليها ، أصبحت الان موطنا لكثير

من المشروعات الصناعية الحديثة فى مجال التعدين او البترول ، او حتى فى مجال استغلال المراعى والصناعات الغذائية . ولا شك ان دخول تلك الصناعات والمشروعات الحديثة يدخل معه نظما جديدة فى تقسيم العمل ، وأسسا جديدة لتراكم الثروة وترتيب الفئات الاجتماعية ، ومظاهر السلطة والقيادة . وبالتالى فقد كانت هناك حاجة ملحة فى دراسة تلك المجتمعات التقليدية بتسجيل ملامحها البنائية قبل ان تمتد اليها يد التغير ، إما كنوع من التاريخ الذى يمكن استخدامه فيما بعد فى الدراسات المقارنة ، أو لما يمكن ان يترتب على تلك الدراسات من تحقيق أقصى قدر من الكفاية فى الاستفادة بتلك المصادر البشرية الطبيعية الموجودة فى هذه المجتمعات - مع اتاحة الفرصة لسكانها انفسهم الاستفادة من التسهيلات والتنظيمات الجديدة دون أن يتعرضوا لعمليات الصراع التى تنتهى الى تدمير لوحدة والتماسك القائم ، بغير ان توجد اسسا جديدة ملائمة ومقبولة لهذا التماسك وتلك الوحدة .

ولقد اشرنا فى دراستنا لبعض مشكلات التغير فى المجتمعات التقليدية إلى أن اهتمام الباحثين الانثروبولوجيين بالإنماط المجتمعية غير التقليدية او غير البدائية قد جاء متأخرا [1] . ويقول آخر فقد ترددت الانثروبولوجيا الاجتماعية كثيرا قبل ان تتناول دراستها الحلقية المجتمع الانسانى فى مختلف الاوضاع الاجماعية والثقافية ، ويصبح موضوعها هو الانماط المجتمعية Societal types المتنوعة البدوية nomadic او الريفية rural والحضرية Urban والصناعية على السواء ، ففى عام ١٩٢٣ نجد مثلا رادكليف براون يحدد فى مقال عن المنهج مجال الدراسات الانثروبولوجية بحدود المجتمعات البدائية . ثم لا يعود الا فى مقال لاحق عام١٩٤٤ - لكى يجعل من كل انماط المجتمع الانسانى مجالا

---

(١) محمد عبده محجوب : «الاتجاه السوسيوانثروبولوجى فى دراسة المجتمع» حلقة النهوض بعلم الاجتماع فى الوطن العربى - المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بجامعة الدول العربية - ١٩٧٣ .

لدراسة الانثروبولوجيا الاجتماعية كمبحث في بناء المجتمع. ونجد هذا الموقف الاخير هو نفس الموقف الذى اتخذه ايفانز بريتشارد فى محاضراته الشهيرة فى الانثروبولوجيا الاجتماعية عام ١٩٥١ حيث يعرف الانثروبولوجيا على انها نوع من الدراسات الاجتماعية يتخذ من المجتمعات الانسانية جميعا موضوعا له ، ولكنه يركز على دراسة البدائي منها . كما نجد فى امريكا لويد ورنر يؤكد منذ البداية ان مجال الانثروبولوجيا يشمل كل المجتمعات الانسانية - البدائية والمتمدينة ، البسيطة والمعقدة ، وقد أكد هذه النظرة الي الانثروبولوجيا حين قام بدراسات حقلية فى مجتمعات شديدة التأخر «المجتمعات البدائية» وفى مجتمعات متمدينة على السواء ، كما تحركت الانثروبولوجيا فى امريكا خطوات واسعة فى دراسة المجتمعات الحضرية والصناعية [١] .

ولعله من المهم ازاء شيوع استخدام مصطلح المجتمع الحديث Modern Society الاشارة ايضا الى انه حين تلحق هذه الصفة بالمجتمع فهى لا نعنى وضعه في مرحلة تطورية أو مرتبة حضارية ارقى من. تلك المرحلة أو المرتبة التى كان يحتلها قبيل تحديثه ، ولكنها تشير الى الدرجة الاولى الى حدوث تغيرات ثقافية واجتماعية وبنائية هامة . ومثال ذلك انه يقصد الان «بالكويت الحديثة» او «المجتمع الكويتى الحديث» دولة الكويت والمجتمع الكويتى فى مرحلة ما بعد ظهور النفط الذى صدرت اولى شحناته الى العالم الخارجى فى يونيو من عام ١٩٤٦ . ومن المعروف انه قد ترتب على ظهور النفط في المجتمع الكويتى تغيرات اقتصادية وسياسية من آهمها : ظهور نشاطات اقتصادية فى قطاعات الصناعة والتجارة والخدمات الادارية والصحية والتعليمية . وقد امتصت هذه النشاطات الاقتصادية الجديدة جانبا كبيرا من القوى العاملة المحلية - التى كانت تشتغل بالرعى أو تزاوج بينه وبين الزراعة غير الكثيفة ، أو تشتغل

---

(1) Redfiled R. Peasant society and Cutlure, Chicago, 1965: pp. 9 - 10.

بالتجارة والنقل البحرى بعد اضمحلال العمل بالغوص وتجارة اللؤلؤ . كما كان من أهم تلك التغيرات من ناحية أخرى ظهور بناء الدولة الحديثة ، وتغير أشكال ونظم التقنين ، ولكننا فى استخدامنا لهذه العبارة «الكويت الحديثة - أو المجتمع الكويتى الحديث» نقصد أيضا ما يرتبط بتلك التغيرات الاقتصادية والسياسية من تغيرات فى التركيب السكانى ، وتغيرات فى نظم تقسيم العمل والأجور ، ونظم المواطنة والسلطة والزعامة وغيرها من النظم الاجتماعية التى تشكل الآن جوانب أساسية فى بناء المجتمع الكويتى .

كذلك فقد ظل هناك سؤال لا يزال يستحق كثيرا من اهتمامنا حين نعنى بالنظرية المتسقة فى علم الاجتماع المقارن ، وهو يتعلق بتحديد ماهية [1] أو على الأقل نوع تلك الحقيقة المتعينة Concrete والقابلة للملاحظة Phenomenal التى يجب ان تعنى بها مثل هذه النظرية . وقد أجاب البعض من الانثروبولوجيين الذين يتجهون اتجاها بنائيا بأن هذه الحقيقة هى المجتمع أو بقول اكثر تحديدا تتمثل فى بناء المجتمع Social structure . وهذا فى حين يؤكد الذين يميلون الى التزام الاتجاه الثقافى الى اعتبار الثقافة Culture هى التى تمثل موضوع البحث فى الدراسات الانثروبولوجية . ولكنا نميل الى القول بأن تلك الحقيقة انما تجمع بين المجتمع والثقافة - مع ما فى ذلك من اثارة لمشكلات حول نوع تلك العلاقة التى تقوم بين هذين - كما تقوم بين المجتمع من ناحية والظروف الايكولوجية والبناء الديموجرافى اللذين يكونان بجانب الثقافة ركائز اساسية يستند اليها بناء المجتمع من ناحية اخرى [1] .

ولعل تلك الثنائية القائمة الآن فى الدراسات الانثروبولوجية المعنية بدراسة المجتمع - بين الدراسات الانثروبولوجية البنائية والدراسات الانثروبولوجية

---

(١) الماهية Quiddity عند ارسطو هى مطلب ما ، أى ما الشيء الذى هو موضوع العلم فى مقابله مطلب هل ، أى : هل الشيء موجود؟ (يوسف كرم : المعجم الفلسفى - القاهرة - ١٩٦٦ - ص ١٤٨) .

الثقافية - ترتبط بتلك الاهتمامات المتنوعة للمتخصصين فى فروع الانثروبولوجيا العامة Anthropology من حيث هي علم دراسة الانسان من جوانبه المتنوعه . ومن المعروف ان الانثروبولوجيا الفيزيقية Physical anthropology تعنى بدراسة السمات الفيزيقية للانسان وخاصة فيما يتعلق بنشأته الاولى وفى تطوره عن الرئيسيات Primates واكتسابه الخصائص والصفات الانسانية ، وهى تعتمد فى ذلك على قياس بعض السمات الفيزيقية مثل : حجم الجمجمة ، وارتفاع القامة ، ولون البشرة ونوع نسيج الشعر ، وشكل الانف ولون العينين . كما تعنى الانثروبولوجيا الفيزيقية ايضا بدراسة التغيرات العنصرية racial وخصائص الاجناس وانتقال السمات الفيزيقية وتتبع المورثات genes الانسانية .

وحيث يعنى علم اثار ما قبل التاريخ Prehistoric archaeology بدراسة المجتمعات والثقافات التاريخية منذ ظهور الانسان العاقل Homo sagiens وتتبع المراحل التطورية لثقافة الانسان منذ اقدم العصور ، بحيث يحدد معالم تفكير ذلك الانسان الاول بتتبع مخلفاته وبقاياه قبل اكتشافه الكتابة وتوصله الى اللغة.

وتعنى الاثنولوجيا ethnology بأكثر من مجرد الوصف ، حيث تقوم بتصنيف تلك الشعوب من خلال المقارنة بين أوجه اختلافها وتشابهها ، وابراز تمايز الجماعات العرقية الواحدة منها عن الاخرى بخصائص معينة مثل: الخصائص السلالية او اللغوية ، او تميزها بطرق حياتها وتفكيرها الخاصة ، أو بشكل الملابس التى يرتديها أعضاؤها أو المساكن التى يسكنون فيها ، أو نوع المعتقدات التى يتمسكون بها .

---

(١) انظر محاولتنا فى تحديد تلك العلاقة بين الثقافة والبناء الاجتماعى فى دراستنا التى سبقت الاشارة اليها بعنوان : الاتجاه السوسيوانثربولوجى فى دراسة المجتمع .

وفى هذا كله تتميز الانثروبولوجيا الاجتماعية Social anthropology التقليدية بكونها دراسة لطبيعة المجتمع الانسانى دراسة منهجية منظمة ، تعتمد على مقارنة الاشكال المختلفة للمجتمعات الانسانية بالتركيز على الاشكال الاولية للمجتمع البدائى . ثم يتسع مجال الدراسات الانثروبولوجية الحقلية الحديثة ليشمل كل انماط التجمع الانسانى . وهنا نجد نوعا من التصانيف بين الجوانب الثقافية من ناحية ، والجوانب الاجتماعية والبنائية من الناحية الاخرى ، حيث الثقافة هى وسيلة التعبير التى تتجسد فيها العلاقات الاجتماعية فى أنماط سلوكية معينة ، ومن ثم فان التحليل السوسيوانثروبولوجى الذى يتجه اتجاها بنائيا لابد ان يستند الى ركيزة من الانماط او الاساليب الثقافية [1].

ووجهة النظر الشخصية لراد كليف براون - والتى نتفق معها - تقوم على ان تلك الحقيقة التى يجب ان تعنى بها دراستنا السوسيولوجية والانثروبولوجية للانماط المجتمعية المتنوعة ، والتى تقوم بملاحظتها ووصفها ومقارنتها هى : عملية Process الحياة الاجتماعية فى منطقة اقليمية محددة . ومن ثم فانه على الرغم من التنوع والتغاير الذى يميز الاحداث الاجتماعية فى تلك المنطقة، فعلينا ان نعنى بتكشف التقنينات regulations أو القواعد التى تحكم الحياة الاجتماعية، ويقول آخر علينا ان نحاول الوصول الى الملامح أو السمات العامة للحياة والعلاقات الاجتماعية فى تلك المنطقة ، وهذه العملية تؤدى بنا الى محاولة رسم ما يسمى بصورة الحياة الاجتماعية [2] .

وحيث تتداخل وتتكامل الركائز الايكولوجية Ecology والديموجرافية De-mography والثقافة Culture التى يقوم عليها البناء الاجتماعى او البنية

(1) Padeliffe - Brown A.R. Method in Social Anthropology: Chicago, 1958; p. 136.

(2) Radeliffe Brown, A.R. Structure and Function in Primitivs Society Cohen and West, London, sixth impression, 1965, pp. 3-4.

المجتمعية Societal Structure ، فإن تلك العمليات الاجتماعية وما ينتظمها من انساق Systems مجتمعية تتداخل فيها بالضرورة تلك الجوانب الثقافية والاجتماعية . ولما كانت الظروف العامة للحياة الاجتماعية قد تختلف فى منطقة معينة عنها فى منطقة أخرى من العالم ككل ثقافى واجتماعى كبير ، وبخاصة تحت وطأة الظروف الطبيعية والانساق الايكولوجية والمستويات التكنولوجية المتنوعة والمتفاوتة ، كان من الضرورى قيام فروع متخصصة فى علم الاجتماع والانثروبولوجيا ، أو بقول آخر قيام دراسات تخصصية سوسيولوجية وانثروبولوجية فى الانماط المجتمعية المتنوعة تعنى بها مثلا فروع علم الاجتماع البدوى beduin sociologyوعلم الاجتماع الريفى وعلم الاجتماع الحضرى وعلم الاجتماع الصناعى .

ولعل الدراسات السوسيوانثروبولوجية فى النمط المجتمعى البدوى - وبخاصة فى المنطقة العربية - تحتل أهمية خاصة، حيث من المعروف ان نسبة كبيرة من المساحة الكلية للبلاد العربية بوجه خاص - ومن الأرض بوجه عام - عبارة عن أرض صحراوية وتعيش فى تلك المناطق الصحراوية فى الغالب جماعات بدوية ذات تنظيم اجتماعى ونشاط اقتصادي وبناء السلطة يختلف كل الاختلاف عن تلك التنظيمات الاجتماعية والنشاطات الاقتصادية وأبنية السلطة بين الجماعات التى تسكن المناطق الزراعية الريفية أو الحضرية الصناعية فى تلك البلاد . وقد أبرزت الدراسات الرائدة التى بأيدينا فى مجال انثروبولوجيا المجتمعات البدوية ، وفى موضوع الصراع بين البداوة والحضارة فى العالم العربى - كيف ان الصحراء وهى تشغل على العموم ثلث مساحة العالم تصل الى ٩٩٫٥٪ من مساحة مصر ، وتغطى ٤٠٪ من مساحة العراق ، كما تشغل الصحراء وشبه الصحراء ثلث المساحة الكلية لسوريا ، بينما تغطى منطقة الحماد الشديدة الجدب والقحولة التى تستحيل زراعتها لندرة المطر وعدم وجود مياه جوفية بها حوالى ٢٠٪ من الارض التى تعيش فيها القبائل البدوية وشبه البدوية هناك . اما فى ليبيا فتقدر الارض التى يمكن استغلالها زراعيا بطريقة

اقتصادية معقولة بما لا يزيد عن ٥ إلى ١٠٪ من المساحة الكلية ، والجانب الاكبر من المملكة العربية السعودية صحراء قاحلة تماما ، وفى هذا وحده ما يبرز أهمية الدراسات السوسيوانثروبولوجية فى المجتمعات البدوية التى تعيش فى تلك المناطق الصحراوية وشبه الصحراوية الشاسعة [١] .

كذلك تحتل الدراسات السوسيوانثروبولوجية في المجتمعات البدوية أهمية خاصة لأنها تقدم للمتخصصين فى هذه الدراسات فرصة طيبة لكى يعملوا على تنمية وتطوير طرقهم فى البحث ، وبخاصة بعد أن كاد النمط البدائى المنعزل والمنغلق على ذاته يختفى تماما من بين أنماط التجمعات الانسانية القائمة فى عالمنا المعاصر . ومن أهم تلك الطرق التى يستخدمها هؤلاء الباحثون فى دراساتهم فى المجتمعات البدوية طريقة الملاحظة بالمشاركة Participant observation وطريقة الاعتماد علي المعلومات التى يدلى بها كبار السن والآتون بالاخبار Informants والطريقة الجينيولوجية Genealogical method التى تستند الى أشجار النسب Genealogies فى الحصول على الكثير من المعلومات حول الجوانب التربوية والمهنية والجمالية والايكولوجية فى تلك الجماعات المحلية الصغيرة - التى لازالت تجتذب اهتمام هؤلاء الباحثين وهذه الطرق الانثروبولوجية كلها طرق لا تشك فى قيمتها ، أو فى قيمة المعلومات التى تتوفر خلال الاعتماد عليها ، ولكننا خليقون أيضا بالاشارة الى مدى الصعوبات التى تواجه الباحث الانثروبولوجى حين يلجأ الى الاعتماد عليها فى دراساته لتلك الانماط المجتمعية البدوية ، التى تتعرض الآن لتغيرات بنائية على درجة عالية من الاهمية ، مثلا بسبب عمليات التحضر Urbanization فيما يعرف بمشروعات توطين البدو Sedentarisation of nomads ، أو بسبب التغيرات الايكولوجية

---

(١) أحمد ابوزيد : «قابيل وهابيل» - قصة الصراع بين الحضارة والبداوة فى العالم العربى» - مجلة معهد البحوث والدراسات العربية - ذو الحجة ١٣٨٨هـ - مارس ١٩٦٩ ، ص ٤٠٥.

والاقتصادية المرتبطة بالتصنيع واستثمارات النمط التى تحتل بأهمية كبيرة فى المنطقة العربية بوجه خاص .

ويمكن التعرف على تلك المشكلات أو الصعوبات التى تواجه الباحثين الحقليين فى الاعتماد على تلك الطرق التقليدية الهامة فى جمع المادة الاثنوجرافية Ethnographic data – التى تتخذ ركيزة لتحليلاتهم فى المجتمعات شبه البدوية غير البيئية وغير المنعزلة - مثلا من خلال الاشارة الي بعض الدراسات الحقلية التى قام بها في المجتمع الكويتى ، وقد تبين لنا فى دراستنا فى هذا المجتمع تفاوتا فى قدرتنا على الاعتماد على تلك الطرق بصفة رئيسية . فقد كانت تلك الطرق مثمرة فى دراسة المجتمعات المحلية المحدودة فى الجهراء وفيلكا ، وفي دراسة مشكلات الهجرة والتغير البنائى فيها – حيث يمكن للملاحظ الذى يقضى بضعة اسابيع فى اى من هذين المجتمعين ان يلاحظ بشىء من الوضوح مظاهر التغاير الذى طرأ على ذلك الارتباط بين التوزع الاقليمى والتوزع العرقى ، ومدى التغير فى المكونات السكانية اللغوية والعرقية والثقافية ، كما يمكن ملاحظة اضمحلال النشاطات الاقتصادية التقليدية ، وعدم وجود نشاطات اقتصادية انتاجية حديثة على مدى واسع في الجزيرة أو القرية ، وهذا كله بجانب ملاحظة احتفاظ كل من هذين المجتمعين بغالبية كبيرة للسكان الكويتيين – وذلك على العكس من الاتجاه العام للتركيب السكانى فى المجتمع الكويتى الكلى .

ولكننا حين نحاول دراسة مثل تلك الجوانب فى المجتمع الكويتى الكلى او فى المجتمعات الحضرية الاخرى فى الكويت ، نجد اننا فى حاجة الى اساليب وأنواع اخرى من طرق البحث والمعلومات والحقائق فى التعرف على المشكلات المرتبطة بتلك الجوانب ، حيث لابد أن نلجأ الى الحقائق والاساليب الاحصائية فى التعرف مثلا على : التركيب السكانى ، واتجاهات الهجرة ، والحراك السكانى، ومدي مشاركة الفئات العرقية المتمايزة فى النشاطات الاقتصادية المختلفة،

ومدى انغلاق كل فئة من تلك الفئات العرقية على نفسها او انفتاحها واتصالها وتمثلها أو تجانسها مع الفئات الاخرى .

ومن ناحية أخرى تقدم لنا تلك الدراسات السوسيولوجية والانثروبولوجية في المجتمعات البدوية وشبه البدوية بيانات واضحة علي انهيار الاتجاه التطورى فى تفسير الحياة الاجتماعية والنمو الحضارى فى المجتمع الانسانى ، حيث تسقط فى تطور كثير من تلك المجتمعات البدوية وشبه البدوية حلقة من الحلقات المتتابعة والضرورية فى سلسلة التطور من حياة البداوة التى ترتبط بالتنقل ، الى حياة الزراعة التى ترتبط بالاستقرار والاستمرار والاتصال الحضارى ، إلى الحياة فى المجتمعات الريفية التي تعتمد فى وجودها واستمرارها على الاتصال بالثقافة الكبرى فى المدينة الصناعية او غير الصناعية ، وأخيرا الى الحياة فى المدينة وبخاصة فى البيئة التى يشكل الانتاج الصناعى - بكل ما يحكمه من نظم وظروف متنوعة - عنصرا اساسيا من عناصرها .

كذلك فقد ساهمت تلك الدراسات ايضا فى اثراء الفكر السوسيوانثروبولوجى باتجاهات جديدة فى التحليل ، سواء فى مشكلة التغير، أو فى غيرها من المشكلات التى تتصل بتصوير او وصف البناء الاجتماعى في حالة التوازن النسبى ، فالواقع فى تلك المجتمعات البدوية يبرز حالة التغير البنائى Structural change الذى لا يحدث من خلال الاتصال الثقافى والاجتماعى Social and cultural contact بجماعات وحضارات اخرى تقوم خارج المجتمع - قد تقع بالقرب منه وقد لا تقع على هذا النحو - كما لا يقوم فى الغالب على اساس تخطيط يحدد اتجاهات التغير على الرغم من أهمية المحاولات الجادة والشاقة التى تقوم الان فيما يعرف بمشروعات توطين البدو - ولكنه تغير تفرضه فى الدرجة الاولى اسباب اقتصادية او سياسية تتمثل فى ظهور موارد جديدة للثروة - مثلا كظهور البترول فى كثير من المناطق الصحراوية العربية - أو تتمثل فى رغبة الدول الحديثة فى القضاء على السلطة الانقسامية فى تلك

المجتمعات القبلية واخضاعها للقانون الصورى والسلطة المركزية فى الدولة. وتجد الجماعات اليدوية وشبه البدوية نفسها فى كل من هاتين الحالتين مضطرة الى التوافق مع نظم اجتماعية مغايرة تماما لنظمها التقليدية - وتكون مناقضة لها - بغض النظر عن مدى تلاؤم هذه النظم الجديدة مع الأنواع الايكولوجية والقبلية والاقتصادية التى قد تستقر لاجيال متعاقبة فى تلك الجماعات ذاتها .

ويقول آخر فإن الاهتمام بدراسة الانماط المجتمعية اليدوية يتيح لنا فرصة التعرف على ما تخلفه العناصر الثقافية والمنظمات الاجتماعية - التى تدخل الى المجتمعات التقليدية بوجه عام والمجتمعات القبلية البدوية بوجه خاص ، من مشكلة الصراع أو التناقض بين ما هو تقليدى وما هو مستحدث من النظم الاجتماعية ، وما يرتبط بوجود واستقرار تلك الأوضاع والنظم التقليدية التى قد تكون عائقا دون استفادة المجتمع من تلك العناصر الثقافية والتنظيمات الاجتماعية التى تأتى اليه من خلال برامج التنمية .

مثال ذلك اننا نجد أن مشروع انشاء بعض المراوح الهوائية فى منطقة الشريط الساحلى للبحر المتوسط فى الصحراء الغربية المصرية - وفى منطقة الذراع البحرى بالذات - قد فرض أوضاعا جديدة فى تلك الجماعات شبه البدوية التى تتوطن المنطقة . فمن المعروف ان الماء لا يعتبر طرفا فى عمليات التبادل الاقتصادي فى تلك المجتمعات شبه اليدوية ، ولكن ظهور نوع جديد من الماء يختلف فى طبيعته من حيث مصدره ومن حيث مدى تدخل الجهد البشرى فى توفيره عن ماء السماء او مياه الأمطار - وهو ما ارتبط بانشاء المراوح الهوائية فى ذلك المجتمع ، جعله يعرف نظما جديدة للمشاركة فى استثمار المناطق المحيطة بتلك المراوح يحتل فيها الماء قيمة نقدية ويحرم حق الانتفاع به على غير من يملكونه .

وتجد مثالا آخر لفشل بعض مشروعات التنمية الاقتصادية فى تلك المجتمعات القبلية شبه البدوية فيما يعرف بمشروع المراعى فى رأس الحكمة فى

الصحراء الغربية المصرية ايضا ، حيث اختيرت المنطقة لتنفيذ المشروع بعد دراسة لخبراء المراعى والمياه الجوفية والثروة الحيوانية وغيرهم ، ولم يؤخذ فى الاعتبار ما قد يترتب على اصطدام تنفيذ المشروع بنظم حيازة الارض فى المنطقة التى استقرت فيها بعض الحقوق العرفية لجماعات ثأرية وقبلية معينة - فيما يتعلق باستغلال مصادر الثروة الطبيعية التى توجد فيما يعرف بأرض الحوز ، والتى يمتنع فيها على الجماعات الثأرية او القبلية ان تستفيد من تلك المصادر الا باذن خاص من الجماعة صاحبة الحق العرفى ، وبخاصة ان الدولة تبدى نوعا من الاعتراف بهذه الحقوق العرفية حيث لا تتعاقد مثلا مع خفراء فى المناطق التى تقام فيها بعض المشروعات او فى مناطق الآثار فى تلك الاوطان القبلية ممن لا ينتمون الى تلك الجماعات الثأرية التى تتوطن تلك المناطق ، والتى لا تسمح لغيرها بالاستفادة من مصادر الثروة فيها الا بتصريح منها .

وجدير بالذكر هنا ان موقف الجماعات البدوية فى هذه الحالة يختلف عن موقف الجماعات الريفية التى تتعرض للتغير هى الاخرى تحت وطأة النظم الجديدة التى تفرضها الدولة فى الجوانب الاقتصادية والسياسية ايضا ، حيث تتاح الفرصة لهذه الجماعات الريفية لكى تحافظ على الكثير من سماتها البنائية التقليدية ، مثلا : فيما يتعلق بالتوزيع الاقليمى ، أو النظام الملكية أو النشاطات الاقتصادية وغيرها وهى فرصة تفتقر إليها الجماعات البدوية التى يفرض عليها دائمًا أن تغير من نمط التوزع الاقليمى للجماعة القبلية أو الثأرية ، وان تخضع لنظم جديدة لتحديد الملكية وطرق حمايتها ، كما يفرض عليها ان تغير من نشاطاتها الاقتصادية حيث يتحول مثلا الاشتغال بالرعى وتربية الحيوان - فى الحالات القليلة التى يستمر فيها - الى نوع من النشاط الاقتصادى الذى تحكمه العلاقات والقيم المستقرة فى المجتمع الصناعى دون القيم البدوية التقليدية .

وحيث أشرنا فى بداية هذه الدراسة الى مدى اهتمام الباحثين الانثروبولوجيين الاوائل وبخاصة الحقليين منهم من امثال : مالينوفسكى

وايفانز Badcliffe Brown ورادكـلـيـف بـراون Malinowski, B. وبتشارد Evans-Pritchard ، و فورتس .Fortes, M بدراسة المجتمعات البدائية او المجتمعات المتوحشة او المجتمعات المنعزلة . وكما هو معروف فقد دفعتهم الى ذلك ضرورات تاريخية ومنهجية وتطبيقية متعددة ، فانه خليق بنا ايضا أن نؤكد القول بأن الاهتمام القائم الان بدراسة المجتمعات البدوية ، وإن كان يستند فى جوانب معينة الى نفس تلك الضرورات التاريخية والمنهجية والتطبيقية، إلا أن طبيعة التركيب البدائى فى تلك المجتمعات البدوية تجعل تلك الضرورات تتخذ وضعا جديدا يختلف عنه بالنسبة لدراسة المجتمعات البدائية او المتوحشة او المنعزلة .

ولكى نفسر تلك القضية السابقة : لابد لنا ان نشير الى تلك الدفعة القوية التى أعدها روبرت ردفيلد Robert Redfield فى سبيل تقدم الانثروبولوجيا الاجتماعية ، وبخاصة فيما يتعلق بالتزام الاتجاه البنائى فى الوصف والتحليل وتبرز اهمية مساهمة ريدفيلد فى تقدم النظرية الانثروبولوجية حين تقارن بين تعريفه للبناء الاجتماعى من ناحية و وتعريف كل من راد كليف براون وايفانز بريتشارد من الناحية الاخرى . وقد أقام هذان الاخيران تعريفهما بالرجوع الى نمط معين من انماط التجمع الانسانى هو النمط البدائى . والمجتمع البدائى يكون وحدة اجتماعية مغلقة - على ذاتها - يشبع أعضاؤها جميع حاجاتهم الاجتماعية فى داخلها . فأرض الوطن القبلى فى تلك المجتمعات البدائية تكون مسرحا لكل النشاطات الاقتصادية التى تتمثل فى الصيد او فى ممارسة الزراعة المتنقلة أو فى تربية الحيوان ويكون النشاط الاقتصادى فى هذا المجتمع بغرض توفير الحاجات الاستهلاكية او المعاشية لأعضائه ، دون محاولة تكوين تراكم للثروة لافتقارهم الى الوسائل الفنية المتقدمه فى التخزين ولقلة الموارد الاقتصادية ذاتها . وبالمثل فان تنظيم العلاقات السياسية وبخاصة فيما يتعلق بنظم الضبط الاجتماعى كلها تكون محدودة بحدود الوحدة القرابية التى تربط بين اعضائه على اختلاف انماط وأسس الانتماء القرابى .

كذلك تعتبر الاضافات التى ادخلها ريدفيلد الى النظرية البنائية - وفى مجال تحديد مفهوم البناء الاجتماعى والعلاقات البنائية بالذات - على درجة عالية من الاهمية المنهجية فى الدراسات السوسيوانثروبولوجية الحقلية. وتتمثل هذه الاضافات في ايجاز حيث يقول ريدفيلد : إننا حين تتعرض لوصف صورة الحياة وطبيعة العلاقات الاجتماعية فى المجتمعات الصغيرة little communities ، فاننا لا نركز انتباهنا فقط الى تلك العلاقات التى تربط بين الانسان والطبيعة ، ولكننا يجب ان نهتم ايضا بتلك العلاقات التى تربط بين الانسان والانسان ففى أي جماعة من تلك الجماعات التى تستمر فى الوجود والتى تتمتع بشيء من الثبات والاستقرار Long stauding community ، يمكن تصنيف الاشخاص الذين يكونون تلك الجماعات فى فئات معينة ، كما يمكن تصنيف العلاقات التى تربط بين كل منهم والآخر فئات او انواع متمايزة ايضا . فالعلاقات التى تربط بين الآباء والابناء التى تربط بين الزوج والزوجة ، أو التى تربط بين العامل وصاحب العمل او علاقات السوق ، كلها فئات من العلاقات الاجتماعية التى تختلف فى الاسس التى تقوم عليها والمعايير التى تحكمها.

كذلك يتنبه ريدفيلد الى وجود أنواع معينة من العلاقات الاجتماعية التى لا تستمر فى الوجود ، ولكنها تظهر فى أوقات معينة من السنة ، مثل تلك العلاقات التى تقوم بين جماعات المصلين فى الشعائر السنوية أو تلك العلاقات التى تقوم بين اعضاء تلك التجمعات التى لا تحدث في اوقات منتظمة متواترة ، ولكنها تقوم كلما ظهرت الحاجة اليها فى المجتمع . ومع ان الافراد الذين يقومون بتلك الشعائر، أو تربط بينهم تلك العلاقات يتغيرون من سنة لاخرى او من مناسبة الى اخرى ، الا ان أدوارهم ووظائفهم تبقى فى اغلبها - في حين يتغيرون هم من سنة لأخرى او من مناسبة لاخرى ليحل محلهم غيرهم فى اداء تلك الوظائف وفى هذا اشارة الى ضرورة أن يأخذ الباحث فى اعتباره فى التحليل السوسيوانثروبولوجى تلك الجوانب الكامنة وغير الكامنة فى البناء الاجتماعى على السواء .

كما أننا في دراستنا للبناء الاجتماعي يجب ان نعنى بتلك العلاقات التى تتمتع بدرجة عالية من الثبات والاستقرار والاطراد في المجتمع ، والتى تختلف فى طبيعتها عن تلك العلاقات التى تعتبر ذات أهمية مؤقته وليدة اللحظة وعلى هذا الاساس يرى ريد فيلد فى دراسته البناء الاجتماعى لشان كوم مثلا انه لم يجد نفسه خليقا بالعناية بتلك العلاقات الوقتية التى تفتقر الى الثبات والاستمرار، فالصداقات القصيرة العابرة لا تعنى الباحث السوسيوانثروبولوجى فى دراسته للبناء الاجتماعى فى القرية ، ولكن اذا وجد ان تلك الصداقات تكون علاقات لها خصائصها المقبولة بصورة عامة بين اعضاء مجتمع القرية – كما انها تلعب دورا هاما فى جوانب اجتماعية معينة من حياتهم – فهو لابد أن يدخل في اعتباره تلك الخصائص المميزة لعلاقات الصداقة في هذه القريتفى حصره لعناصر البناء الاجتماعى .

كذلك فإننا فى دراستنا السوسيوانثروبولوجية للبناء الاجتماعى فى تلك المجتمعات المحلية الصغيرة ، يجب ان نعطى اهتماما بالغا الى دراسة تلك العلاقات التى يسفر غيابها عن تغير جوهرى فى المجتمع . ومثال ذلك فى تصورنا لما تكون عليه القرية لو استبعدت تلك العلاقات المعقدة التى تربط بين الزوج والزوجة وبين هذين والابناء ، فلا شك ان من شأن تلك القرية ان تكون نوعا مختلفا تماما او بقول اخر نمطا مجتمعيا مختلفا تمام الاختلاف عن الانماط المجتمعية المعروفة لنا . وهذا يعنى بقول آخر ان تلك العلاقات الاسرية تفرض أهميتها على الباحث السوسيوانثروبولوجى لكى يضمنها حصره لعناصر البناء الاجتماعى فى تلك القرية . كما يعنى من ناحية اخرى اننا نستبعد فى ذلك الحصر العلاقات التى تكون بنية المجتمع ، تلك العلاقات التى تربط مثلا بين موزع الصحف أو البريد والاهالى ، لأن التغير فى تلك العلاقات الشخصية لن يترتب عليه اية تغيرات ذات مغزى وأهمية فى صورة المجتمع .

وأخيرا فاننا فى دراستنا لتلك العلاقات التى تتمتع بدرجة عاليه من الثبات

والاستقرار والاطراد في المجتمع - والتى يؤدى زوالها الى حدوث تغيرات اساسية او جوهرية فى بنائه - لا نستطيع ان نعالج كل علاقة من تلك العلاقات كما لو كانت وحدة منعزلة تماما عن الاخرى - ولكن تلك العلاقات تكون نسقا حيث تنتظم كل منها كجزء من كل وتخضع هذه العناصر أو الاجزاء الترتيب الذى يربط بين كل منها والآخر فى النسق . كما أن تلك العلاقات يجب ان ننظر اليها كما لو كان كل منها مبنى فوق الآخر ، فهى سلاسل او طبقات فى التنظيم والتعقيد . ولهذا فان ريدفيلد في دراسته للبناء الاجتماعى لشان كوم ينظر الى الناس «كأشخاص يحتلون مراكز معينة ويقومون بوظائف محدودة ، كما يأخذ فى الاعتبار تلك العلاقات التى تربط بين بعضهم وبعض فى نوع من الاتساق ، وينظر ايضا بعين الاعتبار الى تلك الخصائص التقليدية الهامة للوظائف والادوار التى يقوم بها هؤلاء الاشخاص فى النشاط الاجتماعى .

ولقد واجه ريدفيلد عندما قام بدراساته الحقلية نمطا مختلفا كل الاختلاف من انماط التجمع التقليدى - وهو نمط يفتقر الى مظاهر الانعزال والاكتفاء الذاتى التى تميز المجتمع البدائي - وهو ما يطلق عليه ريدفيلد مصطلح المجتمع الريفى فالمجتمع الريفى يعتمد فى وجوده وفى اشباعه لحاجاته الاقتصادية والاجتماعية المتنوعة على الارتباط بالمجتمعات الاخرى المحيطة وبخاصة مجتمع المدينة فى استيراد ما يعجز عن انتاجه لاشباع حاجاته المتنوعة وبخاصة فى المجالات الثقافية والتكنولوجية .

وهذا يعنى بقول آخر تلك الشبكة المعقدة من العلاقات الاجتماعية التى تكون البناء الاجتماعى لا تقتصر من وجهة نظر ريدفيلد على تلك العلاقات التى تربط بين الاشخاص والجماعات داخل المجتمع التقليدى ، ولكنها تمتد لتشمل العلاقات المتنوعة التى تربط بينهم وبين الجماعات الخارجية التى تتوفر لديها طرق اكثر كفاية ووسائل فنية اكثر تقدما . وبهذا نجد ان مفهوم البناء الاجتماعى عند ريدفيلد قد اصبح اكثر اتساعا وشمولا كما اصبح اكثر تعقيدا ، وهو يحتل أهمية كبيرة فى الدراسات السوسيوانثروبولوجية المعاصرة ، وبخاصة تلك التى

تقوم فى المجتمعات البدوية او شبه البدوية التى تمر الان بمراحل من النمو والتنمية .

وفى دراسة ريدفيلد للمجتمع المحلى الصغير امثلة متعددة لبيان أهمية ذلك الارتباط او التفاعل بين تلك الشبكة من العلاقات التى تقوم بين اعضاء المجتمع المحلى الصغير ، والتى تتأثر بما يقع بالقرب منها او خارج حدودها من تنظيمات اجتماعية وثقافية . ونورد هنا مثالا واحدا يبرز مدى ذلك التفاعل القائم بين المجتمع الريفى ومجتمع المدينة . فقد كان التماسك التقليدى فى البناء الاجتماعى لقرية شان كوم يقوم على ثنائية فى تولى المراكز السياسية والدينية فى القرية التى تنقسم الى وحدتين قرابيتين تتوحد كل منهما بواحدة من العائلتين الاصليتين المؤسستين للقرية . وقد استمر هذا الوضع حتى بعد ان اختارت القرية طريق التقدم والخضوع للتنظيم الادارى كقسم من اقسام المدينة القريبة ، وكانت المراكز السياسية الجديدة تحقق ذلك التوازن الذى يتعدى مظاهر التنافس القائم بين هاتين الوحدتين القرابيتين التقليديتين ، ولكن فقد كان لظهور الديانة المسيحية فى القرية – عن طريق البعثات التبشيرية – أثره فى تغير الاسس التى يقوم عليها ذلك التماسك التقليدى الذى انتهى الامر الى انهياره نتيجة لسرعة التغير والتقدم فى المركز الذى تحتله احدى هاتين الوحدتين – وهى تلك التى استطاعت ان تحقق مزيدا من الانتصارات فى المجالات الجديدة وبخاصة فى مجال الزعامة السياسية . وقد أدى هذا بدوره الى ان تجد الوحدة الاخرى فى الديانة الجديدة فرصة ذهبية لتدعم من خلالها مركزها التقليدى الذى أخذ فى الانهيار، ومن ثم فقد اندفعت فى محاولة تولى المراكز الدينية الجديدة واستطاعت من خلال الدين الجديد ان تغير وضعها التقليدى فى بناء القرية [1] .

وفى دراسة ريدفيلد القرية وتتبعه لمظاهر التفاعل البنائى فيها ، نلاحظ ان

(1) Redfield, R. The Little Community: Phoenix Books, Chicago fourth impression, 196 , pp. 43 - 35 and pp. 93 - 94.

تلك الوحدة البنائية التى استطاعت بقوتها العددية ان تقبض على السلطة السياسية فى القرية - ما كانت تسمح لمنافستها ان تتخذ من الدين الجديد وسيلة للتفوق عليها والاستئثار بمراكز الزعامة فى القرية ، وقد ساعد على مناهضتنا لتلك الزعامة التى أخذت تسيطر عليها الوحدة المنافسة - ان الدين الجديد كان يتناقض مع العادات التقليدية فى مجتمع القرية ، فقد حرم مثلا الرقص وكان مناسبة من المناسبات الهامة فى الحياة الاجتماعية للقرية تخرج فيها النساء بملابسهن الجميلة وزينتهن التى أنفقن كثيرا من الوقت والجهد فى اعدادها ، كما كان الدين الجديد يمثل خيانة للالهة القديمة التى حمت القرية وأرواح أهلها واقتصادهم خلال فترات طويلة من الزمن : وفضلا عن هذا كله فان تلك القرية فى سعيها لضم المزيد من الوحدات الاقليمية المجاورة اليها ، وجدت فى الدين الجديد عائقا من عوائق تحقيق ذلك ، لأن تلك الوحدات الاقليمية المجاورة لم تكن تؤمن به ، ومن ثم فقد أولت ظهرها لشان كوم وعارضت الانضمام اليها .

وقد ساعد هذا كله على أن تنجح الوحدة التى تحتل مراكز الزعامة السياسية التقليدية فى القرية فى تقويض صرح هذه الديانة الجديدة ، التى أوشكت ان تغير من نسق الضبط الاجتماعى فى القرية ، وأسس تفوقها واستقطابها للوحدات الاقليمية المجاورة . واستطاع رئيس القرية الذى ينتمى الى تلك الوحدة البنائية المنافسة للوحدة البنائية الاخرى التى اتخذت من الدين الجديد وسيلة للتفوق، أن يقود حملة للردة نجحت فى ان تعيد للقرية تأييد الوحدات الاقليمية المجاورة وأن تحقق الوحدة والاستقلال التقليدى لشان كوم [1] .

ولكنا نجد ان الوضع فى المجتمعات اليدوية المعاصرة يتمثل فى وجود تلك الثقافات الجديدة - او بقول اكثر دقة يتمثل فى وجود تلك العناصر الثقافية الجديدة فى قلب المجتمع اليدوى بحيث يفرض عليه ان يتوافق معها دون ان تتاح له فرصة واسعة فى اختيار ما يستعيره او يقتبسه او فى اختيار ما يراه محققا

(1) Ibid, p. 98 - 101.

لتطلعاته في حدود رغبته في المحافظة على توازنه وقيمه التقليدية . فعملية التغير الثقافي تطرأ في تلك المجتمعات البدوية بصورة اكثر سرعة وبطريقة مفاجئة . وهي تختلف في طبيعتها من هذه الناحية عن عملية التغير في المجتمعات الريفية ، التي قد تستمر في القيام بنشاطاتها الاقتصادية التقليدية، كما تستمر في المحافظة على ارتباطاتها الاقليمية . في حين ان الظروف الايكولوجية في المجتمع البدوي ان لم تؤد هي ذاتها الى اندثار تلك النشاطات الاقتصادية التقليدية ، فهي لا توجد لدى اعضاء ذلك المجتمع ميلا الى المحافظة على الاشتغال بها ، بعكس ما يحدث بين الريفيين في مناطق كثيرة تستمر في الاشتغال بالزراعة الكثيفة او المستقرة ، مع حرصها على اقتباس الاساليب الثقافية والتقنية الحديثة فيما يتعلق مثلا بأدوات الانتاج ، او ما يعرف بالميكنة الزراعية ، او فيما يتعلق بوسائل النقل واستخدام الاليات في الحياة المنزلية . وهي من ناحية اخرى تستمر في الاحتفاظ بالأسس البنائية التي يقوم عليها نظام الملكية ، وتقسيم العمل ، والتفاضل الطبقي ، وعضوية الجماعة الثأرية والتناظر بين التوزع القرابي والتوزع الاقليمي – وهو ما لا يتحقق في عملية التغير في المجتمع البدوي طبقا لما بأيدينا من خبرات حقلية في المجتمع الكويتي ومجتمع أولاد علي في الصحراء الغربية المصرية .

والواقع اننا نجد مثلا ان التغيرات التي طرأت علي نوع النشاطات الاقتصادية التي يقوم بها الكويتيون ، إنما هي تغيرات ترجع الى اسباب متنوعة . فمن المعروف ان بعض النشاطات الاقتصادية التقليدية التي استقرت في هذا المجتمع قبل ظهور النفط مثل : الغوص بحثا عن اللؤلؤ ، او السفر للنقل البحري والتجارة قد اضمحلت لاسباب سياسية واقتصادية ، تتمثل بوجه خاص في ظهور اللؤلؤ الصناعي والمستنبت ، والحرب العالمية الثانية ، والتقدم الذي وصلت اليه وسائل النقل والاتصالات الحديثة .

وقد كان من الممكن مع هذا كله استمرار بعض تلك النشاطات الاقتصادية

التقليدية مثل : الرعى او الزراعة المتنقلة او الزراعة غير الكثيفة horticulture ولكن الاوضاع الاقتصادية والسكانية التى ترتبت على ظهور النفط فى هذا المجتمع قد جعلت الناس يتحولون عن العمل بهذه النشاطات اما لكونها لم تعد مجزية اقتصاديا ، او لإمكان تشغيل فئات معينة من الوافدين فيها ، وبخاصة المتسللين الذين تفرض عليهم الاوضاع القانونية التى تحيط بهم فى الكويت ان يقبلوا العمل فى ظروف او بشروط اقل من تلك الظروف والشروط التى يعمل فيها الحاصلون على الاقامة الشرعية .

وقد ترتب على ذلك كله ان الزراعة لم تعد مهنة السكان الكويتين الذين يتمتعون بحقوق ملكية الارض الزراعية ، ولكنهم يوظفون غيرهم فى استثمار تلك الارض اما عن طريق الايجار او المشاركة . وهو ما لا تتوافر لدينا امثلة له فى المجتمعات الريفية .

ومن المعروف ان المجتمعات التقليدية التى تستخدم التكنولوجيا الحديثة فى الاستثمار الزراعى تنقسم الى فئتين : تضم الفئة الاولى تلك الجماعات التي تمارس ما يعرف بالزراعة المتنقلة او الزراعة غير المستقرة او الزراعة غير الكثيفة او زراعة الحدائق horticulture ، وتضم الفئة الثانية تلك المجتمعات التى تمارس الزراعة المستقرة او الزراعة الكثيفة agriculture ، ومجتمعات تلك الفئة الاولى هى فى الغالب مجتمعات بدوية او شبه بدوية ، قد تزاوج بين هذه الزراعة وبعض النشاطات الاقتصادية التقليدية الاخرى : كالرعى او الصيد ، بينما ترتبط الزراعة الكثيفة او المستقرة بالقرى التى تنشأ حول مجارى الانهار وفي وديانها ، وقد ارتبطت الزراعة غير الكثيفة بحياة البداوة والتنقل فى الصحراء ، وما يرتبط بذلك من نمط معين من انماط السلطة القبلية الانقسامية والتضامن الثأرى - حيث تنشأ ضرورات الانشقاق او الانقسام بين تلك الجماعات البدوية أو شبه البدوية نتيجة لذلك التناقض الذى يقوم بين تزايد اعداد الجماعة الاقتصادية من ناحية ، واستمرار اضمحلال تلك الموارد الاقتصادية الطبيعية التى تتمثل في الارض ومصادر الماء من الناحية الاخرى .

ونجد فى الجانب الآخر ان تلك الزراعة الكثيفة او المستقرة تساعد على استقرار السلطة الاقليمية ، وامكانيات التجانس العرقى واللغوى بين الجماعات القرابية فى الوحدة الثأرية الواحدة . كما يخلق الفائض من حاصلات تلك الزراعة عن الحاجات الاستهلاكية للجماعة الاقتصادية المنتجة وجود فرص التبادل تتلاشى فى المجتمعات البدوية لعدم كفاية المحصول ، وبالتالى عدم وجود فائض للتبادل فضلا عن تماثل المحصولات الزراعية فى تلك الوحدات القبلية المتمايزة .

وهذا يعنى من ناحية اخرى اننا حينما نعنى بتتبع تلك العلاقات التى تكون البناء الاجتماعى فى المجتمعات البدوية التى تمر بعمليات التغير ، فنحن فى هذه الحالة ان نعنى فقط بتتبع تلك العلاقات التى تربط بين الاشخاص والزمر الاجتماعية فى ذلك الكل المتمايز من ناحية ، وبين الجماعة الحضرية فى المدينة الصناعية وغير الصناعية بما تقدمه من وسائل ثقافية اكثر تقدما من تلك الوسائل التى تتوفر فى المجتمع الريفى من. الناحية الاخرى . ولكننا سوف نعنى فى الدرجة الاولى ايضا بكل ذى طبيعة مختلفة تنشأ عن اوضاع ايكولوجية وثقافية جديدة فى منطقة اقليمية معينة.

وفى هذا الكل يتعايش النسق التقليدى والنسق الحديث فى نفس المجتمع المحلى المحدود . وقد ينشأ بين النسقين صراع ، ولكن هناك فى كل الاحوال تخطيط يفسر الناس على تعديل اساليب سلوكهم والالتزام بقيم جديدة تتناسب مع تلك الاوضاع الايكولوجية والثقافية الجديدة . فنظام العمل فى مؤسسات تعمير الصحارى فى الصحراء الغربية المصرية – وفى مخافر الشرطة فى المجتمعات المحلية شبه البدوية فى الكويت – تحكمه نظم وقيم تختلف كل الاختلاف بل وتتناقض مع القيم التى كانت تحكم المناشط الاقتصادية ، والضبط الاجتماعى فى نمط الحياة المرتبطة بالزراعة المتنقلة او الغوص . وهذا الوضع لا يترك للاهالى دائما فرصة الأخذ بما يتوفق مع قيمهم التقليدية ورفض ما يتناقض معها ، ولكنهم على العكس من ذلك يضطرون فى كثير من الاحيان الى الالتزام بأنماط سلوكية تتناقض مع تلك القيم التقليدية .

وبعد هذا كله فنحن خليقون بالاشارة الى انه اذا كان هناك من يميل الى التعرف الى أصول النظم فى الانماط المجتمعية المتمايزة ، أو يحاول بتأثير النزعة التطورية ترتيب مراحل التغير التى تعرض للمجتمع الانسانى فى مراحل حياته ، ويقول بأن الزراعة وحياة القرية الريفية المستقرة تأتى بعد حياة البداوة والنجعة والترحال ، لتكون هذه المرحلة الثانية نقطة تحول الى الحياة الحضرية ، وذلك بحيث تكون التكنولوجيا الحديثة التى تدخل هذا المجتمع أساسا لتحوله الى مجتمع صناعى ، إلا ان الدراسات الانثروبولوجية الحديثة لا تكرس كثيرا من الجهد لمناقشة فروض التطور او مناقشة نظريات الاصول وبخاصة فى الاتجاهات السوسيوانثروبولوجية المقارنة .

ويرجع ذلك الى اسباب منها ان تلك النظريات التطورية حيث كانت لا تتوفر لها المادة التاريخية التى تعتبر بمثابة بينات على صدقها ، كانت تدعى الاستناد الى بعض القوانين العامة القبلية apriori فمثلا نجد ان نظرية تايلور فى الانيميزم Animism ونظرية الطوطمية totemism تستندان الى قضية مؤداها ان العرف والثقافة وليدان للرغبة فى تفسير الاحداث التى يتعرض لها الانسان فى حياته اليومية ، وهذا يعنى ان تلك النظريات قد نظرت الى الثقافة فى النهاية باعتبارها وليدة دافع او رغبة اساسية فرضية .

ودون الدخول فى مناقشات لتحقيق هذا الفرض العام فانه يؤخذ على أصحاب تلك النظريات انهم لم يخضعوا ذلك الفرض ابدا للتحقيق الامبريقى ، وهذا هو النقد الذى يوجهه رادكليف براون الى تلك النظريات ، وان كان هو نفسه يعتقد ان الواقع العملى او الرغبة فى التغلب على المشكلات المادية هى التى دفعت الانسان البدائى الى اختراع الحلول التى جاءت بدافع عملى ، ولكنه يطالب اصحاب نظريات الاصول ان يخضعوا فروضهم العامة للتحقيق القائم على الاستقراء الواسع قبل ان ترقى افتراضاتهم التطورية الى نظريات مقبولة ، وهذا كله بجانب ان هناك من ناحية اخرى ما يدفع الى التشكك فى مثل ذلك

الافتراض الذى تقوم عليه تلك النظريات التطورية ، حيث أن عمليات الاختراع والابتكار التى يقوم بها الانسان الان لم تعد مرتبطة فقط بمواجهة مشكلاته الملحة ، ولكنه يسعى الى تطوير وسائله الحالية لتحقيق مزيد من الاشباع والكفاية والرفاهية أو الوفرة .

كذلك فان هناك نقطة اخرى فيما يتعلق بعزوف الباحثين الانثروبولوجيين المحدثين الى حد بعيد عن مناقشة نظريات الاصول ، وهى تتلخص فى ان الانثروبولوجيا الاجتماعية الآن بمنهجها البنائى الوظيفى ترى فى تلك النظريات خروجا عن مجالها الحقيقى ، حيث يجب عليها ان تعنى بدراسة السلوك الاجتماعى وما يعبر عنه او ما يقوم وراءه من علاقات تتخذ شكل نظم اجتماعية : كالعائلة أو نسق القرابة ، والنظم السياسية والاجراءات القانونية ، والعبادات الدينية وغيرها ، كما تدرس العلاقة بين هذه النظم سواء فى المجتمعات المعاصرة او المجتمعات التاريخية التى تتوفر لدينا عنها معلومات كافية ، يمكن معها القيام بمثل هذه الدراسات .

ولعلنا نجد ايضا من البينات على عدم صدق الدعاوى التطورية ، أن المجتمعات البدوية التى بأيدينا معلومات اثنوجرافية حول عمليات تغيرها وتحولها تنتقل مباشرة من حياة البداوة الى الحياة الحضرية المرتبطة بالتصنيع، وبخاصة نتيجة للمشروعات الاقتصادية التى تقام فى تلك التجمعات والتى تعتمد على أساليب مختلفة فى تقسيم العمل وتوزيع العائدات والاختيار المهنى، والمثل هذا واضح فى التجمعات الحضرية التى تنشأ فى الصحراوات الليبية أو فى المجتمع الكويتى ، أو فى منطقة الساحل الشمالى الغربى فى مصر ، أو فى منطقة الواحات بالوادى الجديد فى مصر ، وهذا كله على العكس من اتجاهات التغير فى المجتمعات الريفية التى تستطيع ان تستوعب كثيرا من الاساليب التكنولوجية والنظم الحديثة فى التعاون والتبادل الملكية وتبقى مع ذلك مجتمعات ريفية .

ونجد فى الجانب الآخر ان تلك الزراعة الكثيفة او المستقرة تساعد على استقرار السلطة الاقليمية ، وامكانيات التجانس العرقى واللغوى بين الجماعات القرابية فى الوحدة الثأرية الواحدة . كما يخلق الفائض من حاصلات تلك الزراعة عن الحاجات الاستهلاكية للجماعة الاقتصادية المنتجة وجود فرص التبادل تتلاشى فى المجتمعات البدوية لعدم كفاية المحصول ، وبالتالى عدم وجود فائض للتبادل فضلا عن تماثل المحصولات الزراعية فى تلك الوحدات القبلية المتمايزة .

وهذا يعنى من ناحية اخرى اننا حينما نعنى بتتبع تلك العلاقات التى تكون البناء الاجتماعى فى المجتمعات البدوية التى تمر بعمليات التغير ، فنحن فى هذه الحالة ان نعنى فقط بتتبع تلك العلاقات التى تربط بين الاشخاص والزمر الاجتماعية فى ذلك الكل المتمايز من ناحية ، وبين الجماعة الحضرية فى المدينة الصناعية وغير الصناعية بما تقدمه من وسائل ثقافية اكثر تقدما من تلك الوسائل التى تتوفر فى المجتمع الريفى من. الناحية الاخرى . ولكننا سوف نعنى فى الدرجة الاولى ايضا بكل ذى طبيعة مختلفة تنشأ عن اوضاع ابكولوجية وثقافية جديدة فى منطقة اقليمية معينة.

وفى هذا الكل يتعايش النسق التقليدى والنسق الحديث فى نفس المجتمع المحلى المحدود . وقد ينشأ بين النسقين صراع ، ولكن هناك فى كل الاحوال تخطيط يفسر الناس على تعديل اساليب سلوكهم والالتزام بقيم جديدة تتناسب مع تلك الاوضاع الايكولوجية والثقافية الجديدة . فنظام العمل فى مؤسسات تعمير الصحارى فى الصحراء الغربية المصرية - وفى مخافر الشرطة فى المجتمعات المحلية شبه البدوية فى الكويت - تحكمه نظم وقيم تختلف كل الاختلاف بل وتتناقض مع القيم التى كانت تحكم المناشط الاقتصادية ، والضبط الاجتماعى فى نمط الحياة المرتبطة بالزراعة المتنقلة او الغوص . وهذا الوضع لا يترك للاهالى دائما فرصة الأخذ بما يتوفق مع قيمهم التقليدية ورفض ما يتناقض معها ، ولكنهم على العكس من ذلك يضطرون فى كثير من الاحيان الى الإلتزام بأنماط سلوكية تتناقض مع تلك القيم التقليدية .

وبعد هذا كله فنحن خليقون بالاشارة الى انه اذا كان هناك من يميل الى التعرف الى أصول النظم فى الانماط المجتمعية المتمايزة ، أو يحاول بتأثير النزعة التطورية ترتيب مراحل التغير التى تعرض للمجتمع الانسانى فى مراحل حياته ، ويقول بأن الزراعة وحياة القرية الريفية المستقرة تأتى بعد حياة البداوة والنجعة والترحال ، لتكون هذه المرحلة الثانية نقطة تحول الى الحياة الحضرية ، وذلك بحيث تكون التكنولوجيا الحديثة التى تدخل هذا المجتمع أساسا لتحوله الى مجتمع صناعى ، إلا ان الدراسات الانثروبولوجية الحديثة لا تكرس كثيرا من الجهد لمناقشة فروض التطور او مناقشة نظريات الاصول وبخاصة فى الاتجاهات السوسيوانثروبولوجية المقارنة .

ويرجع ذلك الى اسباب منها ان تلك النظريات التطورية حيث كانت لا تتوفر لها المادة التاريخية التى تعتبر بمثابة بينات على صدقها ، كانت تدعى الاستناد الى بعض القوانين العامة القبلية apriori فمثلا نجد ان نظرية تايلور فى الانيميزم Animism ونظرية الطوطمية totemism تستندان الى قضية مؤداها ان العرف والثقافة وليدان للرغبة فى تفسير الاحداث التى يتعرض لها الانسان فى حياته اليومية ، وهذا يعنى ان تلك النظريات قد نظرت الى الثقافة فى النهاية باعتبارها وليدة دافع او رغبة اساسية فرضية .

ودون الدخول فى مناقشات لتحقيق هذا الفرض العام فانه يؤخذ على أصحاب تلك النظريات انهم لم يخضعوا ذلك الفرض ابدا للتحقيق الامبريقى ، وهذا هو النقد الذى يوجهه رادكليف براون الى تلك النظريات ، وان كان هو نفسه يعتقد ان الواقع العملى او الرغبة فى التغلب على المشكلات المادية هى التى دفعت الانسان البدائى الى اختراع الحلول التى جاءت بدافع عملى ، ولكنه يطالب اصحاب نظريات الاصول ان يخضعوا فروضهم العامة للتحقيق القائم على الاستقراء الواسع قبل ان ترقى افتراضاتهم التطورية الى نظريات مقبولة ، وهذا كله بجانب ان هناك من ناحية اخرى ما يدفع الى التشكك فى مثل ذلك

الافتراض الذى تقوم عليه تلك النظريات التطورية ، حيث ان عمليات الاختراع والابتكار التى يقوم بها الانسان الان لم تعد مرتبطة فقط بمواجهة مشكلاته الملحة ، ولكنه يسعى الى تطوير وسائله الحالية لتحقيق مزيد من الاشباع والكفاية والرفاهية أو الوفرة .

كذلك فان هناك نقطة اخرى فيما يتعلق بعزوف الباحثين الانثروبولوجيين المحدثين الى حد بعيد عن مناقشة نظريات الاصول ، وهى تتلخص فى ان الانثروبولوجيا الاجتماعية الآن بمنهجها البنائى الوظيفى ترى فى تلك النظريات خروجا عن مجالها الحقيقى ، حيث يجب عليها ان تعنى بدراسة السلوك الاجتماعى وما يعبر عنه او ما يقوم وراءه من علاقات تتخذ شكل نظم اجتماعية : كالعائلة أو نسق القرابة ، والنظم السياسية والاجراءات القانونية ، والعبادات الدينية وغيرها ، كما تدرس العلاقة بين هذه النظم سواء فى المجتمعات المعاصرة او المجتمعات التاريخية التى تتوفر لدينا عنها معلومات كافية ، يمكن معها القيام بمثل هذه الدراسات .

ولعلنا نجد ايضا من البينات على عدم صدق الدعاوى التطورية ، أن المجتمعات البدوية التى بأيدينا معلومات اثنوجرافية حول عمليات تغيرها وتحولها تنتقل مباشرة من حياة البداوة الى الحياة الحضرية المرتبطة بالتصنيع، وبخاصة نتيجة للمشروعات الاقتصادية التى تقام فى تلك التجمعات والتى تعتمد على أساليب مختلفة فى تقسيم العمل وتوزيع العائدات والاختيار المهنى، والمثل هذا واضح فى التجمعات الحضرية التى تنشأ فى الصحراوات الليبية أو فى المجتمع الكويتى ، أو فى منطقة الساحل الشمالى الغربى فى مصر ، أو فى منطقة الواحات بالوادى الجديد فى مصر ، وهذا كله على العكس من اتجاهات التغير فى المجتمعات الريفية التى تستطيع ان تستوعب كثيرا من الاساليب التكنولوجية والنظم الحديثة فى التعاون والتبادل الملكية وتبقى مع ذلك مجتمعات ريفية .

الفصل الثالث

إشكالية المنهج في الانثروبولوجيا*

* كتب هذا الفصل د. مصطفى عمر حماده

الفصل الثالث
اشكالية المنهج في الانثروبولوجيا *

مقدمه :

إن القاعدة الاساسية التى نحاول الاعتماد عليها فى مناقشة طرائق البحث الانثروبولوجى وأساليبه تستند على أن المعرفة العلمية هى معرفة نظرية، وأن هدف مناهج العلم بصفة عامة هو مساعدتنا على الاختيار بين البدائل النظرية المتاحة . وينتج عن ذلك بالطبع عدد من النتائج الهامة ، لعل من أبرز هذه النتائج أن المعرفة العلمية الانسانية بصفة عامة هى أكثر من مجرد مجموعة آراء وتحيزات خاصة بين طائفة من الباحثين ، وهى أكثر أيضا من مجرد جمع الوقائع، كما أنها أكثر من منظور واحد لرؤية العالم الأنثروبولوجى ، فلا يمكن مثلا أن يكون مجرد تراكم الوقائع مؤديا إلى المعرفة النظرية ، فهناك فارقًا كبيراً بين «الوقائع» وبين «المعرفة النظرية» على الرغم من أن الأولى تُعد هى المطلب الاساسى للمعرفة ولتقويم النظريات ، فكثيرا ما يُخدع دارس علم الإنسان فيحسب أن مهمة البحث الانثروبولوجى هي مجرد جمع أكبر قدر ممكن من المعلومات عن منطقة بحثه ، حقيقة أن البحث الانثروبولوجى يعطى للباحث السبل والاجراءات التى يسترشد بها فى جمع المعلومات والبيانات ، لكن القضية الاساسية تكمن فى تسائل هام مؤداه : ما هو المعنى الحقيقى وراء هذه البيانات أو المعلومات ؟ فنحن نقرأ عددا كبيرًا من البحوث التى تجعلنا نقف على بعض الوقائع والبيانات أو المعلومات ، لكننا لا نستطيع أن نتعرف على معنى هذه المعلومات ، إذن ، فإن مجرد تراكم هذه المعلومات ، أو حتى تطور أساليب

---

* كتب هذا الفصل د. مصطفى عمر حماده

الحصول عليها ، لن يؤدى فى حد ذاته الى تطوير المعرفة الانثروبولوجية ولعل هذا هو التناقض بين الموقف النظرى المنهجى ، الذى يهتم بالتفسير والتأويل والتحليل وإكتشاف المعانى ، وبين ما يعرف اصطلاحا بأسم النزعة الامبيريقية Empiricism التى تتجه أساسا نحو تصوير مهمة علم الانثروبولوجيا بصفة خاصة ، والعلوم الإنسانية بصفة عامة ، على أنها البحث من أجل الوقائع أو البيانات الوصفية (الأثنوجرافية) Ethnographic Data ، لذلك فإن الأمبيريقية حين تتعرض لمعنى النظرية ، فإنها تعرفها فى حدود هذه النزعة أيضا على أنها تعميم يعتمد على الوقائع المشاهدة يوضح العلاقة السببية المفترضة بينها .

وعموما ، فإن طرق جمع البيانات وتحليلها واستخلاص النتائج ، تحتاج ، دون شك ، إلى تصورات نظرية دقيقة . فكل معالجة للمنهج تحتاج منا منذ البداية بأن نسلم أن لكل منهج من مناهج البحث طبيعته الخاصة به ، حيث أن كل منهج لا يلائم كل مشكلة ندرسها ، وإنما طبيعة الموضوع الذى نتناوله بالبحث هى التى تحدد إختيارنا للمنهج الملائم . ومن هنا يمكننا القول بأننا لا نستطيع أن ندرس المناهج ذاتها من فراغ . وإنما لابد أن تستند هذه المناهج بدورها على أسس نظرية ، ويجب تبريرها وفهمها فى إطار هذه الأسس [1] .

ولعلنا نجد أن من أهم نتائج التفرقة بين المناهج والنظريات ، ذلك التمييز الحاسم الذى يبدو فى هذه الإيام بين المنهج الكمى ، المنهج الكيفى ، بأعتبارهما طريقتين منفصلتين ، أكثر منهما متكاملتان .

إذن المناهج تعد بأختصار شديد طرق لحل مشكلات محددة ذات مضمون خاص ولعل ذلك يجعلنا ننظر الى المنهجين على أنهما يمثلا طرقا مقترحة لحل مشكلات جمع البيانات ، واستخدام ادوات البحث ، الأمر الذى يجعلنا فى

---

(١) محمد على محمد ، ١٩٨٣ ، «علم الاجتماع والمنهج العلمى : دراسة فى طرائق البحث وأساليبه» ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ص ٣ .

النهاية نركز الاهتمام علي مدى ملائمة هذين المنهجين للموضوع أو للمشكلة موضوع البحث والدراسة . ويمكن أن نخلص من ذلك الى نتيجتين أساسيتين **الاولى** : هى أن المناهج هى أدوات أو طرق تخدم أغراضا ملموسة ، وأن تباين الموضوعات أو المشكلات يقتضى تنوع أساليب حلها وتناولها ، وهذه الغاية هى التى تحدد الحاجة الي استخدام الحلول أو المناهج الكمية او الكيفية . **والثانية:** ان المناهج لا تستخدم استخداما مجردا ، ولكنها تستخدم بأعتبارها أساس لمشكلات مادية ملموسة نحاول التوصل الى حلول لها .

ومن هنا سوف تتركز مناقشتنا لاشكالية المنهج فى الانثروبولوجيا فى التعرف على المناهج وأدوات وطرق البحث المستخدمة فى الدراسات الانثروبولوجية ، وسوف تأتى المعالجة على النحو التالى :

أولا : مناهج البحث الانثروبولوجى

ثانيا : طرق وأدوات البحث فى الانثروبولوجيا

ثالثا : بين النظرية والمنهج فى البحث الانثروبولوجى الحقلى

أولا : مناهج البحث الانثروبولوجي :

تعتمد الدراسات الانثروبولوجية على عدة مناهج وأساليب خاصة فى اجراء البحوث والدراسات الانثروبولوجية ، لعل من أهمها :

أ - المنهج التاريخى

ب - المنهج المقارن

جـ - المنهج البنائى الوظيفى .

أ - **المنهج التاريخي** : يستخدم مصطلح التاريخ الاجتماعى Social History للاشارة الى دراسة التغير الذى يطرأ على المجتمع وشبكة العلاقات الاجتماعية الخاصة به ، وتطور النظم الاجتماعية ، والتحول فى المفاهيم والقيم

الاجتماعية ، وقد أرتبط هذا المصطلح بمصطلح التاريخ الاقتصادي Economic History ، وكلاهما كان نتيجة مباشرة واستجابة محددة لمصطلح التاريخ السياسى ، ويرجع الفضل فى ذلك إلى كل من إبن خلدون ، والعالم الايطالى فيكو Vico فى وضع أصول التاريخ الاجتماعى ، وقد أوضح فيكو ذلك فى مؤلفه الشهير «العلم الجديد» حيث استطاع أن يحول الاهتمام فى التاريخ السياسى للحروب والمعاهدات إلى دراسة العادات والقوانين والأنظمة الاقتصادية والاجتماعية .

أما العالم العربى الشهير عبدالرحمن بن خلدون ، فقد عَرّف التاريخ تعريفًا اجتماعياً فى مقدمته بقوله «يهدف التاريخ الى إعطائنا صورة واضحة عن الحياة الاجتماعية للانسان ، يعنى حضارة الانسان ، ويهدف كذلك إلى تعريفنا للظواهر الاجتماعية التى ترتبط بهذه الحضارة ، وإلى معرفة الحياة البدائية والاخلاق وروح الأسرة والقبيلة وفوارق الطبقات وجميع التغيرات التى تحدثها الطبيعة الخاصة بتلك الأشياء على أعضاء المجتمع . لذلك رأى أن علم العمران البشرى يهتم بدراسة التاريخ الاجتماعى على هذا النحو ، بحيث يبحث فى مسائل الاجتماع الانسانى والعمران البشرى وما يلحق بها من عوارض .

ومنهج التاريخ الاجتماعى عند إبن خلدون ، أو الدراسة الاجتماعية للتاريخ يُعد منهج ديناميكى بالضرورة يسير مع حركة التاريخ ويستوعب تطور الحياة الاجتماعية وانتقالها من حالة الي أخرى ، ذلك لان أحوال الأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر ، وإنما هى اختلاف على مر الأيام والأزمنة وانتقال من حال إلى حال ، ويرجع هذا الاختلاف أو التباين فى أحوال المجتمعات الى عوامل عديدة اقتصادية وجغرافية وثقافية ، ذلك أن المجتمع عند ابن خلدون شأنه شأن الفرد يمر بمراحل منذ ولادته حتى وفاته تبدأ بمرحلة البداوة وتنتهى بمرحلة الاضمحلال ، يتوسطها مرحلتين هما مرحلة الملك ، ومرحلة الترف والنعيم أو الحضارة .

وفى الانثروبولوجيا أو علم الانسان يؤكد أصحاب المدرسة التاريخية على أهمية مفهوم التاريخ الثقافى Cultureral History ، فيذهب ميتلند Maitland إلى أن : «الانثروبولوجيا عليها أن تختار بين أن تكون تاريخية أو لا تصبح شيئا على الاطلاق » وأكد بول رادين P. Radin نفس العبارة كمقدمة فى مؤلفه «منهج الاثنولوجيا» ، ويذهب بيركت سميث K. Birket Simith إلى أن «الحاضر لا يمكن فهمه الا كنتاج للماضى» لذلك فإن المشكلة الحيوية للاثنولوجيا - كما يفهمها - يتعين أن تكون مشكلة تاريخية كذلك أفتتح سابير E. Sapir مقاله الكلاسيكى الشهير عن « منظور الزمان» بقوله «إن الأنثروبولوجيا الثقافية تتجه أكثر فأكثر نحو الاعتراف بأنها علم تاريخى أساسًا. فالمعلومات التى نحصل عليها يتعذر فهمها سواء فى ذاتها أو فى صلتها بعضها ببعض إلا بوصفها نهاية تتابع معين للاحداث التى تضرب بجذورها فى الماضى السحيق ، ومن الضرورى أن يتحقق عندنا نوع من الفهم التاريخى للوقائع بوصفها الهدف الاثنولوجى الخاص بالباحث .

وعموما ، فإن مصطلح التاريخ الثقافى يكتسب معناه الحقيقى ودلالته فى ضوء علم المناهج ، وتنقسم المناهج فى هذا الصدد قسمين : قسم انثروبولوجى ، قسم وضعى تاريخى .

أما القسم الانثروبولوجى فهو يعطينا المداخل التى يمكن بواسطتها الكشف عن اعتبارات الزمان وصياغتها فى تصورات ثقافية محددة ، أما القسم التاريخى فهو الوسيلة التى بواسطتها ستصبح تلك النتائج منظورات تاريخية صادقة ومفيدة بالنسبة للشعوب التى ندرسها ، والنتاج النهائى لذلك كله هو التاريخ الثقافى .

وهكذا تحتل الثقافة فى الانثروبولوجيا مكانة رئيسية ، ويُعد البحث التاريخى للثقافة مطلبًا هاماً وحيويا بالنسبة للانثروبولوجيا الثقافية ، ويعكس هذا الاهتمام دراسة نشأة الثقافة وتطورها وأصولها ، وعملية اعادة بناء تاريخ

الثقافة ، وتقوم هذه الدراسة على اساس دراسة توزيع الخصائص الثقافية وتحليلها ثم التحقق من مدى امكانية حدوث احتكاكات واتصالات بين الوحدات الثقافية ، بل يمكن أن تكشف أيضا التتابع الزمنى الذى ظهرت فيه هذه الاحتكاكات والاتصالات .

أما علماء التأويل التاريخى للثقافة من أمثال كروبير Kroeber فإنهم يرون أن التاريخ هو فى جوهره محاولة لاعطاء وصف دقيق لموضوع الدراسة ، وليس معالجة التتابعات الزمنية ، ولهذا اعتقد أنه يمكننا الاعتماد على المنهج التاريخى فى دراسة الاحداث والوقائع الحالية ، وكذلك فى دراسة الظواهر التى تحدث في زمن محدد ، وهو ما يُعرف بأسم الدراسات المتزامنة Synchronic، هذا فضلا عن دراسة الظواهر التى تحدث فى أزمان متعددة Diachronic فكأن ماهية التاريخ لا تنحصر فى عنصر الزمن كما أن الذى يميز الدراسة التاريخية هو الوصف التحليلى لأية مجموعة من الظواهر الثقافية فى موقف معين بالذات . وعلى ذلك فإن الدراسة التاريخية تأخذ فى اعتبارها عنصر الزمان الى جانب عنصر المكان ، وهذا هو المحك الاساسى الذى تقوم التفرقة عليه بين العلم والتاريخ ، ولا شك أن هذا الاصرار على أهمية المنهج التاريخى فى دراسة الثقافة يوجد لدى كثير من علماء الانثروبولوجيا الثقافية [1] .

وعلى ذلك ، فإن الاهتمام بتاريخ الانسان يعتبر من بين المصادر الأساسية للدراسات الانثروبولوجية وقد تمثل ذلك فى الدراسات المقارنة للمجتمعات والنظم الاجتماعية ، وفى محاولة اعادة بناء تاريخ مجتمعات بعينها ، فقد إعتمد كل من فولتير Voltaire وجوستاف كلم Gustav Klemm وسيرهنرى مين Sir Henry Maine وماكلينان J.F. Mclenain وباخوفن Bachofen وفوستيل دى كولانج Fustel de Coulanges ولويس مورجان L.H. Morgan وادوار تايلور

---

(١) احمد ابو زيد ، «البناء الاجتماعى جـ ١ ، المفهومات » ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الاسكندرية ، ص ١٤٠ .

E.B.Tylor اعتمدوا جميعا على المصادر التاريخية فى إقامة علم اجتماع مقارن عن الثقافة والمجتمع . واذا انتقلنا الى الدراسات الانثروبولوجية الامريكية المعاصرة سنجد إيضا اهتمام واضح بالمصادر التاريخية فيما يعرف اصطلاحا بأسم «الذاكرة الثقافية» Memory Culture حيث تحاول المدرسة التاريخية ان تعتمد على ذاكرة كبار السن من القبائل الهندية لكى تحصل على معلومات عن ثقافة هذه القبائل .

ويعتمد علماء الانثروبولوجيا والمهتمين بتاريخ الشعوب على ثلاث مصادر ومناهج رئيسية فى تحقيق أهدافهم هى :

١ - الوثائق المكتوبة Written Documents فبرغم الصعوبات التى تواجه الاعتماد على هذه الوثائق ، وخاصة فى المجتمعات التى لا توجد عنها وثائق مدونة ، إلا أن محاولات حديثة تبذل لجمع مادة يمكن الاعتماد عليها فى تكوين بعض المعلومات المنظمة عن هذه المجتمعات .

٢ - التراث الشفهى Oral Traditions ، حيث يغطى التراث الشفهى أنواع متعددة من الظواهر والانظمة والعلاقات الاجتماعية ، ويمكن ن نعثر على التراث الشفاهى من دراسة هذه الظواهر الاجتماعية ، حيث تكشف عن أهمية الاعتماد على هذا المصدر في البحوث التاريخية الانثروبولوجية .

٣ - البحث الحقلى Field Work ، حيث يمثل البحث الحقلى القائم على الملاحظة بالمشاركة وجمع البيانات من الواقع مصدرا رئيسيا للمعلومات ، وجزءا رئيسيا من تدريب الباحث الأنثروبولوجى ، وذلك بهدف ابراز الوظائف المختلفة للانساق الاجتماعية والعلاقات المتبادلة بينها الى جانب تقديم وصف دقيق ومتكامل للحياة الاجتماعية فى مجتمع او ثقافة معينة ، وهذا لن يتم الا من خلال اجراءات وأساليب البحث الحقلى .

ب - **المنهج المقارن** : يمكن القول بأن المنهج المقارن ينطبق علي علم الانثروبولوجيا بكل فروعه ومجالات دراسته ، حيث أن أى بحث انثروبولوجى ينطوى بالضرورة على مقارنات بين بعض المتغيرات ، ويكتسب المنهج المقارن دلالة خاصة في البحث الانثروبولوجى ، حيث يقصد به عادة دراسة توزيع الظواهر الاجتماعية فى مجتمعات مختلفة، أو أنماط محددة من المجتمعات ، وكذلك مقارنة النظم الاجتماعية الرئيسية من حيث استمرارها وتطورها والتغير الذى يطرأ عليها ، أو حتى مقارنة مجتمعات بعضها ببعض .

أما عن مجالات البحث المقارنة فى الانثروبولوجيا فهى تتلخص فيما يلى:

١ - دراسة أوجه الشبة والاختلاف بين الانماط الرئيسية للسلوك الاجتماعى، ويشمل ذلك أيضا دراسة السلوك السياسى للافراد مثل التصويت فى الانتخابات وغيرها ، وكذلك دراسة السلوك الاجرامى ومعدلات الجرائم فى المجتمع وأنماطها فى مجتمعات مختلفة .

٢ - دراسة نمو وتطور مختلف أنماط الشخصية ، والاتجاهات السيكولوجية والاجتماعية فى مجتمعات مختلفة وثقافات متعددة ، وتمثل هذه الدراسات بحوث الثقافة والشخصية ودراسات الطابع القومى National character [1] .

٣ - دراسة النماذج المختلفة من التنظيمات Organisations ، وخصوصا التنظيمات البيروقراطية مثل النقابات العمالية والتنظيمات السياسية والصناعية والمهنية فى مجتمعات مختلفة .

٤ - دراسة النظم الاجتماعية Social Institutions ، والتى بالضرورة تنقسم الى أقسام فرعية ، مثل تحليل المعايير النظامية العامة أى دراسة نظم الزواج والأسرة والقرابة ، ثم دراسة الأنساق الثقافية مثل المعتقدات الدينية،

(1) Nadel, 1958, "Foundations of Social Anthropology", Glencoe' The Fress, p. 228.

ودراسة العمليات التى تطرأ على المجتمع مثل التحضر والديموقراطية ، ودراسة النظم الفرعية مثل العادات والفولكلور ، وهي دراسات ذات صلة وثيقة بالأنساق الثقافية .

٥ - تحليل ومقارنة مجتمعات بأكملها ، فعادة ما تتم المقارنة بين المجتمعات وفقا للنمط الرئيسى السائد للنظم الاجتماعية والثقافية الموجود فيها .

أما الصعوبات المنهجية والنظرية ، فإن بناء الأنماط من أجل المقارنة يطرح عدداً من المشكلات المنهجية والنظرية يمكن تلخيصها على النحو التالى :

١ - مشكلة اختيار وحدة المقارنة التى على أساسها سوف تتحدد المتغيرات الرئيسية فى البحث .

٢ - مشكلة تحديد المؤشرات الى نقارن على أساسها بين المتغيرات ، حيث تختلف هذه المؤشرات تبعا لاختلاف وحدة المقارنة .

٣ - مشكلة إمكانية المقارنة comparability بالنسبة لكل وحدة من وحدات المقارنة .

٤ - مشكلة المعاينة Sampling ، فالعينات الصغيرة نسبيا لوحدات المقارنة تثير تساؤلا عن مدى إمكانية صياغة مقارنات متعمقة تجريبية ، والمشكلة المنهجية القائمة بالنسبة للعينات عموما هى مدى تمثيل هذه العينات للمجتمع الأصلى ، ففى الدراسات المقارنة التى تهدف إلى أختبار الفروض أو القضايا العامة ، تكون درجة تمثيل الوحدات المقارنة للمجتمع الأصلى الذى تنتسب اليه مسألة بالغة الأهمية .

وهذه الصعوبات المنهجية تختلف عادة بأختلاف المادة اللازمة للتحليل المقارن [1].

---

(1) Warwick, D., & Samuel Osherson, "Comparative Research Methods, "N.J., Prentice Hall, 1973. pp. 34 - 47.

جـ - **المنهج البنائي الوظيفي** : بعد أن تطورت الانثروبولوجيا فى الفترة التى أعقبت الحرب العالمية الأولى ، ظهرت اتجاهات جديدة تحاول أن تتجنب الصعوبات والمشكلات التى صاحبت استخدام وتطبيق المنهج المقارن تطبيقا تقليديا . وبذلك ظهر ما يعرف الآن فى الدراسات الأنثروبولوجية باسم «الاتجاه الوظيفى» الذى أخذ أصحابه يؤكدون على أنهم يدرسون الظواهر فى إطارها وسياقها الكلى ، لهذا فهم يبتعدون عن المقارنات التى حاولت أن تعزل النظم الاجتماعية عن سياقها البنائى عزلا تحكميًا .

لكن الشى الملاحظ فى الوقت الحاضر هو أن العلماء الوظيفيين لازالوا يعتبرون المقارنة عظيمة الفائدة بل يصعب الاستغناء عنها فى دراساتهم ، لذلك فقد ذهب بعض العلماء إلى أن الاتجاه الوظيفى يهدف الى التوصل الى تعميمات تتعلق بالصلات المتبادلة بين النظم فى المجتمعات ذات الطبيعة الخاصة، وإلى تصنيف هذه المجتمعات حتى يمكن إدراك التشابه بينها ، والمقارنة بينها فى محاولة لاكتشاف بعض مظاهر التماثل بين هذه الوحدات البنائية ، ومعنى ذلك ان الوظيفية سوف تستعين بالطريقة المقارنة استعانة مباشرة لتحقيق أهدافها . ومن هنا اكتسب البحث المقارن أهمية خاصة وتدعيما قويا بعد ان كتب نادل Nadel بعض الدراسات الانثروبولوجية ، والتى أكد فيها على الحاجة الملحة والماسة لدراسة الوقائع الاجتماعية فى مواقف صناعية تمكننا من المقارنة بينها ، وهو يؤكد أن علماء الانثروبولوجيا يتمسكون دائما بالسياق الأشمل ، ويتمكنون من عزل العناصر عن سياقها دون أن تفقد معناها [1] .

لذلك حاول المنهج البنائى الوظيفى المزاوجة بين المنهج المقارن، والاتجاه الوظيفى فى الدراسات والبحوث الانثروبولوجية ، حتى يتمكن من دراسة الظواهر الاجتماعية فى سياقها الكلى من ناحية ، والتعرف على الأدوار

---

(1) Nadel., op.cit. p. 230.

والوظائف التى يؤديها كل نظام من النظم الاجتماعية من ناحية اخري ، لمعرفة طبيعة البناء الاجتماعى Social Structure للمجتمع ككل .

وحتى تتضح لنا صورة هذا المنهج نعطى مثالا لتلك الدراسة الشهيرة والرائدة فى مجال الدراسات الانثروبولوجية الحقلية ، والتى قام بها مالينوفسكى Malinowski ليوضح التداخل بين الظواهر الاجتماعية وتفسيرها فى اطار بنائى ووظيفى، تلك الدراسة التى ضمنها كتابه الذى يحمل عنوان Argonuts of the western Pacific الذى نشره فى عام ١٩٢٢ ، حيث استخدم المنهج البنائى الوظيفى فى دراسة النشاط الاقتصادى الذى يمارسه سكان جزر التروبرياند والذى يعرف بنظام الكولا Kual System حيث يدخل سكان هذه الجزر مع سكان بعض الجزر المجاورة فى نوع من التحالف أو الاتفاق يهدف الى تبادل أشياء وسلع معينة تتألف من «عقود» طويلة من الصدف الأحمر ، «وآساور» من الصدف الأبيض ، ويتألف نسق التبادل فى أن العقود تنتقل من مجتمع لآخر في اتجاه واحد لا يتغير حول محيط الدائرة التى تنظم تلك الجزر ، بينما تنتقل الأساور فى الإتجاه المضاد ، وهذه السلع لا تحمل قيمة عملية على الاطلاق بقدر ما لها من قيمة شعائرية وطقوسية ، كماأنها تتصل اتصالا وثيقا بالمركز الذى يحتله الفرد فى المجتمع [1] .

ولقد كانت المدارس التاريخية المختلفة فى الأنثروبولوجيا ، وبخاصة فى المدرسة الامريكية ، تنظر الى الثقافة عموما ، بأعتبارها مجموعة من العناصر غير المتصلة ، بل والمتباينة فى نشأتها ، إلا أن البعض قد تصدى لهذا المفهوم، وبخاصة العلماء الوظيفيين وعلى رأسهم برونيسلاو مالينوفسكى ، حيث تتخذ الوظيفة عنده جانبين الاول : يذهب الى أن كل ثقافة هى عبارة عن كيان كلى

(1) Malinowski, B., "Argonauts of the western Pacific", . London, Rouledge & Kegn Paul, 1922, pp. 22-44.

وظيفى متكامل شبيهه بالكائن الحى ، ولا نستطيع ان نفهم أى جزء من أى ثقافة إلا فى ضوء علاقته بالكل . الجانب الثانى : هو محاولة تحديد الوظيفة النهائية للثقافات الانسانية ، وتفسير وجودها فى المجتمعات [1]، وهنا يبرز مفهوم الوظيفة الثقافية، فى حين يوجه «رادكليف بروان» R. Brown اهتمامه إلى دراسة المجتمع لا الى الثقافة ، فيؤكد أن المجتمع يتكون من اجزاء متداخله وظيفيا ، وهو بذلك يسعى الى تحقيق الاهداف التالية :

١ – الوصف الدقيق للاداء الوظيفى للأبنية الاجتماعية الموجودة فى المجتمعات الانسانية ، مؤكدا على دورها فى الحفاظ على البناء الاجتماعى .

٢ – التصنيف المنهجى للظواهر الاجتماعية .

٣ – صياغة القوانين العامة التى تحكم الظواهر الاجتماعية.

لذلك فان المنهج البنائى الوظيفى يهتم اهتماما كبيرا ببناء الثقافة ، والعلاقة القائمة بين أجزائها ، كما يهتم ايضا بدراسة المجتمع والثقافة والعلاقات المتداخلة والمتشابكة بينهما ، والتى تتساند مع بعضها تساندا وظيفيا .

ثانيا :- طرق وأدوات البحث الانثروبولوجي :

لقد أصبحت الانثروبولوجيا علما يعتمد علي مناهج متخصصة فى البحث ، الى جانب أنها اصبحت فنا بممارستها بعض الطرق الأدوات الفنية الدقيقة فى اجراء بحوثها الحقلية . هذا فضلا عن النظريات الخاصة به كعلم متخصص من العلوم الانسانية . وقد أصبحت الفكرة القائلة «بأنه يتعين على الانثروبولوجى أن يبحث بنفسه عن البيانات التى تحتاج اليهـا دراساته بدلا من الاعتماد

---

(١) محمد محمود الجوهرى ، ١٩٩٥ «الانثروبولوجيا: أسس نظرية» ، دار المعرفة الجامعية ، اسكندرية ، ص ٢٩ .

كتابات الرحالة» فكرة شائعة فى أواخر القرن التاسع عشر ، فقد قام فرانز بواس Boas بدراسات عن الأسكيمو بين عامى ١٨٨٣ - ١٨٨٤ ، ثم قام هادون Hadon فى انجلترا على رأس بعثة جامعة كيمردج لدراسة منطقة مضايق توريس Torres Straits فى المحيط الهادي بين عامى ١٨٩٨ - ١٨٩٩ ، وكانت هذه المرحلة علامة مميزة فى تشكيل الانثروبولوجيا كعلم يحتاج إلى التخصص والتفرع ، ويعتمد على الخبرة الحلقية ، بأعتبارها عنصرا جوهريًا فى تمرين الطلاب وتدريب الدارسين لهذا العلم[١].

أما عالم الانثروبولوجيا الشهير مالينوفسكى ، فهو الذى عمل على تدعيم البحث الحقلى فى ميدان الانثروبولوجيا ، فقد قام بدراسة لسكان جزر التروبرياند Trobriandفى ميلانيزيا أمضى فيها أربع سنوات من عام ١٩١٤ - ١٩١٨، وهى فترة تطول كثيرا عن المدة التى أمضاها أى باحث انثروبولوجى من قبل ، كما كان مالينوفسكى أول انثروبولوجى يستخدم لغة الأهالى فى اجراء البحث ، وكان كذلك أول من عاش مع الاهالى وبطريقتهم الخاصة طيلة مدة الدراسة . وترجع أهمية دراسات مالينوفسكى الحقلية إلى أنها أكدت أن فهم الحياة الاجتماعية لدى شعب من الشعوب لن يتحقق الا اذا درست دراسة مركزة ، كما كان يؤمن بأن القيام بدراسة حقلية مركزة واحدة على الأقل فى مجتمع يؤلف جزءاً ضروريا من تدريب الباحث الانثروبولوجى .

ومعنى هذا أن الدراسة التكاملية Intergerative study فى الانثروبولوجيا لن يتحقق الا اذا اتصل الباحث اتصالا مباشرا ووثيقا بالمجتمع والثقافة التى يتناولها ، وهذا ما يعرف بالدراسة الحقلية Field Study . أى أن الباحث عليه أن يعايش المجتمع ويلاحظ نظمة ملاحظة مباشرة ودقيقة .

(١) احد أبو زيد ، ١٩٥٦ ، «الطريقة الانثروبولوجية فى دراسة المجتمع ، حوليات كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، المجلد العاشر ، ص ٣ - ٥ .

وعموما ، فإن أهم الطرق والأدوات المستخدمة فى البحث الانثروبولوجى يمكن ذكرها على النحو التالى :

(١) الملاحظة بالمشاركة Participant Observation

(٢) الاعتماد على الأخبارين Informants

(٣) الاقامة فى مجتمع البحث

(٤) اجراء المقابلات

(٥) استخدام ادوات التسجيل (الكتابة ، الصوتية ، والمرئية .. الخ).

(٦) دراسات الحالة Case studies

أما عن اداة الملاحظة بالمشاركة فهى تتلخص فى أن يعيش الباحث أو القائم بالملاحظة مع الاشخاص المطلوب ملاحظتهم لفترة زمنية طويلة نسبيا ، قد تمتد الى ما يقرب من العام ، وذلك للتعمق فى فهم خصائصهم الاجتماعية والثقافية والسلوكية والاقتصادية ، وقد أستخدمت هذه الطريقة في البحوث الانثروبولوجية، وبخاصة فى دراسة مجتمعات كلية وثقافات وأحياء ومدن ومصانع وجماعات ، ويتعين على الباحث الملاحظ المشارك أن يبتعد عن التحيز لفئة من الفئات فإذا قام بدراسة مصنع مثلا فإن عليه أن يدرس العمال والادارة دون أن يتحيز الى جانب فئة معينة منهم ، وهو يندمج فى الواقع الذى يعايشه ، ولكنه يحاول قدر المستطاع ان يصوره تصويرا موضوعيا .

وهنا لابد من الاشارة الى الالتزام الاخلاقى للقائم بالملاحظة ، فإستخدام الملاحظة المشاركة يقتضى من الباحث الاقامة الكاملة فى مجتمع الدراسة والاندماج مع أعضائه ، وهو فى هذه الحالة يتعرف علي كل ما هو «تحت السطح» Beneath the surface ومن ثم يواجه مشكلة وبخاصة عند مرحلة كتابه تقرير البحث ونشره ، فهل يخضع فى سلوكه لمتطلبات العلم التى تقتضى منه الصدق والتزام الصدق المطلق ؟ أم أنه يحذف بعض الأمور الى تمثل

خصوصيات المجتمع او الجماعة ، والتى استطاع ادراكها من خلال العلاقة الوثيقة التى تطورت أثناء اجراء البحث ، وربما يكون فى حذف هذه المعلومات واخفائها تشويهًا لنتائج البحث ، ومن المؤكد أن الباحث قد التزم بأنه لن يحدث ضررا لأولئك الذين حصل منهم على المعلومات ، لذلك فان مواجهة المعضلة يعتمد الى حد كبير على اخلاقيات الباحث القائم بالملاحظة المشاركة . لذلك يلجأ الباحث إلى تعريف بعض أفراد المجتمع المستنيرين بمهمته الاساسية ، والتى من الممكن أن يستفيد منها أعضاء المجتمع إنفسهم فى البرامج التى تهدف صالح أعضاء المجتمع ، ولن تضير المجتمع بأى حال من الأحوال .

أما طريقة الاعتماد على الاخبارين : فهى تعتمد على الاستعانة ببعض المرشدين أو بعض الاخبارينInformants الذين يكونون فى العادة من السكان الأصلين للمجتمع نفسه ، ويقومون بدور أساس يتمثل فى تقديم المجتمع للباحث، وتعريفه بمختلف ظواهره، كما يكون لهم دور فى تعليم الباحث الانثروبولوجى لغة الأهالي ، لكن ذلك لا يعنى ان يكتفى الباحث الانثروبولوجى بتلك المعلومات والتفسيرات التى يحصل عليها عن طريق الاخبارين ، بل عليه ان يتحقق بنفسه من كل ما يذكر أو يقال له ، ومن ثم فإنه يتخذ من الاخبارين مدخلا للاندماج فى المجتمع والتعرف عليه ، لذلك لابد أن يستعين الباحث الانثروبولوجى فى دراسته الحقلية بعدد من الاشخاص الذين يشغلون مراكز واوضاع اساسية فى مختلف قطاعات البناء الاجتماعى ويفترض ان يكون لدى هؤلاء الاخبارين معرفة تفصيلية بالثقافة السائدة ، وهذا لا يمنع من أن يعتمد الباحث بصفة دائمة على أخبارى أساسى بحيث يعتبره معاونًا أساسيا له فى الدراسة .

ومن بين المواد التى يفيد فيها الباحث الانثروبولوجى ، والتى يحصل عليها من بعض الأخباريين ، تلك المادة المسجلة سواء كانت صورا فوتوغرافية ، أو اشرطة تسجيل مسجل عليها مواد ثقافية عديدة ، أو افلاما لبعض الانشطة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية ، يمكن أن تفيد الباحث فائدة محققة فى اجراء

بحثه والالمام بعناصر البناء الاجتماعى لمجتمع بحثه .

والاقامة فى مجتمع الدراسة تتطلب ضرورة ان يتعلم الباحث اللغة الوطنية التى يتحدث بهاالاهالى ، لأنه حين يتكلم لغة المجتمع ، فإنه يتعلم فى نفس الوقت ثقافتهم ونظمهم الاجتماعية اللذان يتبلوران فى مصطلحات تلك اللغة والفاظها ، فكل شىء فى حياة الاهالى الاجتماعية يعبر عنه إما فى شكل الفاظ ، أو فى شكل افعال ، أى إما بالقول أو العمل . وحينما يصل الباحث الى فهم معانى كل كلمة من كلمات تلك اللغة وطريقة استعمالها فى مختلف المواقف والمناسبات يكون قد أستكمل دراسة المجتمع .

أما عن المقابلة ، فهى أداة للبحث تمثل الحوار اللفظى الذى يتم وجها لوجه بين الباحث القائم بالمقابلة وبين شخص اخر أو مجموعة أشخاص آخرين .

وعموما ، فان المقابلة تتكون من ثلاث عناصر متميزة هى :

أ - القائم بالمقابلة Interviewer

ب - المبحوث Interviewee

جـ - موقف المقابلة The situation of Interview

وهناك ارتباط وثيق بين العناصر الثلاثة علي نحو يؤثر فى النتائج العامة للمقابلة ، ويتوقف نجاح المقابلة الى حد كبير على مهارة الباحث القائم بها ، ومدى فهمه لدوافع السلوك ، ومبلغ وعيه وادراكه لمختلف العوامل فى الموقف المحيط به ، والتى تدفع المبحوث فى بعض الاحيان الى الوقوف موقفا سلبيا من الباحث أو اعطاء بيانات محرفة لا تتسم بالثبات والصدق .

والمقابلة فن يحتاج الى مهارة وخبرة ومران وتدريب يكتسبها الباحث عن طريق الممارسة العملية والنزول الى الميدان ، والاحتكاك بجمهور البحث ، والقدرة على النفاذ الى دوافع السلوك ، ومكونات الشخصية ، وأساليب الاتصال والتأثير . لذلك فان المقابلات التى يعقدها الباحث مع اعضاء المجتمع، من شأنها

أن تجعله قادرا على ادراك الدلالات المختلفة لأنماط السلوك والعلاقات الوظيفية بين الظواهر والنظم السائدة [1] .

ويستطيع الباحث ان يختار موضوعات المقابلة بالاعتماد على بعض المؤلفات المتاحة لدى الانثروبولوجيين ، والتى تقدم لهم دليلا عاما للدراسة الحقلية، وأكثر هذه المؤلفات شيوعا هى «موجز المواد الثقافية» ميردوك Mer-douck ١٩٦٠، والدليل الذى أصدره المعهد الملكى للانثروبولوجيا فى بريطانيا عام ١٩٥١ بعنوان Notes and queries on Anthropology ويحتوى الدليل الاول على ثمانين فئة عامة تنقسم الى ٦٣٣ موضوعا ، يضم كل منها مابين ٥ - ٢٠ موضوعا متخصصا للبحث ، هذا فضلا عن ان الباحث يستطيع ان يستعين ايضا بمؤلفات أخرى مخصصة لميادين محددة بالذات مثل تنشئة الاطفال Socialization ، وهى تستخدم جميعا كأساس للمقابلات .

أما عن الادوات المستخدمة فى البحث الانثروبولوجى ، فهى متعددة تبدأ بالتسجيل اليومى الكتابى فى جمع المادة الاثنوجرافية Ethnographic Data من الميدان يتخللها استخدام مجموعة مختلفة من ادوات جمع المادة ، سواء كانت ادوات تستخدم للتسجيل الصوتى (كاست) او تصوير فوتوغرافى للحياة اليومية فى المجتمع ، حتى ايضا التصوير المرئى ، أو ما يعرف بالانثروبولوجيا المرئية .

- أما دراسة الحالة ، فهى تمثل أداة تحليلية للسلوك والمواقف الاجتماعية، وطريقة للتعمق الكيفى فى فهم الظواهر ، والحالة التى يدرسها الباحث قد تكون شخصا أو جماعة مثل الاسرة أو مجتمع محلى ، والهدف من دراسة الحالة هو البحث التفصيلى لكافة جوانب الحالة المراد دراستها ، ومن ثم يحاول الباحث أن

(١) محمد على محمد ، مرجع سابق ، ص ٢٦٤ .

يجمع أكبر قدر ممكن من المعلومات عن هذه الحالة ، وبخاصة تلك المعلومات التى تتصل بتاريخ حياة الحالة وتطورها . ويمكن استخلاص أهم خصائص دراسة الحالة على النحو التالى :

١ - انها طريقة للحصول على معلومات شاملة عن الحالة المدروسة .

٢ - أنها طريقة للتحليل الكيفى للظواهر والحالات .

٣ - انها طريقة تهتم بالموقف الكلى وبمختلف العوامل المؤثرة فيه والعمليات التى يشهدها .

٤ - انها طريقة تتبعية ، أى أنها تعتمد اعتمادا كبيرا على عنصر الزمن، ومن ثم فهى تهتم بالدراسة التاريخية .

٥ - أنها منهج ديناميكى لا يقتصر علي بحث الحالة الراهنة .

٦ - أنها منهج يسعى الى تكامل المعرفة ، لأنه يعتمد على اكثر من أداة للحصول على المعلومات .

ثالثا : بين المنهج والنظرية في البحث الحقلي الانثروبولوجي :

تواجه البحوث الاجتماعية - عموما - معضلة منهجية فريدة ، ألا وهى أن ظروف البحث فى ميادين هذه العلوم تشكل متغيرا مركبا شديدا يؤثر تأثيرا مباشرا فيما تخلص اليه البحوث من نتائج ، ومن ثم يستخدم مصطلح البحث الحقلى Field Research لكى يعنى فى الحقيقة موقفا منهجيا محددا وصريحا يعترف بأن الباحث الاجتماعى يلعب دورا رئيسيا فى عملية الحصول على البيانات ، ويرتبط هذا المصطلح اساسا باداة بحثية معينة هى اداة الملاحظة بالمشاركة Participant observation التى تستخدم استخداما رئيسيا في البحوث الانثروبولوجية الاجتماعية والثقافية ، اذ استطاع الانثروبولوجيون بأستخدام هذا التكنيك جمع تراث هائل حول مختلف الثقافات والمجتمعات ،

دون أن يحظى هذا التراث - للاسف - بمحاولة نظرية تستهدف تصنيفه ووضع الأساس التفسيرى له ، لكن طريقة الملاحظة بالمشاركة أصبحت تشكل لب المنهج الانثروبولوجى فى الدراسة الحقلية ، اذ تقتضى من الباحث ان يقيم فترة كافية من الزمن فى المجتمع محل الدراسة ، يستطيع معها ان يتعرف على الوظائف المختلفة - الظاهرة والكامنة - التى تؤديها النظم الاجتماعية أو العناصر الثقافية ، ويعتقد الانثروبولوجيون أن هذه الطريقة سوف تمكن الباحث من جمع اكبر قدر ممكن من البيانات والمعلومات ، ووصف الحياة الاجتماعية والثقافية وصفا تفصليا دقيقا ، يستطيع الباحث أن يكتب بعدها تقريرا متكاملا ومفصلا عن هذا المجتمع أو تلك الثقافة التى يدرسها .

ومن هنا لابد من الوقوف على بعض المشكلات المنهجية فى البحث الانثروبولوجى الحقلى ، أن المشكلات الخاصة بالملاحظة والتفسير والتسجيل وملاءمة البيانات للنظرية تظهر بوضوح فى البحث الحقلى لان الملاحظة جزء من الميدان الذى يعمل فيه .

والمشكلة المنهجية الرئيسية فى هذا الصدد نتيجة للفروق بين الواقع الطبيعى، كما يصفه عالم الطبيعة والواقع الاجتماعى كما يصفه العالم الاجتماعى ، ولقد حدد الفردشوتز A.Shutz هذا الفارق فى هذه الفقرة التالية :

«ان هذه الامور ترجع الى الحقيقة التى مؤداها ان هناك فارقا جوهريا فى بناء الافكار والمفاهيم التى يكونها المتخصصون فى العلوم الطبيعية» .

فمن اليسير بالنسبة للعالم الطبيعى ان يحدد فى ضوء القواعد الاجرائية للعلم الذي يتخصص فيه مجال ملاحظته وأن يحدد أيضا الوقائع ، والبيانات، والحوادث الملائمة لمشكلته أو لبحثه العلمى الذى يقوم به .

ولا يتضمن العالم الطبيعى كما يستكشفه عالم الطبيعة أية معانى خاصة اكثر من الجزيئيات ، او الذرات ، أو الاكترونات كما توجد بالفعل . أما مجال

الملاحظة بالنسبة للباحث الاجتماعى ، أى الواقع الاجتماعى ، فان له معنى محدد وبناء يناسب الكائنات الانسانية التى تعيش ، وتفكر ، وتتفاعل فيه. ولقد استطاعت هذه الكائنات أن تفسر هذا الواقع من خلال خبرتها اليومية المباشرة ومن ثم يصبح على الباحث الاجتماعى أن يصوغ مفاهيمه وافكاره ، التى سوف يدرس بها الواقع فى ضوء التفسيرات التى طورها الناس خلال حياتهم اليومية وبدون ذلك تصبح دراسته منعزلة عن حياة الناس وافكارهم ، أى منعزلة عن الموضوع الذى يدرسه اصلا.

وإن كان الملاحظ ليس جزءا من المجال السلوكى الذى يدرسه . وعموما فان الملاحظة كجزء من مجال السلوك الذى يدرسه يصطحب معه مجموعة من المعانى والافكار الملائمة التى تمكنه من الدخول الى البيئة التى يدرسها ويلاحظها عند هذه النقطة أنها تواجه بعض المشكلات ، نذكر منها ما يلى :

١ - أن عليه ان يفسر سلوك الاشخاص الذين يلاحظهم وفقا للمعانى التى تسود فى حياتهم اليومية .

٢ - أن عليه ان يكون تصورا نظريا يأخذ فى اعتباره قيم واتجاهات ومعانى السلوك الذى يلاحظه على نحو يسمح له بعقد صلات شخصية متبادلة مع الاشخاص والجماعات التى يدرسها .

٣ - أنه لن يستطيع ان يكون علاقة اجتماعية حميمة فى الواقع الاجتماعى دون ان يتجاهل ولو جزئيا اتجاهه العلمى .

والواقع ان الاعتبارات السابقة تطرح امامنامشكلة رئيسية وهى كيف نثق فى المعلومات التى يتضمنها الباحث الحقلى فى بحثه من الناحية العلمية والى اى مدى نستطيع ان نقيم على اساسها نظريات تفسيرية؟

والحقيقة أننا يجب ان نسلم منذ البداية بأن الواقع الاجتماعى متميز ومختلف تماما عن الواقع الطبيعى وهذا الاختلاف يقتضي من الباحث موقفا واتجاها خاصا يتلائم مع طبيعة الموضوع الذى يدرسه .

وعموما فأن معظم الدراسات الحقلية الحديثة تلجأ الى طريقة فى الحصول على المعلومات تحاول بها أن تتجنب الذاتية فى البيانات بقدر المستطاع وتقوم هذه الطريقة على استخدام ما يعرف بفريق البحث Team Work.

ويمكن ان تحقق هذه الطريقة قدرا كبيرا من الدقة والثبات والصدق فى المعلومات التى حصل عليها عن طريق البحث الحقلى .

وهناك مشكلة اخرى تظهر فى العديد من البحوث الحقلية إذ عادة ما تبدأ هذه البحوث بعملية الملاحظة وجمع المعلومات دون أن يوجه الباحث منذ البداية اطار نظرى واضح المعالم وافتراضات محددة ومفاهيم نظرية مختارة، لذلك يجب على الباحث الحقلى ان يطور هذا الاطار النظرى إما اثناء جمع المعلومات او حينما يشرع فى كتابه تقرير بحثه .

أما عن تقويم البحث الحقلى ، فسوف نحاول التركيز على مميزات ومشكلات طريقة الملاحظة بالمشاركة ومدى فائدتها بالنظر الى الطرق الاخرى التى تستخدم فى البحوث الانثروبولوجية .

فقد كتب بيكر Beccker وجير Geer مقالا ناقشا فيه فوائد كل من الملاحظة بالمشاركة والمقابلة ، فذهبا الى ان الطريقتين يكمل أحدهما الاخر فى البحث الحقلى ، فالمشاركة المتعمقة تقلل درجة تقنين المقابلة ، لكن المشاركة تقدم لنا نظرة اكثر ثراء للعمليات الاجتماعية ، وبدون استخدام بعض انواع الاسئلة المنظمة خلال المشاركة تصبح هذه الطريقة ذات فائدة محدودة جدا بالنسبة لاختبار صحة الفروض .

إن الاستخدامات الحديثة لطريقة الملاحظة في البحث الحقلى تميل الى تسجيل ما يقع من حوادث ، ذلك بأستثناء عدد قليل من الدراسات التى تستعين بهذه الطريقة فى التحقق من صحة الفروض ، نذكر منها دراسة قام بها عدد من علماء النفس والانثروبولوجيا حول تنشئة الاطفال وأساليبهم

فى الثقافات المختلفة [1] .

لكن ستظل المشكلة الرئيسية هى عدم وجود نظرية محددة أو عدم رغبة الباحث - علي الأقل - فى توضيح افتراضاته النظرية مبدئيا ، وإنما تنحصر مهمة هذه الدراسات فى الغالب فى اضافة العديد من الملاحظات الوصفية فى ميدان العلوم الاجتماعية .

لذلك فعلى الباحث ان يحدد الاسس التى ترتكز عليها استنتاجاته ، والتى يمكن تلخيصها على النحو التالى :

١ - على الباحث ان يصوغ بوضوح ما يسعىٔ الى تحقيقه فى بحثه ، وأن يستكشف بعض القضايا النظرية العامة ، ويختبر صحة الفروض .

٢ - المعلومات التى يمكن للباحث الحصول عليها فى البحث الحقلى ، يتعين عليه استكمالها مباشرة ، وبخاصة الدراسات الخاصة بالتراث ، والتى يحصل عليها من دراسته الميدانية .

٣ - يجب على الباحث ان يحدد الاجراءات التى تناسب اهداف بحثه ، مثل صياغة بعض اسئلة المبحوثين ، وتحديد نوعية الصلات التى يتعين عقدها مع مجتمع البحث .

هذه كلها تُعد صورة لبعض التوجيهات التى يجب ان يسترشد بها الباحث الحقلى فى ميدان الانثروبولوجيا ، لكن الواقع الذى يحدث فعلا فى هذه البحوث يمكن ايجازه فى القضايا الآتية :

١ - عادة ما تكون لدى الباحث فكرة عن مشكلة البحث ، وحتى عن النتائج التى سيصل اليها ، ومعنى ذلك انه يتجه نحو البحث الحقلى وفى ذهنه الحصول على معلومات معينة بالذات تدعم أفكاره المبدئية .

---

(1) Becker & Geer, B., "Participant observation and Interviewing: Acomparison organisation, 10. No.3, 1957, pp. 82 - 32.

٢ - كثير من الباحثين يتجهون للميدان ولديهم أفكار عن نتائج البحوث السابقة ، وقد يستخدمون هذه الافكار فى اساءة فهم المعلومات الى يحصلون عليها.

٣ - يخلو - أحيانا - تقرير البحث من التصور الزمنى الذي يعنى ضرورة تحديد المراحل التى مرت بها الدراسة الحقلية ، وأثر كل مرحلة منها فى تعديل او تطور اهداف البحث وما خلص اليه من نتائج .

٤ - الاتجاه العام فى الدراسات الحقلية ، هو ابراز النتائج الواقعية والمعلومات الوصفية اكثر من الاهتمام بأستخدام هذه المعلومات فى تطوير البناء النظرى والأسس المنهجية .

مراجع الفصل الثالث

(١) احمد ابو زيد ، «البناء الاجتماعى جـ ١ ، المفهومات » ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الاسكندرية ، ص ١٤٠ .

(٢) احمد أبو زيد ، ١٩٥٦ ، «الطريقة الانثروبولوجية فى دراسة المجتمع ، حوليات كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، المجلد العاشر ، ص ٣ - ٥ .

(٣) محمد على محمد ، ١٩٨٣ ، «علم الاجتماع والمنهج العلمى : دراسة فى طرائق البحث وأساليبه» ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ص ٣ .

(٤) محمد محمود الجوهرى ، ١٩٩٥ «الانثروبولوجيا: أسس نظرية» ، دار المعرفة الجامعية ، اسكندرية ، ص ٢٩ .

(5) Nadel, 1958, "Foundations of Social Anthropology", Glencoe' The Fress, p. 228.

(6) Warwick, D., & Samuel Osherson, "Comparative Research Methods, "N.J., Prentice Hall, 1973. pp. 34 - 47.

(7) Malinowski, B., "Argonauts of the western Pacific", . London, Rouledge & Kegn Paul, 1922. pp. 22-44.

(8) Becker & Geer, B., "Participant observation and Interviewing: Acomparison organisation, 10. No.3, 1957, pp. 82 - 32.

الفصل الرابع
الانثروبولوجيا التطبيقية
وممارسة الخدمة الاجتماعية *

* كتب هذا الفصل أ.د. فاروق أحمد مصطفى .

الفصل الرابع
الانثروبولوجيا التطبيقية وممارسة الخدمة الاجتماعية *

التعريف بالانثروبولوجيا التطبيقية :

تتعلق الدراسات التى يطلق عليها مصطلح العلوم التطبيقية بوسائل تعتمد على التسليم بأهمية المبادىء العلمية وإستخدامها ، وخير مثال على ذلك الهندسة التى تطبق مبادىء الطبيعة (الفيزياء). والطب الذى يطبق مبادىء علم وظائف الاعضاء . كما أن طلاب الهندسة يتعلمون كيفية استخدام المبادىء العلمية التى تساعدهم فى انشاء وإقامة الاعمال والتى تقف وتواجه أية عقبات تعترضهم اثناء التنفيذ . وطلاب الطب يتعلمون ايضا استخدام المبادىء العلمية فى اكتشاف المرض .

وكل من المهندس والطبيب لهما موضوعات محددة ولهما اختيارهما الموضوعى ولا يستطيع احد منهم التدخل فى تخصص الآخر فالمهندس الذى يقوم سداً هو الذى يحدد الطريقة والاسلوب الذى يتم تنفيذ هذه السد به وقد لا يكون له دخل فى تحديد أهمية هذا السد وفوائده أو اضراره على المجتمع ، وهل يتفق المشروع الذى ينفذه مع القيم السائدة في المجتمع أم يتنافى معها فكلها أمور لا تهمه . وايضا الحال بالنسبة للطبيب فهو يختار انسب الطرق والوسائل العلاجية لمعالجة المريض ولا يهتم فى اغلب الاحيان بالعوامل الاجتماعية والنفسية الاخرى.

واذا كانت الان الانثروبولوجية الاجتماعية تهتم بالعلاقات الاجتماعية فان المماثلة بينهما وبين الهندسة تتطلب وضع وسائل لانشاء وتكوين المجتمعات

---

* كتب هذا الفصل أ.د. فاروق أحمد مصطفى .

والجماعات ، كما ان المماثلة بين الانثروبولوجيا والطب تتطلب وضع وصفات (روشتات) ضرورية لعلاج الجوانب المرضية فى المجتمع .

واذا صدق ذلك فى مجال العلوم الطبيعية فانه يصعب أن يصدق فى مجال الانسان ، فتحديد الاشياء المرغوب فيها أو الحالات المرضية التى تحتاج إلى العلاج ليست بالامر الميسور [1]. ولكن قام الانثروبولوجيون بمحاولات أدت فى النهاية إلى ظهور الانثروبولوجيا التطبيقية.

وقبل ان نشير إلى المراحل التى أدت إلى ظهور علم الانثروبولوجيا التطبيقية تتعرض إلى بعض التعريفات الهامة بهذا العلم . فقد وضع اليوت شابيل Eliot Chapple تعريفا لهذا العلم بأنه (فرع من الانثروبولوجيا تهتم بوصف التغيرات فى العلاقات الانسانية وفى فصل المبادىء التى تضبط هذه العلاقات كما تتضمن اختيار لهذه العوامل التى تحدد امكانية احداث التغير فى التنظيم الانسانى) [2].

وتعرفها لوس مير Lcuy Mair ان ميدان الانثروبولوجيا التطبيقية اصبح من الميادين الهامة للناس لانها تساعدهم فى اتخاذ القرارات الاجتماعية، وفى معرفة اشياء عن السكان ، والتعريف بالعادات المختلفة للشعوب) [3].

ويعرفها دكتور حسن شحاته سعفان بأنها العلم الذى يبين كيف يمكن الاستفادة من علوم الانثروبولوجيا النظرية فى ادارة المجتمعات البدائية وتربيتها والنهوض بها وتطويرها وفى النهوض بوسائل رفاهيتها الاجتماعية فهو مثلا يشترك فى وضع خطة للتعليم العام فى مثل تلك المجتمعات ، أو خطة لتهيئة

---

(1) Lucy Mair, "Applied Anthropology" in I.E.S.S Vol 102. p. 325.
(2) Chapple, E, "Applied Anhropology in Industry, I'm Al. Krober Ep., Anthropology to day Uni of chicaga Priss, 1953, p. 819.
(3) Lucy Mair, op.ci.t, p. 325.

مجتمع ما للحكم الذاتي ، وكذلك الخطط الاقتصادية والتفسير الديني إلى آخر ذلك» [1] .

ويرى الدكتور أحمد أبو زيد في الانثروبولوجيا التطبيقية فرع متخصص من الانثروبولوجيا العامة، يهدف إلى الاستعانة من الدراسات الانثروبولوجية النظرية في ضبط التغير الاجتماعي وتوجيهه في المجتمعات البدائية والتقليدية، وإن هذا المصطلح حديث نسبيا استعمله لاول مرة راد كليف بروان A.R. Rad Cliffe Brown في مقال له بعنوان «الانثروبولوجيا التطبيقية» عام ١٩٣٠ وكان اللفظ الشائع للانثروبولوجيا العملية Practical Anthropology اما عن اسباب ظهور هذا النوع من الانثروبولوجيا فيرجع إلى رغبة بعض الحكومات الاستعمارية في حكم الشعوب والقبائل الخاضعة لها بطريقة لا تتعارض مع القيمة التقليدية المتوارثة . وكانت بريطانيا اول دولة استعمارية استعانت بالانثروبولوحيين في دراسة الانساق الاجتماعية والنظم والقيم السائدة في مستعمراتها في فترة ما بين الحربين للتعرف على افضل الطرق والوسائل لتوجيه خططها ووضع مشروعاتها الخاصة ولاستغلال الثروة القومية لهذه المستعمرات . وقد زاد اهتمام المسئولين عن وضع سياسات التنمية والتخطيط في كثير من المجتمعات النامية في السنوات الأخيرة بالانثروبولوجيا التطبيقية نتيجة لازدياد الاقتناع بأن مشكلات التنمية ليست مشكلات اقتصادية أو تكنولوجية فحسب، وإنما هي في جوهرها مشكلات اجتماعية واغفال النواحي الاجتماعية كثيرا ما يؤدي الى اخفاق هذه المشروعات وفي وسع الانثروبولوجيين ان يبصروا أفراد المجتمع بما لهذه المشروعات من مزايا .

(١) حسن شحاته سعفان : علم الانسان – الانثروبولوجيا – منشورات مكتبة العرفان ، بيروت ١٩٦٦ ، ص ٢٦.

التطور التاريخي للانثروبولوجيا التطبيقية :

يعالج ايفانز بريتشارد Evans Pritchard موضوع الانثروبولوجيا التطبيقية في كتابه الانثروبولوجيا الاجتماعية حيث افرد له الفصل السادس ، وقد تسائل فى هذا الفصل عن الغرض من دراسة الانثروبولوجيا الاجتماعية؟ ويوضح هذا السؤال يمكن تأويله تأويلات مختلفة كما يمكن الاجابة عليه باجابات مختلفة أيضا . فقد يكون الغرض من السؤال معرفة الدوافع التى تدفع المرء إلى ان يتخذ من الانثروبولوجيا الاجتماعية مهنة له . وفى هذه الحالة سوف تختف الاجابات باختلاف الانثروبولوجيين إذ سوف يجيب البعض بعدم معرفته بالضبط أو قد يجيبون كما اجاب أحد الانثروبولوجيين الامريكيين «لا أظن أننى أحب الرحلة والانتقال من مكان لآخر» [1] .

وقد يعنى السؤال شيئا آخر مختلفا فيكون القصد منه : ما الفائدة التى نجنيها من دراسة ومعرفة الشعوب البدائية ؟ وهنا يجب ان نميز بين فائدة هذه المعرفة بالنسبة للشعوب البدائية ذاتها ، وفائدتها بالنسبة للمسئولية عن هذه الشعوب ورفاهتيها ، ثم فائدتها للاشخاص الذين يقومون بها أى بالنسبة للانثروبولوجيين أنفسهم ؟

لقد كان للمعلومات التى جمعها الانثروبولوجيون وللنتائج التى توصلوا اليها أكبر الأثر والفائدة بالنسبة لمشكلات الادارة والحكم والتعليم عند هذه الحكومات . فحكمت المستعمرات عن طريق الرؤساء الوطنيين بعد أن عرفوا وظائفهم في المجتمع ومدى سلطتهم ونوع الامتيازات التى تمتعوا بها ، كما عرف أيضا القوانين والعادات التقليدية لهذه الشعوب ويضرب ايفانز بريتشارد المثل

---

(١) ايفانز بريتشارد ، الانثروبولوجيا الاجتماعية ، الترجمة العربية للدكتور أحمد أبو زيد ، الطبعة الخامسة ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٧٥ ، ص ١٤٣ .

على ذلك عند احداث تغيير أو تعديل فى اقتصاديات هذه الشعوب مثل تغير نظام ملكية الارض عندهم أو تشجيعهم على زراعة محصولات معينة للتصدير أو ادخال نظام الاسواق وجعل اقتصادهم يعتمد على النقد بدلا من اعتماده على المقارنة فسوف يكون من المفيد هنا أن نقدر ولو بشكل تقريبى الآثار الاجتماعية التى قد تترتب على هذه التغيرات فقد يتخلف عن تغيير نظام ملكية الارض مثلا آثار وخيمة تصيب حياة العائلة والقرابة والدين ، لان العائلة وروابط القرابة والمعتقدات والعبادات الدينية قد تكون مرتبطة بنظام ملكية الارض هناك ارتباطات وثيقا [١].

ويؤكد ايفانز برتيشارد فى مجل الاستفادة من الدراسات الانثروبولوجية أن بعض العلماء يتحدثون عن الانثروبولوجيا التطبيقية بنفس اللهجة التى يتكلم الناس بها عن الطب التطبيقى أو الهندسة التطبيقية وهنا تصبح الانثروبولوجيا الاجتماعية علما طبيعيا يهدف إلى اقامة قوانين عامة عن الحياة الاجتماية وانه بمجرد الوصول الى هذه التعليمات النظرية يصبح من السهل الميسور اقامة علم تطبيقى وهذا يتفق مع وجهة نظر الانثروبولوجيين الاجتماعيين فى الوقت الحاضر الذين يتخذون العلوم الطبيعية نموذجا ومثالا لهم ويزعمون ان غرض الانثروبولوجيا هو ضبط التغيير الاجتماعى وتوجيهه عن طريق التنبؤ والتخطيط أو ما يسمى بالهندسة الاجتماعية [٢].

ويعارض ايفانز بريتيشارد هذا الاتجاه موضحا عدم ثقته فى امكان قيام علم المجتمع يشبه العلوم الطبيعية ، كما أنه لا يظن ان هناك بعض العلماد من يؤكد اننا وصلنا بالفعل الى اكتشاف قوانين اجتماعية وما دامت لا توجد هناك قوانين معروفة فلا يمكن بالطبع تطبيقها .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٤٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٦٥ .

وهذا الا يعنى انه لا يمكن الاستفادة بالانثروبولوجيا الاجتماعية حتى فى الحدود الضيقة الفنية ، وانما يعنى فقط أن الانثروبولوجيا الاجتماعية لا يمكن ان تكون علما تطبيقيا كالطب والهندسة لانها نوع من المعرفة المنهجية المنظمة عن المجتمعات البدائية ومن هذه الناحية يمكن استخدامها فى تصريف الأمور مثلما نستفيد من كل المعارف الاخرى التى من هذا القبيل فمسائل الادارة والتعليم عند هذه الشعوب تحتاج إلى اجراءات وقرارات معينة وسوف تساعد معرفة الحقائق المسئولين على الوصول الى قرارات صائبة وحكيمة كما تقيمهم الزلل والوقوع في الاخطاء الضخمة التى قد يترتب عليها نتائج خطيرة والخلاصة ان الانثروبولوجيا الاجتماعية كمايرى ايفانز بريتشارد تساعدنا على الوصول الى فهم أفضل واعمق لذلك الكائن العجيب الرائع الذى نسميه الانسان فى كل مكان وكل زمان [1].

وفى رأينا ايفانز بتشارد لم ينكر الأهمية التطبيقية لعلم الانثروبولوجيا وان كان قد حدد هذا المجال فى مجرد المعرفة الثقافية التى تعد مشعلا يضىء الطريق أمام رجال الادارة عند وضع القوانين والتخطيط لاعمال تتعلق بمستقبل الشعوب.

وقد كان ريموند فيرث R. Furth اكثر وضوحا وصراحة عند معالجته لموضوع الانثروبولوجيا التطبيقية فقدتنا ولها فى كتابة النماذج البشرية Human Types فأوضح ان الانثروبولوجيا كعلم نظرى مثلها ككل العلوم الاخرى لها تطبيقاتها العلمية ، فدراسة علم الفلك تستخدم في تحسين الملاحة ، ودراسة علم الطبيعة تساعد في تحسين الهندسة واللاسلكى ، ودراسة الكيمياء تساعد في مجال الصيدلة والطب وعلم الاحياء يفيد فى تحسين الزراعة كذلك فان الانثروبولوجيا تساعد فى تطوير المجتمعات المحلية المتخلفة، وفى معالجة الصعوبات التى

---

(١) المرجع الاسبق ، ص ١٦٩

تعترض العلاقات الاجتماعية وفى تصميم برامج الشئون الاجتماعية [1] .

واذا كانت الانثروبولوجيا قديما تتعامل مع المجتمعات البدائية فانها قدمت الخدمات الجليلة للبعثات التبشيرية ، وللتجارة ، وللحكومة من اجل تنمية العلاقات مع هذه المجتمعات ، وقد أسهمت اسهاما رائعا فى مجال المؤسسات التعليمية ، والمنظمات الدولية وكذا فى مجال التدريب وقد استفادت الانثروبولوجيا فى الوقت الحاضر بما نشر من الدراسات الانثروبولوجية السابقة وبفضل الدور المميز الذى لعبه الانثروبولوجيون فى تنفيذ كثير من الخطط وتطويرها .

وقد كان نتيجة احتكاك المجتمعات المختلفة بالثقافة الغربية ونتيجة التطور الدنيامى فى هذه المجتمعات ظهور مشكلات كثيرة تطلبت مساعدة وخبرة الانثروبولوجى ، فمشكلات السكان ، وتنظيم الاسرة ، وتحديد النسل ، وتوضيح العلاقات الجنسية ، والزواج ورعاية الاطفال ومعالجة مشكلاث الاستفادة من الارض، وتحديد حقوق الافراد والجماعات ، والرؤساء ، والمجتمع المحلى لكل وتأثير البناء القرابى وقواعد الميراث على انتاجية الارض ، والمشكلات المتعلقة بالصناعة والتى تتضمن اعتبارات العمالة المتدفقة من القرى البعيدة، ومشكلات النساء والاطفال الذين يتركون فى القرى خلف هؤلاء العمال ، وكذا التجمعات التى يكونها العمال فى مراكز الانتاج ، والانماط المعقدة لتوزيع الاجور كما ساهم الانثروبولوجيون ايضا فى حل المشكلات المتعلقة بالتسويق ، العلاج ، والديون، وتكوين رؤوس الأموال ، ومشكلات اتمام الزواج [2].

واضافت الانثروبولوجيا التطبيقية بعد الحرب العالمية الثانية كثيرا من المعرفة حول اسباب رفض المجتمعات المحلية اليابانية اعادة انشائها فى مراكز

---

(1) Firth, R., Human Types, Sphere Books. LTD. 1970. p. 166.

(2) Ibid. p. 167

جديدة وكذا المقاومة التى ابداها اليابانيون للعمل فى المعسكرات الامريكية بأجور بعيدا عن محل اقامتهم الاصلية واشترك الانثروبولوجيون في كثير من الدراسات الاجتماعية والاقتصادية في انحاء متفرقة من العالم وقد برهنوا على أهمية دراسة ومعرفة سلوك الناس باعتباره جزء من نسق اجتماعى معقد وليس استجابة بسيطة من الافراد كما قاموا بتحليل العلاقات الاجتماعية داخل المجتمعات الغربية نفسها فى مجال الصناعة ، والطب وأعطوا أهمية خاصة للابنية غير الرسمية التى كان يستهان بها .

واختلف دور الانثروبولوجى الآن عن دوره قديما ، فهو يقدم مقترحات أكثر من حلول للمشكلات التى يواجهها أو على حد قول فيرث نفسه «يقدم الشرعية اللازمة للمفاصلات» [1] وهذا يدل على انه ليس من المطلوب ان يضع الانثروبولوجى الاجابات للاسئلة الصعبة التى يواجهها أصحاب القرار والتنفيذيون وانما عليه ان يضع التحليل الموضح لأسباب المشكلات وكيف يتم المواءمة المناسبة التى تخفف من الضغوط الكثيرة [2].

وقد اشار فيرث الى قضية هامة وهى الاعتقاد فى قيمة المعرفة الانسانية كهدف نهائى في حد ذاته ، واهتمام الانثروبولوجيين بتحقيق هذا الهدف انما مبعثه الى تصحيح التعميمات وفى شرح التعقيدات الخاصة بالسلوك الانسانى وقد يرى البعض ان العلم يحقق ذاته عن طريق نتائجه العملية أى الاهتمام بالحلول الخاصة بالمشكلات التى تواجه الادارة ، والتعليم ، أو تحقيق الرفاهية التامة للانسان [3] .

وناقش فيرث قضية هامة وهى هل يجب ان توجه الدراسات الانثروبولوجية

(1) Ibid, p. 167.
(2) Ibid, p. 169.
(3) Ibid., p., 170.

وفق اهداف عملية؟ اننا كأنثروبولوجيين يمكننا ان نقوم بأبحاث لها اهداف عملية ولكن دون ان نخضع لأى ضغط يوجهنا فى عملنا ويكون هدفنا الواضح هو : التشخيص والتنبؤ بالنسبة للمشكلات ووظيفتنا ان نستخدم النتائج التى توصلنا اليها من التحليل لتجديد موقفنا الواضح . واذا كنا نطالب الانثروبولوجى في ان يكون متحررا من القيم السائدة فى مجتمع الدراسة ، فانه لا يعنى الا يكون للانثروبولوجى نفسه قيما وانما المقصود به أنه لديه الحرية فى الفصل بعيدا عن الحكم بما يجب ان يكون أو ان يتم [1] .

وإذا كان الانثروبولوجيون لا يملكون الحلول الحاسمة لكل المشكلات الصعبة التى يواجهونها فأنهم يدركون الحقائق حول البناء والتنظيم وقيم المجتمع ويساعدون اى شخص يريد ان يحدث تغييرا فى المجتمع . وانهم يشعرون بانتمائهم الى تخصص له قيمه حقيقية فى فهم وتوجيه الشئون المتعلقة بالانسان [2].

وقد ظهر بوضوح اثر مساهمة الانثروبولوجيين فى الجهات الحكومية الامريكية منذ عام ١٩٣٤ عندما عملوا فى المكتب الخاص بشئون الهنود مما ساعد فى ظهور الانثروبولوجيا التطبيقية، فقد قاموا بدراسة النظم السياسية عند الهنود الحمر ، كما اشتركوا ايضا كمستشارين فنيين فى ادارة الزراعة وذلك من اجل تحسين طرق الزراعة . واقتحموا ميادين جديدة حيث عمل بعضهم فى بعض الشركات الصناعية ، كالشركة الغربية الكهربائية فى شيكاجو واثبتوا أهمية تنمية نمط العلاقات الاجتماعية وتأثيره على كفاءة ورفاهية العمال.

وفى سنة ١٩٤١ انشئت الجمعية الانثروبولوجية التطبيقية وقامت باصدار مجلة بأسم الانثروبولوجية التطبيقية، ثم تغير الاسم منذ سنة ١٩٤٩ إلى

---

(1) Ibid., p. 172.
(2) Ibid., p. 173.

«التنظيم الانسانى» وقد حددت الجمعية الانثروبولوجية أهدافها فى تقدم البحث العلمى الخاص بمبادىء توجيه العلاقات الانسانية ، وتشجيع نشر هذه المبادىء لكى تستطيع حل المشكلات العملية، وكان لها ثلاث ميادين من الاهتمام هى :

(١) الصحة العقلية والنفسية ، (٢) ورشة التنظيمات الصناعية ، (٣) العلاقة بين التطور الاقتصادى والتغير الاجتماعى ، وأسست الجمعية فى سنة ١٩٥١ فيما بعد مجلة بأسم «التطور الاقتصادى والتغير الاجتماعى» .

وخلال الحرب العالمية الثانية ساهم الانثروبولوجين من الامريكيون فى مجال اعادة توطين الشعب اليابانى في مناطق جديدة كما قاموا بدور تعليم للقوات العسكرية يتعلق بشرح ثقافة الشعب في المناطق المحتله حتى يستطيعوا ان يخلقوا فرص التعاون بينهم وبين الوطنيين فى مجال الأعمال المختلفة، كما عمل الانثروبولوجيون الامريكيون كمراسلين واشتركوا فى اعداد برامج تدريبية للضباط المنضمين الى القوات العسكرية لتعريفهم ببعض الواجبات الادارية وكيفية إدارة بعض الجزر كجزر الباسفيك . كما ساعدوا فى تنفيذ المشروعات وتقديم النصيحة وتفسير البرامج للسكان الوطنين ومن أهم المشروعات تحسين الصحة، السياسات الخاصة بالعمل ، والتعليم ، والتشريع واجراء التقاضى كما قاموا بالبحوث الاساسية التى كانت تعتمد على نصائحهم [١] .

وبعد نهاية الحرب العالمية الثانية وتم تصفية الحكم الاستعمارى فى كثير من المناطق من العالم ، حدث تغير كبير فى مجال الانثروبولوجيا التطبيقية فأهتمت بالتنمية الاقتصادية فى الدول النامية . وقد اعتنق الانثروبولوجيون مبدأ التغير التدريجى وضرورة المحافظة على النظم الوطنية فى العالم ، وشاركوا

(1) Lncy Mair : (Applied Anthropology) in I. E.S.S. Vol, 2 p. 328.

فى حل المشكلات الناجمة عن زيادة السكان وانخفاض الانتاج وقلة الموارد كما اشتركوا فى كثير من المشروعات التكنولوجية فى الولايات الامريكية ، ومع منظمات الأمم المتحدة كمنظمة الصحة العالمية ، والعون الزراعى وتنمية المجتمع وايضا فى مجال الجمعيات الطبية [1] .

بعض مجالات الانثروبولوجيا التطبيقية :

لقد كان أثر احداث تغير فى اتجاهات استخدام الانثروبولوجيا وتطبيقها بعد الحرب العالمية الثانية ان قام الانثروبولوجيون أنفسهم ببحث وتفسير الدور الذى يقومون به وهم لم يترددوا قط فى أن يتحملوا المسئولية لتحقيق مجتمع أفضل ومثالى لحياة الانسان .

وقد أثيرت تساؤلات كثيرة عن دور الانثروبولوجين فى مشروعات التنمية وهل يقتصر دورهم على تقديم الحقائق التى يعرفونها للسلطات الادارية التى تتعامل مع هذه الحقائق التى تريدها ؟ وقد انقسم الانثروبولوجيون أنفسهم إلى فئتين ، فئة ترى أن دورهم مجرد العمل النظرى للانثروبولوجيا ، وعدم التركيز على المشكلات الادارية وتفسير بعض الحقائق اما الفعل نفسه فيقوم به ويحققه متخصصون آخرون ، اما الفئة الثانية فترى انه يجب على الانثروبولوجى أن يضع بنفسه السياسات وان يقدم التوصيات ويتمشى هذا الاتجاه مع القانون الاساسى للجمعية الامريكية للانثروبولوجية التطبيقية والتى ينص على « يلتزم الانثروبولوجى بتقديم معرفته العلمية ومهاراته من أجل تحقيق رفاهية المواطنين عن طريق انشاء فهم واضح ومتبادل بينه وبينهم » .

ومهما يكن الامر فان هدف الانثروبولوجيا التطبيقية هى رفع مستوى

(1) Ibid., p. 328.

المعيشة ونشر الرفاهية وتقديم النصح من أجل تحقيق مشروعات التنمية التى تعود بالنفع على الانسان .

وسنتناول فى هذا الفصل أهم المجالات التى ساهمت فيها الانثروبولوجيا التطبيقية وهى مجال الادارة Administration ، ومجال التنمية Development ومجال الطب Medicine وفى رأينا أن هذه بعض الامثلة التى تعطى لتوضيح أهمية الدور الذى تقوم به الانثروبولوجية التطبيقية فى الوقت الحاضر وتتفق الادارة فى الهدف مع الانثروبولوجيا التطبيقية فى تحقيق ازدهار المواطن ورفاهيته ، وهذه حقيقة يمكن ملاحظتها فى المجالات المختلفة للادارة، سواء كان ادارة أعمال فى الشركات والمصالح الحكومية ، أو الادارة المدرسية ، أو لدى جماعة الصفوة السياسية وصانعى القرار انفسهم ، وفى حالات كثيرة تكون الاهداف ليست واضحة بدرجة كافية ويجب تفسيرها وهنا يستعين الادارى بالانثروبولوجى كما يجب فى رجل الادارة من اجل انجاز سياساته لمعرفة لحل ومواجهة الصعوبات التى تعترض مهمته المعقدة ودراسة الانثروبولوجية ستفيده ما دام يهتم بالمجتمع .

ورجل الادارة الناجح كالطبيب الناجح الذى يطبق المعلومات العامة التى حصل عليها من اجل تحقيق هدف خاص ، ويستطيع ان يتعاون مع الانثروبولوجى الذى يمده بالمعلومات الموضوعية ، وقد يحدث بعد تدريب أن يستطيع الادارى نفسه الحصول على المعرفة الانثروبولوجية [1] كما يمكن للانثروبولوجى بعد تدريب ان يصبح اداريا ناجحا وهذا يعنى أن شخصا واحدا يستطيع القيام بالدورين . وهناك ثلاثة اتجاهات يمكن ان يستفيد منها رجل الادارة من الانثروبولوجيا.

(1) Sol, TAX. "Anthropology and Adminstration in Reading": In Anthropology ed Hoebelandothess - Mc-grew Hill N.Y 1955, pp. 389 - 390.

أولا : يقوم الاداري بانتقاء واختيار بعض التراث الانثروبولوجي بالشعب الذي يضع له السياسة العامة ولكن هذه الطريقة ليست كافية نظراً لأن المادة الانثروبولوجية المنشورة في العادة غير كافية للادارين ، كما وان الاداري غير المدرب في ميادين الانثروبولوجيا قد يفشل في الاطلاع على التراث الانثروبولوجي حقيقة قد يعرف بعض الحقائق عن الناس ولكنه لا يستطيع ان يصل في ذلك الى العالم المتخصص في الانثروبولوجيا ، فالانثروبولوجي له فهم خاص للانسان ، للثقافة وللمجتمع ويستطيع ان يحس بالتكامل بينهم بينما الاداري ينظر اليها باعتبارها ظواهر منفصلة وقد لا يستطيع التوصل الى التفسير المناسب ، وعلى أحسن الظروف فان الاداري يطبق في عمله مادة ومعلومات عن الثقافة التي يتعامل معها ولا يستطيع ان يصل الى التعميمات الانثروبولوجية المتقدمه .

ثانيا : قد يحصل رجل الادارة على تدريب في الانثروبولوجيا وهذا النموذج كان شائعا وقت الحرب ولكنه يفضل على استخدام الانثروبولوجيين أنفسهم كمستشارين للاداريين فقد حقق ذلك نجاحا كبيرا وفي حالة استخدام الانثروبولوجي كمستشار فانه يعالج بذكائه في وضع حلول للمشكلات الاجتماعية وأي بحث سيقوم به فانه سيكون بحثا علميا بمعنى أنه ساهم في تنمية النظرية العلمية ، وضرورة أنه يهم الاداري ، والانثروبولوجي دورهما وان يعملا متعاونيين أي تدخل من الاداري في عمل الانثروبولوجي حتى يكتب لهذا التعاون النجاح .

ثالثا : قد يظن الاداري الذي نال تدريبا أنثروبولوجيا خطأ أنه اصبح انثروبولوجيا ونجد نفس الحالة بالنسبة للانثروبولوجي الذي يحصل على تدريب في الادارة .

ومن وجهة نظر Sol Tax يجب على الاداري ان يحصل على كم وفير من الانثروبولوجيا كعلم وان يتعرف على المناهج الرئيسية والنظرية وعليه أن يقرر

بنفسه رغم حصوله على هذه المعرفة التى قد تستمر الى سنة أو سنتين بأنه لم يصبح بعد أنثروبولوجيا [١] .

لأن الانثروبولوجى بخبرته الطويلة يستطيع أن يتنبأ بما سيحدث للعلاقات الاجتماعية بين الناس وتأثير استخدام وسائل وطرق جديدة على علاقاتهم ويترك للادارى امر اتخاذ القرار وباختصار فان الادارى يتاح له ما يمكن أن نسميه الهندسة الانثروبولوجية Anthropological Engineering التى تقوم على أسس علمية وتحقق نتائج عملية وتستخدم المناهج الكمية فى التحليل [٢] .

وفى رأينا أن تطبيق الانثروبولوجيا واستخداماتها فى التعرف على حاجات الافراد والجماعات والمجتمعات المحلية تساعد وتتخذ القرار فى الوصول الى قرارات سليمة تفيد فى احداث التغيير الذى يتمشى مع التغييرات التكنولوجيا ويلعب الانثروبولوجى دورا هاما فى هذا المجال ولم يعد دوره مجرد دعوته لابداء الرأى فى بعض المشكلات بعد تفاقمها.

والمجال الثانى للانثروبولوجيا التطبيقية هو التنمية ، وتنمية المجتمع عملية يقصد بها تهيئة عوامل التقدم الاجتماعى والاقتصادى للمجتمع عن طريق مساهمة أفراده وجماعاته واستغلال امكانياته ، وهذه العملية ليست عملية حديثة فى نوعها فمنذ زمن بعيد تعاون افراد المجتمعات المحلية فى مواجهة احتياجات مجتمعاتهم فكثيرا ما تعاون ابناء القرية الواحدة فى بناء السدود لمواجهة الفيضانات أو حفر الابار او الترع او المصاريف او إنشاء دور العبادة والمدارس والامثلة على ذلك كثيرة ومن بلدان شتى فى الهند وباكستان ومصر الاهالى فى أغلب بقاع العالم يساهمون فى تحديد مشاكلهم واحتياجاتهم ويعملون متعاونين على تنمية مجتمعاتهم .

---

(1) Ibid., p. 391.
(2) E., "Anthropological Engineering Its use to Adminstration", in Keadings in Anthropology, p. 349.

وتعرف الأمم المتحدة تنمية المجتمع بانها تدعم المجهودات الاهلية للمجتمع المحلى وربطها بالمجهودات الحكومية وذلك لتحسين الحالة الاقتصادية والاجتماعية والحضارية لهذا المجتمع على ان تكون خطط الاصلاح بهذه المجتمعات المحلية متمشية ومنسجمة مع خطط الاصلاح العامة للدولة وامداد للمعنى الاساسى لهذا التعريف يعرف الدكتور صلاح العبد التنمية الاجتماعية بأنها :

«عملية تعبئة وتنظيم جهود افراد المجتمع وجماعاته وتوجيهها للعمل المشترك مع الهيئات الحكومية باساليب ديمقر اطية لحل مشاكل المجتمع ورفع مستوى ابنائه اجتماعيا واقتصاديا وثقافيا ومقابلة احتياجاتهم بالانتفاع الكامل بكافة الموارد الطبيعية والبشرية والفنية والمالية المتاحة [١] .

والهدف من برامج التنمية الاجتماعية والاقتصادية فى اوسع معانيها هو تحسين الظروف الاقتصادية والاجتماعية والصحية والثقافية للمجتمعات ولا يمكن أن يتم ذلك دون تخطيط شامل متكامل مبني على الحقائق والوقائع وعلى الدراسة العلمية الموضوعة وهنا يظهر الدور الذي يقوم به المتخصص في الانثروبولوجيا سواء القيام بإعداد الدراسات والوصول إلى المناطق وتوضيحها واستشارة الناس أنفسهم لبرامج التنمية ، ومما لا شك فيه أن نجاح برامج التنمية يزداد احتمالاته في تحقيق الأهداف إذا شارك الناس أنفسهم وعلى نطاق واسع في تحديد الأهداف وفي التخطيط لها وفي تنفيذها ، وفي تقديمها بمختلف صور المشاركة وتتعدد المصطلحات التي تستخدم لتأكيد هذه المشاركة وللدلاله على طبيعتها وأشكالها فالنهوض بالمجتمع المحلي يتضمن المشاركة في الجهود الهادفة لتحسين مستوى حياة الناس ، بل قد تكون المبادأة من جانبهم[٢] .

---

(١) صلاح العبد «الاتجاه التكاملى للتنمية الريفية بأفريقيا» المركز الدولي للتعليم الوظيفي للكبار والعالم العربي ص ٨٨ - ١٩٧٤ .

(٢) إبراهيم أبو لغد، ولويس كامل مليكة، أثر التدريب في تغيير الاتجاه دراسة تجريبية - مركز التربية الأساسية للعالم العربي ١٩٥٩ - ٦٠

والواقع أن هناك عديداً من التطورات لمفهوم التنمية ولكنها تجمع في النهاية على نتائج عامة واحدة تقريباً فالنتيجة ترتبط بالتحديث الذي يحقق أفضل ظروف إنسانية لأفراد المجتمع وهي تتمثل في إيجاد فرص الحياة وتحقيق المساواة في هذه الفرص ومهما تعددت الزوايا التي ينظر بها البعض إلى قضية التنمية ومفهومها فإنها تعمل على الارتفاع المنظم لإنتاج عمل العاملين وزيادة المنتجات وتوفير رفاهية متزايدة من خلال تغيرات تتناول بالضرورة أوضاع الإنتاج الاجتماعي والتصدي لأحداث إنتاج أرقى واستخدام وسائل أحدث وأكفأ مع السعي الجدي لتحقيق أشباع متزايد للحاجات على مستوى كل من الفرد والمجتمع وعلى أساس الاستفادة من فنون الإنتاج الحديثة والإمكانيات المتاحة للتعاون الدولي وهو مفهوم للتنمية يمكن إيجازه في زيادة إنتاج المجتمع وتوخي العدالة في توزيعه .

وبهذا المفهوم تكون التنمية عملية حضارية متكاملة تعني برفع كفاءة القوى المنتجة بما ينمي الثروة القومية ويولد الفائض الاقتصادي اللازم للتوسع المطرد في الاستثمار ، كما تعني التنمية بتوفير الخدمات الأساسية للأفراد المنتجة لتوفر لهم الشروط الموضوعة للوصول إلى مستوى التطور التكنولوجي المطلوب (١) .

وهناك أمثلة كثيرة توضح أن الأنثروبولوجيا قد لعبت دوراً محدداً وهاماً في برامج التنمية ، فقد ساهم الانثروبولوجيون في مشروعات محلية بتجاربهم وتعاونهم مع المتخصصين في العلوم الأخرى، كما قاموا بدور قيادي في كثير من برامج التنمية التي تناولت الجماعات العرقية المحلية ، وكذا المجتمعات القروية والدور الذي قام به المعهد القومي للمكسيك واضح تماما وقد اشترك

(١) صبري عزيز - التجربة الغربية في التنمية والتحديث - مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية ١٩٨٠ ص ٩.

الانثروبولوجيون في رسم البرامج وتنفيذها ومواجهة المشكلات الناجمة .

وهناك اعتراف بتطبيق الانثروبولوجيا ومبادئها في عمليات التنمية بوصفها عملية تضم النسق الاجتماعي والنسق الثقافي الكلي وهذا ما يتم مراعاته عند القيام بأن برامج قومية للتنمية وقد أسهم الانثروبولوجيون إسهاماً كبيراً في فهم مشكلات تقبل أو رفض التغيير كما شاركوا في عمليات التخطيط والتنفيذ والتقديم، ولقد تمكن الانثروبولوجيون من التطبيقين من اشتراكهم في كثير من المشروعات عن طريق تحديدهم للقيادات المحلية وتطويرها وإتاحة فرص التكيف داخل النظم الاجتماعية وتحديد عوامل مقاومة التغير والمساعدة في تنفيذ البرامج واكتشاف أسباب إخفاقها.

وقد شارك المؤلفان في دراسة لتنمية القرية المصرية وهي قرية أبي صير مع وزارة الشئون الاجتماعية ولم يقتصر دورهما على مجرد إبداء النصح في البرامج المعدة وإنما قاما بوضع البرامج بعد دراسة انثروبولوجية تم فيها اكتشاف الحاجات الأساسية والتعرف على التيارات المحلية بل واكتشاف قيادات لم تكن معروفة من قبل.

ويشير رالف بيلز وزملاؤه في كتابهم مقدمه فى الانثروبولوجيا مجموعة من التساؤلات الخاصة بالتنمية وأهميتها وهل التنمية تتمثل ببساطة في إتاحة الفرصة لاستغلال أفضل للموارد حتى يمكن مواجهة احتياجات مزيد من السكان أم يجب أن تركز التنمية على النهوض بنوعية أو طبيعة الحياة بالنسبة لعدد محدود من السكان؟ كيف يحدد الناس ما يعنونه بنوعية الحياة ؟

إن عمليات التنمية تتطلب مزيداً من الاستغلال الواسع والمركز للموارد الطبيعية كيف يمكن إحداث هذا التغير؟ وغيرها من التساؤلات الهامة في مجال

(1) Belas, R. & Hoijer H. & Beale A. an intruduction to Anthropology, Macmillan Publishing Co. Inc., N.Y . 1987 P. 658 .

الانثروبولوجيا التطبيقية وعلاقتها بالتنمية [١].

والمجال الثالث هو علاقة الانثروبولوجيا التطبيقية بالطب، فقد ساهم الانثروبولوجيون الاجتماعيون وبعض علماء الاجتماع في ميادين جديدة ، فهم يشتركون مع الأطباء في المؤتمرات الخاصة بالطب الاجتماعي ، كما يقومون بالتدريس في المعاهد الطبية ويعملون مع المتخصصين في مجال خدمات الصحة العامة، في بيرو وارسوا البناء الاجتماعي للمستشفي ، كما يقومون بمقابلة المرضى الذين يستعدون لاجراء جراحة ويشتركون أيضاً في العلاج النفسي وكثير من الأعمال التي يشترك فيها الانثروبولوجيون لم تنشر وقد قام Actentnecht (١٩٤٢ - ١٩٤٧) بكتابة أوراق ممتازة عن الطب البدائي كما ناقشت ميد ، وهنري ١٩٤٩ العلاقة بين الانثروبولوجيا والطب السيكوسوماتي وعرض هول Hal لتقدم البحوث الاجتماعية فى مجال الطب ، وتابعه كلوشن Clausen فى دراسة أهم البحوث الاجتماعية التى تساعد فى تحقيق برامج الصحة النفسية كما قامت مؤسسات حكومية وأخرى خاصة بدراسة الجوانب الاجتماعية للصحة والمرض وقد ظهر ذلك واضحا فى البرامج الاجتماعية السنوية للجمعيات الانثروبولوجية والاجتماعية [١] .

حقيقة فإن المرض يعد بشكل أو بآخر مشكلة اساسية وحيوية تواجه المجتمع وكل مجتمع انسانى معروف قد طور المناهج التى يقاوم بها المرض مما أدى إلى ظهور الطب الحديث وقد اشار معظم الانثروبولوجين فى نهاية القرن التاسع عشر

---

(1) Caudill W. :Anthropology in Medicin" in Anthropology today, ed. Krober, A., Chicago, 1953. p. 771

الى الطب او المرض فى كتاباتهم وإلى الممارسات العلاجية المختلفة ومن امثلة ذلك دراسة فيلد Field (١٩٣) لمجتمع الجا Ga ، ودراسة ايفانزبريتشارد (١٩٣٧) لمجتمع الازاندى Azande ودراسة هارلى ١٩٤١ لمجتمع المانو Mano الافريقى ودراسة وارنر (١٩٣٧) لدراسة المورنجية الاسترالية ودراسة اوبلر (١٩٣٦ ، ١٩٤١) لمجتمع الاباش ودراسة ردفيلد ١٩٤٠ للمايا فى امريكا الشمالية والامثلة غيرها كثيرة .

وأهمية هذه الدراسات انها تعطى مادة اثنوجرافية تتعلق بالطب البدائى مادة خاصة بالمفاهيم المعينة للمرض والممارسات العلاجية فى الوقت الذى كانت فيه مقصورة على دراسة المرض نفسه ولكنها مادة مفيدة للباحثين فى تطور الطب الحديث كما انها افادت الانثروبولوجيين انفسهم فى وضع بعض المبادىء الاساسية فى دراسة الانثروبولوجيا الطبية ومن هذه المبادىء (١) انه لا يوجد طب بدائي واحد وإنما توجد مجالات عديدة للطب البدائى ، (٢) يتأثر النمط الطبى في مجتمع من المجتمعات بثقافة هذا المجتمع (٣) هناك تكامل بين العوامل المختلفة التى تسبب المرض وبين الانماط الثقافية فى المجتمع [١] .

ويرجع نجاح الطب البدائى الى عوامل موضوعية كثيرة أهمها علاجه لبعض الامراض كالكسر وجراحة وعلاج الكسور واجراء بعض التطعيم ضد الجدرى ، وعلاج لدغة الثعبان ، واستخدام عقاقير كثيرة فى العلاج مثل الافيون والكينا ونباتات مختلفة فى العلاج.

كما وإن استخدام هذه الوسائل والادوات كان يتم فى العادة مصاحب للصلاة والأدعية والشعائر والرقصات الدينية وكلها لها تأثيراتها السيكولوجية والتى اوضحها اوبلر opler فى دراسته للاباش حيث اشار الى ان هناك تأثير نفسى

(1) Ibid., p. 772

قوى بين رجال الدين المعالجين وبين المرضى لا يرجع فحسب الى العلاقات الشخصية بين الطبيب وبين المريض ولكن من المشاركة المتكررة للمجتمع المحلى [1] .

وقد ساعدت هذه الدراسات على ظهور الانثروبولوجيا الطبية Medical Anthropology هذا المجال الجديد للانثروبولوجيا التطبيقية والذي ينمو بسرعة كعلم ويتمتع بجانبيه : الجانب التطبيقى ، والجانب النظرى حيث يلاحظ الانثروبولوجى فى كل وقت مريض يتغلب على المرض ، ويلاحظ عليه تغير اجتماعى فى فترة قصيرة من الزمن ، وهو يشارك فى عملية العلاج، فى العمل داخل العيادة ويشبه البعض الدور الذى يقوم به الانثروبولوجى بدور «الأنا» بالنسبة لعمليات العلاج النفسى لا يمكن الاستغناء عنه معرفتها أو اهمال دورها والا فشلنا فى العلاج [2] .

والانثروبولوجيا الطبية تضع نفسها فى خدمة علاج المرضى وتساعد فى مجالات طبية كثيرة، وقد اوضح سينجر Singer ان الانثروبولوجى المتخصص في الانثروبولوجيا الطبية يعانى فى حرصه على الموضوعية والحيادية معاناة المحلل النفسى داخل العيادة النفسية ، والاثنان يبذلان الجهد من اجل الحصول على المعلومات التى تساعد فى الكشف عن المرض والعلاج [3] .

ولا يمكن انكار ان المشكلات الاجتماعية لها تأثيرها على الانسان واحداث المرض فى سواء أكان جسمانيا او نفسيا فقد اشار احد مراكز الصحة النفسية فى فلادلفيا في الولايات المتحدة الامريكية الى ان العوامل الاجتماعية عوامل رئيسية مترسبه فى النفس [4]. ولا نستطيع ان ننكر قيمة المعرفة الانثروبولوجية

---

(1) Ibid., p. 773
(2) Ibid., p. 1
(3) Singer Ph. The Traditional Healing New Science or New Colonialism, Conch M.L.N.Y, 1977, p. 6.
(4) Ibid., pp. 8 - 9.

المركزة فى معرفة السلوك المرضى والسلوك الصحى والسؤال الذى يطرح نفسه هل المعرفة الثقافية تحدد اتجاهات تحسين الظروف الصحية للانسان ؟ من المؤكد ان تمتع الانسان بصحة طيبة يرجع الى ظروف اجتماعية واقتصادية تهيء الظروف الطبية كالتغذية ، والاسكان والمياه والصرف الصحى ... الخ .

واننا نتفق مع كروبر Kroeber الذى يرى ان التمتع بالصحة الجسمية والنفسية هدف اسمى للانسان يسعى اليه ويحقق تقدمه [1] وعندما نشخص المرض نفسه لابد ان نعتمد على العامل الثقافى ولا يمكن فهم المرض نفسه الا فى ضوء المحتوى الثقافى الذى يخضع لمجموعة الانساق الاجتماعية المختلفة وللوسط الاجتماعى وعلى ذلك فلا يمكن ان تطبق قوائم العلاج المستخدمة فى المجتمعات الغربية على المرضى فى الثقافات الاخرى وهذا يؤكد فكرة الانثروبولوجيين الطبيين ويحقق هدفهم فى تقديم العلاج الملائم ثقافيا [2] .

ونعطى مثالا على ذلك من نجاح وسائل الطب الشعبى فى كثير من. بلدان العالم والتى تعترف دول كثيرة به ، ففى الصين نجد الاطباء والحفاة Barafoot doctorsوهم يعدون جزءا هاما من النسق الطبي الذى يخضع للاشراف والتوجيه الحكومى ويتم فى ضوء فلسفة المحافظة على العلاج الشعبى [3] وفى سيرلانكا يوجد اكثر من عشرة آلاف ممارس للطب الشعبى مسجلة اسمائهم لدى السلطات الصحية وهذا يدل على ان الطب الشعبى يندمج مع نظام للخدمات الصحية ويغطى ما يقرب من ٧٠٪ من احتياجات الناس للخدمات الصحية ، وفى الهند

---

(1) Kroeber, A. Anthropology - Haecourt , Brace and Co., N. y., 1988, pp. 296 - 304.
(2) Op.cit., p. 24.
(3) Ibid, p. 254.

حوالى ٥٠٠ر٠٠٠ ممارسا للطب الشعبى ، ويحصل جميع العاملين فى الحقل الصحى على دراسات مركزه فى مجال الطب الشعبى من خلال ١٠٨ كلية ومركز صحى تهتم بالمطببين الشعبيين وتمنحهم التراخيص الخاصة بمزاولة المهنة [١] .

وقد نبهت الدراسات الانثروبولوجية الطبية على أهمية بعض الأعشاب ومواد العطارة المستخدمة فى العلاج لكثير من الأمراض المستعصية التى يعجز عن شفائها الطب الحديث . نظرا لاحتوائها على مواد غنية بالاملاح والفيتامينات والمواد الغذائية التى تساعد على بناء الخلية فى الجسم الانسانى وتحقق الشفاء وتمنع المرض وقد يبدو للوهلة الأولى ان الاعشاب والعطارة عاجزة عن القضاء على الآلام كما تفعل بعض حبوب الدواء بسرعة، ولكنها لها تأثيرها البعيد في الجسم الإنسانى ، ولها تأثيرها المطهر، كما ان لها استخدامها المختلفة [٢] .

(1) World Health Organzation : The Promition and develompent of traditional Medicine Report of a WHO meeting 1978. p. 11.
(2) Lambo J.O. "The impact of Colonialism on African Cultural Herit-ge with special Refenence to the practice of Herbalicn in Nigeria, In Traditional Healing, p. 133.

العلاقة بين الانثروبولوجيا التطبيقية والخدمة الاجتماعية

مقدمه :

تلعب العلوم الانسانية والاجتماعية دورا هاما فى الحياة الاجتماعية والثقافية، وإن لهذه العلوم تأثيراتها المختلفة فى كل العلوم والمهن التى تتعامل مع الانسان (الفرد ، والجماعة، والمجتمع).

وفى هذه الدراسة نعرض لأحد فروع علم الانسان (الانثروبولوجيا) الهام، هذا الفرع هو الانثروبولوجيا التطبيقية التى تهتم اهتماما وثيقا بحل المشكلات المجتمعية الكبرى فى حياة الإنسان بحيث توفر له ولمجتمعه المحلى الرفاهية التى هى هدف من أهداف العلوم الإنسانية والاجتماعية والمهن المختلفة كالخدمة الاجتماعية .

حقيقة إن التخصص الدقيق لي هو الانثروبولوجيا التى أستطيع أن أتناولها فى هذه الدراسة بكل تفصيل إلا أننى بحكم دراستى الجامعية الأولى وهى الخدمة الاجتماعية حيث حصلت على بكالوريوس الخدمة الاجتماعية عام ١٩٦١ بعد ان تتلمذت لمدة أربع سنوات على جيل من الاساتذة الأفاضل ثم كان تعيينى معيدا فى المعهد العالى للخدمة الاجتماعية بالاسكندرية لمدة عام من يونيو ١٩٦١ وحتى مايو ١٩٦٢ قد أفادنى كثيرا حيث كنت مسئولا عن تدريب مجموعات من الطلاب فى مجالات الخدمة الاجتماعية، كما أن علاقتى بكثير من الزملاء من خريجى الخدمة الاجتماعية وأساتذتها استمرت حتى الآن فى شكل لقاءات منتظمة لتبادل الاراء . ودعم تحملى مع بعض الزملاء من الخدمة الاجتماعية مسئولية العمل النقابى لنقابة المهن الاجتماعية بالاسكندرية فضلا عن أمانة لجنة الفكر والمؤتمرات والبحوث كل هذه العوامل جعلتنى على صلة بما يكتب عن الخدمة الاجتماعية وممارساتها الكثيرة الأمر الذى دعانى إلى الاهتمام بالجوانب التطبيقية لكثير من العلوم الانسانية والاجتماعية ومنها علم الإنسان التطبيقى

(الانثروبولوجيا التطبيقية) حيث أصدرت الهيئة المصرية العامة للكتاب أول دراسة لى بعنوان «دراسات فى الانثروبولوجيا التطبيقية» «بالاشتراك» وذلك عام ١٩٨٢م وعند نفاذ هذه الطبعة قامت مؤسسة دار المعرفة الجامعية بإعادة نشره عام ١٩٨٩م .

وفى دراستنا الحالية «الانثروبولوجيا التطبيقية وممارسة الخدمة الاجتماعية» محاولة متواضعة لتوضيح أوجه التشابه والاختلاف بين الانثروبولوجيا التطبيقية وممارسات الخدمة الاجتماعية. وفى هذه الدراسة نتناول الموضوعات الرئيسية التالية :

أولا : الانثروبولوجيا التطبيقية .

ثانيا : الخدمة الاجماعية وممارساتها المختلفة .

ثالثا : أوجه التشابه والاختلاف بين الانثروبولوجيا التطبيقية والخدمة الاجتماعية .

رابعا : أهم نتائج الدراسة.

خامسا : ثبت بهوامش الدراسة ومراجعها مرتب حسب وردها فى الدراسة.

* * *

أولا : الانثروبولوجيا التطبيقية .

أصبح بالإمكان توظيف المعرفة الانثروبولوجية فى الأغراض العملية المتمث فى حل مشكلات الإنسان منذ أن بدأ علم الانثروبولوجيا فى الظهور وذلك نظراً لأن الفرع التطبيقى من. هذا العلم يتعلق بالرفاهية الانسانية كما تتضمن فكرة القيام ببحوث لا تنطوى على قيمة عملية واضحة فحسب بل يجب أن تثبت فائدتها وإسهامها للرفاهية الانسانية سواء الآن أو فى أي وقت في المستقبل.

إن معظم المشكلات الانسانية تتضمن تغيرات في السلوك والاتجاهات والنظم والعلاقات ومن ثم أصبح موضوع التثقف ودراسات الاتصال الثقافى لا تنطوى فقط على إمكانية فائدتها بل إن كثيرا من المواقف التطبيقية تسمح بتحكم أدق فى عوامل التغير كما تسمح بتطوير اتجاه الاختبار المعملى للفروض والنظريات . وتتضمن الانثروبولوجيا التطبيقية معالجة مشكلات الانسان وتتناول هذا الانسان من أجل تحقيق أهداف معينة وهذا لا يعنى أن جميع الانثروبولوجيين يعلنون موافقتهم على وجود فرع للأنثروبولوجيا التطبيقية [1] .

ويرجع اهتمام بعض الانثروبولوجيين بالجوانب التطبيقية منذ الحرب العالمية الثانية ويعد الموضوع الرئيسى من موضوعات الانثروبولوجيا التطبيقية موضوع البحوث التى تقوم بها إما منظمات عامة أو منظمات خاصة تهدف من ورائها تحقيق أهداف عملية. وبالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية نجد أن هذه المؤسسات أما أن تكون على المستوى الفيدرالى أو على المستوى المحلى أو مكاتب دولية والأمثلة على ذلك كثيرة نذكر منها : الإدارة الزراعية الأمريكية ، إدارة الدفاع، البنك القومى ، منظمات التنمية الدولية، مكاتب الشئون الهندسية، البنك الدولى، منظمة الصحة العاملية، منظمة التغذية والزراعة ، إدارة التخطيط التعليمى، المستشفيات المحلية، وذلك فضلا عن منظمات خاصة تنفذ أهدافا

عملية وتوجه البحوث الانثروبولوجية فى مجال التعاون الصناعى وأيضا فى مجال التخطيط السكانى وغيرها [1] .

نستنتج أن الانثروبولوجيا التطبيقية أحد فروع الانثروبولوجيا الهامة التى تهدف إلى الاستعانة بالدراسات الانثروبولوجيا النظرية فى ضبط التغير الاجتماعى وتوجيهه فى كثير من المجتمعات الانسانية. ويجدر الاشارة إلى وجود فروق بين الانثروبولوجيا التطبيقية وفروع الانثروبولوجيا الأخرى نجملها فيما يلى:

١ - أن الانثروبولوجيا التطبيقية تدرس الثقافات المعاصرة حاليا وكذا الشعوب الحاليين بمعنى أن المادة التى يجمعها الأنثروبولوجى التطبيقى لا يبحث عنها فى الوثائق التاريخية أو يستقيها من ذاكرة كبار السن وهذا لا يعنى إهمال التاريخ الذى يقدم مقترحات للبحث التطبيقى إلا أنه لا يتناول كيفية مواجهة الجماعات المختلفة للمشكلات الاجتماعية .

٢ - تهتم الانثروبولوجيا التطبيقية بالقيام بالبحوث التي تعالج المشكلات والتى تنبع من حاجات أساسية لدى أعضاء المجتمعات المختلفة.

٣ - الانثروبولوجيا التطبيقية تبحث وتستخدم نفس الأساليب والمناهج العلمية للانثروبولوجيا إلا أنها تتخطى حدود علم الانثروبولوجيا وقد تستعين بالعلوم الانسانية الاخرى فى حل المشكلات التى تواجه الإنسان [٣] .

ويحدد مارفن هارسMarvin Harris ثلاثة صفات هامة يمكن أن يستمدها الانثروبولوجى التطبيقى من فروع الانثروبولوجيا المختلفة وهى :

أ - البعد عن التحيز للثقافة الغربية أو أن يتمركز نحو العلاقات الإثنية والعرقية .

ب - الاهتمام بالأنساق الاجتماعية والثقافية الكلية.

جـ - الاهتمام بالسلوك العادى والاحداث العادية للمواطنين اهتمامه بالحياة القائمة على أسس عقلية [٤] .

وهناك تعريفات كثيرة للانثروبولوجيا التطبيقية نشير إلى أربعة منها وهى:

التعريف الاول : تعريف وضعه اليوت شسابيل Eliot Chapple حيث يعرف الانثروبولوجيا التطبيقية بأنها «فرع من الانثروبولوجيا يهتم بوصف التغيرات فى العلاقات الانسانية وفى فصل المباديء التى تضبط هذه العلاقات كما تتضمن اختيار لهذه العوامل التى تحدد امكانية احداث التغير فى التنظيم السياسى» [٥].

التعريف الثانى : تعريف وضعته لوسى مير Lucy Mair وترى «أن ميدان الانثروبولوجيا التطبيقية أصبح من الميادين الهامة للناس لأنها تساعدهم فى اتخاذ القرارات الاجتماعية وفى معرفة المعلومات عن السكان والتعرف على العادات والتقاليد المختلفة للشعوب [٦] .

التعريف الثالث : يعرفها حسن شحاته سعفان «بأنها العلم الذى يبين كيف يمكن الاستفادة من. علوم الانثروبولوجيا النظرية فى إدارة المجتمعات البدائية وتربيتها والنهوض بها وتطويرها وفى النهوض بوسائل رفاهيتها الاجتماعية فهو مثلا يشترك فى وضع خطة للتعليم العام فى مثل تلك المجتمعات أو خطة لتهيئة مجتمع ما للحكم الذاتى وكذلك الخطط الاقتصادية ... إلى غير ذلك [٧] .

التعريف الرابع : يرى أحمد أبو زيد أن الانثروبولوجيا التطبيقية فرع متخصص من الانثروبولوجيا العامة يهدف إلى الاستعانة من الدراسات الانثروبولوجيا النظرية فى ضبط التغير الاجتماعى وتوجيهه فى المجتمعات البدائية والتقليدية. وإن هذا المصطلح حديث نسبيا استعمله لأول مرة راد كليف بروان فى مقال له بعنوان الانثروبولوجيا التطبيقية عام ١٩٣٠ وكان اللفظ الشائع الانثروبولوجيا العملية Practical Anthropology . أما عن

أسباب ظهور هذا النوع من علم الانسان فيرجع إلى رغبة بعض الحكومات الاستعمارية فى حكم الشعوب والقبائل الخاضعة لها بطريقة لا تتعارض مع القيم التقليدية المتوارثة، وكانت بريطانيا أول دولة استعمارية استعانت بالانثروبوولوجيين فى دراسة الانسان الاجتماعية والنظم والقيم السائدة فى مستعمزاتها فى فترة ما بين الحربين للتعرف على أفضل الطرق والوسائل لتوجيه خططها ووضع مشروعاتها الخاصة لاستغلال الثروة القومية لهذه المستعمرات وقد زاد اهتمام المسئولين عند وضع سياسات التنمية والتخطيط فى كثير من المجتمعات النامية فى السنوات الاخيرة بالانثروبولوجيا التطبيقية نتيجة لازدياد الاقتناع بأن مشكلات التنمية ليست مشكلات اقتصادية او تكنولوجية فحسب وإنما هى فى جوهرها مشكلات اجتماعية واغفال النواحى الاجتماعية كثيرا ما يؤدى إلى اخفاق هذه المشروعات وفى وسع الانثروبولوجيين أن يبصروا أفراد المجتمع بما لهذه المشروعات من مزايا[٨] .

وقد حاولت حكومة الولايات المتحدة من الاستفادة من الانثروبولوجيين وتم ذلك بواسطة مكتب الشئون الهندية ووزارة الزراعة وهيئة صيانة التربة ثم ظهرت بعد ذلك هيئة مستقلة وكان معظم علماء الانثروبولوجيا العاملين يهتمون باجراء دراسات وصفية تكشف عن ظروف الجماعات الاجتماعية المختلفة أو أسباب مواجهة البرامج التى تنفذها هذه الهيئات والمشكلات التى تواجهها ولم يكن للانثروبولوجين تأثير فى وضع السياسات وفى تحديد طبيعة هذه البحوث التى يجب القيام بها والفائدة التى يمكن تحقيقها من نتائج هذه البحوث.

كما اشترك الانثروبولوجيون مع غيرهم فى دراسات هاوثورن التى كانت تجرى على مصنع تابع لشركة وسترن اليكتريك فضلا عن دراسات أخرى تناولت العلاقات الصناعية وتنظيم المؤسسات كالمستشفيات ومعامل البحوث وقد أدت هذه الدراسات إلى تأسيس جمعية الانثروبولوجيا التطبيقية فى عام ١٩٤١ ويرى

أعضاء هذه الجمعية من. الانثروبولوجيين التطبقيين ضرورة الاستعانة بعلماء اخرين كما وأنهم ينظرون إلي المجتمع الذى يؤدى وظائفه بكفاءة علي أنه مؤلف من أفراد أو جماعات تعمل علي التكيف بعضها مع بعض بحيث يمكن اعتبار علاقاتها فيما بينها فى حالة توازن وعندما يختل التوازن بسبب تطورات داخلية أو بسبب مؤثرات خارجية فإن دور الانثروبولوجي التطبيقى هو إعادة حالة التوازن [٩].

ويعرض مارفن هارس لمجموعة من المشروعات التي تمت خارج الولايات المتحدة الامريكية وعمل فيها الانثروبولوجيون مستخدمون منهجهم الكلى Holistic ومن هذه المشروعات : التنظيم الإدارى واعتماده على وجهة النظر الشخصية لهؤلاء الذين يتولون أمور الإدارة رغم وجود وجهة نظر أخرى قائمة على العقل والموضوعية ورغم ذلك فإنهم يفضلون وجهة النظر الذاتية فى الوصول إلى حلول تتعلق بالإدارة .

كما نعطى مثالا آخر على ما يقدمه الانثروبولوجى التطبيقى للمرضى الذين يقومون بإجراء جراحات وهم من ثقافات مختلة ويواجهون أطباء ومتخصصين كثيرين وأجهزة غريبة عليهم لا يعرفون عنها شيئا وهذا ما جعل فوتسر G.Foster وبربارا اندرسون B. Anderson يرددان عبارتهما القائلة بأن «قواعد المستشفيات تكون ملائمة فقط وبالدرجة الأولى للهيئة الطبية بالمستشسفى ولها جوانب غير ملائمة وتأثير على الصحة وعلى شفاء المرضى [١٠] .

وكما أشار مارفن هارس إلى مشروعات زراعية مثل مشروع فيكوسVicos لمزرعة الهاسنداHacienda[١١]. والتى تولاها أحد الانثروبولوجيين التطبقيين وهو الن هولمبيرج Allen Holmberg واستطاع أن يطور هذه المزرعة باستخدام أساليب زراعية حديثة وفي تغيير طريقة عمل

المزارعين واعطائهم نماذج عملية يمكنهم الاستفادة منها . وأشار إلى مشروعات أخرى فى هايبتى حيث تم تحويل بعض الغابات الي أراضى زراعية، وأيضا مشروعات الثورة الخضراء فى المكسيك ومشروعات علاج الإدمان، ومشروعات القضاء على المشروبات الكحولية والخمور وغيرها من المشروعات التى تهتم بها الانثروبولوجيا التطبيقية [١١].

وقد حدد رالف بيلز وزميله هاري هويجز أن عالم الانثروبولوجيا يستطيع أن يتأكد من. أن أى مشروع يستهدف إحداث تغير تكنولوجى عليه :

١ - أن المشروع يتضمن مزايا واضحة يمكن أن يستوعبها الناس المعنيون فعلى سبيل المثال القمح المهجن الذى يدر محصولا كبيرا قد يبدو أنه يمثل مزايا واضحة للفلاحين المكسيكيين إلا أنه يجب شراء البذور وهو يعنى ضرورة توفير مبالغ نقدية وهو أمر مستحيل وعلاوة على ذلك يصعب استخدام القمح المهجن فى عمل الفطائر والكعك وهى دعامة طعام الفلاح فضلا عن أن القمح المهجن لا ينتج كمية وفيرة من الطعام الذى يمكن تناوله .

٢ - أن يتم تنفيذه من خلال القنوات السليمة، فإذا ما حدث تجاهل أو معاداة لنفوذ وهيبة القادة المحليين فاننا نتوقع منهم تنظيم معارضة ضد أى تجديد.

٣ - الافادة من الدوافع القائمة أو الوافع الجديدة التى يمكن بثها.

٤ - أن يصاحب المشروع تعليق أو توضيح كاف فالمخصبات التجارية قد تستخدم بكثرة بحيث لا تؤدى إلى نتيجة ملحوظة أو تؤدى إلى حرق المحصول.

تلك بعض التعميمات القليلة التى يمكن التوصل إليها ومع ذلك فإن أى أنثروبولوجى لا يستطيع أن يذكر على الفور أو حتى من. خلال دراسة تستغرق فترة قصيرة كيف يمكن مواجهة هذه الظروف بدقة ولا يمكن أن نكتشف على الفور

القادة الحقيقيين للمجتمع المحلى فقد يبدو الرئيس أو العمدة المنتخب وكأنه الشخص الذى يمكن التعامل معه وقد يكون كبار السن الذين يشكلون مجلسا غير رسمى أو أحد رجال الدين وهذا يعنى أن أى تغير تكنولوجى يتطلب تغيرات فى كثير من جوانب الثقافة (١٣) .

ودور الانثروبولوجى التطبيقى يتضمن القيام بالبحث الذى يهدف إلى تحقيق بعض النتائج العملية وأن تحقيق النتائج المرجوة تختلف من مجال ومن مشروع إلى آخر فقد يكون دور الانثروبولوجى التطبيقى هو مجرد التعامل مع المعلومات التى تم جمعها لمنظمة تنموية وذلك من. اجل اتخاذ قرارات مناسبة، وفى مجال آخر فإن الانثروبولوجي التطبيقى ربما يطلب منه تقديم برنامج من حيث الامكانات المتاحة أو وضع بعض التفاصيل عن خطط يمكن أن تحقق الأهداف المرجوة .

وقد يكون الانثروبولوجى مسئولا إما بمفرده أو مع فريق العمل عن التخطيط والتنفيذ والتقييم للخطط . وقد يتضمن التقييم مراحل كل مشروع منذ البداية إلى النهاية نظرا لتواجد الانثروبولوجى معه . وعندما يكون النثروبولوجى منوطا به تنفيذ المشروع فإننا نسميه ممارس الفعل الانثروبلوجي-Practicing anthropology ومما يجدر الاشارة إليه صعوبة تحديد البحث الذى يهدف إلى نتائج تطبيقية أو البحث الذى ليس له أهداف تطبيقية والقيام بأبحاث لها اهتمام نظرى مجرد من. أجل تحقيق أهداف متماسكة وقوية وقد يستفيد الانثروبولوجي من خلال النظرية المجردة نفسها فى جوانب تطبيقية إذا ما قدمت مجموعة من المبادىء التى يمكن ترجمتها فى شكل برامج عملية ما دامت هذه المبادىء ستحققق النجاح . ولا يمكن أن ننكر أن للأنثروبولوجى التطبيقى ايضا أهدافه النظرية التى يريد أن يحققها من خلال تجارب تطبيقية (١٤) . وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن هناك ارتباطا وثيقا بين الجوانب لنظرية لعلم الانسان

والجوانب التطبيقية فالنظرية تمد الانثروبولوجي التطبيقي بالمبادىء العامة التى يمكن تطبيقها فى مجتمعات وثقافات مختلفة مع مراعاة ظروف كل مجتمع وثقافته. كما وأن الانثروبولوجي التطبيقي الذى لديه الخبرات الكثيرة فى المجالات التطبيقية المختلفة يمكنه استنباط المبادىء العام من المجتمعات والثقافات المختلفة التى عمل معها ومن ثم إثرائه للجوانب النظرية فى الانثروبولوجيا .

ويمكن للانثرووبلوجي التطبيقي القيام ببعض الأعمال الرئسية التالية :

(١) عرض وتنظيم البيانات اللازمة لاتخاذ القرارات وهذه البيانات مستندة إلى المعلومات وتقديم بيانات جديدة قائمة على أساس إجراء البحوث إذا ما كان ذلك ممكنا وهنا يتعين أن يكون للانثروبولوجي دور أساسى فى السياسة بمعنى أن عملية تحديد البحوث المطلوبة وكيفية تنفيذها.

(٢) تقدير النتائج الاجتماعية المحتملة للقرارات البديلة ويجب توضيح أن هناك دائما بديلين على الأقل : التنفيذ أو عدم التنفيذ كذلك كان هناك بدائل للعمل ومن خلال التحليل الدقيق يمكن أيضا تحديد الأمور التى تساعد القرارات السياسية وأيضا تلك التى تؤدى إلى عرقلتها وتعطيلها .

(٣) أن يكون له الدور الاساسى إن لم يكن النهائى بالضرورة فيما يتعلق بتحديد الوسائل التى بها يتعين تنفيذ السياسيات ويجب أن تكون الكلمة النهائية فى صياغة مشروعات البحوث والمناهج المستخدمة فى اجرائها .

(٤) متابعة المشروعات أو البرامج فى ضوء الإهداف المقررة .

وأخيراً فإن علماء الانثروبولوجيا يتفقون تماما على أن مسئوليتهم الأولى هى تحقيق الرفاهية للشعوب التى يدروسنها [١٥]

وقد أشارت المدرسة البريطانية للانثروبولوجيا فيما كتبه ريموند فيرث

R.Firth إلى أن الانثروبولوجيا كعلم نظرى مثلها ككل العلوم الاخرى لها تطبيقاتها العملية فدراسة علم الفلك تستخدم فى تحسين الملاحة ودراسة علم الطبيعة تساعد في تحسين الهندسة واللاسلكى ، ودراسة الكيمياء تساعد فى مجال الصيدلة والطب وعلم الاحياء يفيد فى تحسين الزراعة كذلك فإن الانثروبولوجيات تساعد فى تطوير المجمعات المحلية المختلفة وفى معالجة الصعوبات التى تعترض العلاقات الاجتماعية وفي تصميم برامج الشئون الاجتماعية. وقد يختلف دور الانثروبولوجى الآن عن دوره في الماضى فهو يقدم مقترحات أكثر من مجرد تقديه لحلول المشكلات التى يواجهها وقد يضع التحليلات التى توضح أسباب المشكلات وكيفية المواءمة المناسبة التى تخفف الضغوط الكثيرة ويمكن أن توجه الدراسات الانثروبولوجية وفق أهداف عملية فتقوم بالأبحاث دون أ تخضع لأى ضغوط توجهنا فى عملنا ويكون هدفنا هو التشخيص والتنبؤ بالنسبة للمشكلات ووظيفتنا أن نستخدم النتائج التى توصلنا إليها من التحليل لتحديد موقفنا الواضح وإذا كنا نطالب الانثروبولوجى فى أن يكون له الحرية فى فصل واصدار الأحكام واذا ما كان الانثروبولوجيون لا يملكون الحلول الحاسمة لكل المشكلات الصعبة التى يواجهونها فإنهم يدركون الحقائق حول البناء والتنظيم وقيم المجتمع ويساعدون أى متخصص يريد أن يحدث تغييرا فى المجتمع وإنهم يشعرون بانتمائهم إلى تخصص له قيمة حقيقية فى فهم وتوجيه الأمور المتعلقة بالإنسان [١٦] .

واذا كان قد عرضنا لموقف الانثروبولوجيا التطبيقية فى مواجهة المشكلات الانسانية فى التراث الانثروبولوجى الغربى الامريكى والبريطانى ففى مصر محاولات أنثروبولوجية كثيرة وجادة فى المجال التطبيقى أشير إلى إحداها إشارة سريعة؛ فقد أتاحت لى وزارة الشئون الاجتماعية الاشتراك مع الزملاء بالقسم فى القيام بتنمية إحدى القرى المصرية وهى قرية إبى صير باستخدام المنهج الانثروبولوجى وأساليبه المختلفة والاستفادة من المجالات التطبيقية ولم

الغرض هو مجرد عرض نتائج دراسة حقلية تمت على هذه القرية بمعرفتنا وابداء النصح فى البرامج المعدة وإنما كان الهدف هو اكتشاف الحاجات الاساسية لمجتمع الدراسة والتعرف علي الامكانات المتاحة واكتشاف القيادات المحلية الجادة سواء أكانت قيادات رسمية أو قيادات شعبية لم تكن معروفة من قبل ويمكن أن تسهم إسهاما كبيرا فى تنمية القرية المصرية، وكان أحد الأهداف التطبيقية للدراسة هو مساعدة مجتمع الدراسة نفسه علي وضع تصورات بالمشروعات التنموية التى يحتاجها المجتمع مع تحديد أولويات لهذه المشروعات دون أن تفرض على المجتمع مشروعات معدة مسبقا أو جاهزة للتنفيذ [١٧].

ثانيا : الخدمة الاجماعية وممارساتها المختلفة .

أحاول فى هذا الجزء من البحث إلقاء الضوء على الخدمة الاجتماعية وممارساتها المختلفة وذلك من خلال عرض لأهم مجالاتها بشيء من الايجاز الشديد، وذلك نظراً لوجود المتخصصين فى الخدمة الاجتماعية والذين سيتناولون الموضوع بكل تفصيل.

تعد الخدمة الاجتماعية فن وعلم تقديم الخدمات الاجتماعية التى تصمم من أجل زيادة أهمية وقيمة الكفاية غير الشخصية والوظيفة الاجتماعية للناس، أفراد أو جماعات وهى مهنة مساعدة تركز كل طرقها على التفاعل بين الانسان والبيئة وإنها بشير خير للانسان لأنها تقوم إما على أساس التطوع أو العمل الحكومى أو على أساس المزج بين التطوع والعمل الحكومى . وبدون الدخول في التفاصيل فإن وظائف الخدمة الاجتماعية فى المجتمعات الانسانية المعقدة اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا وثقافيا وأنساق خدمات الرفاهية الاجتماعية تترابط فيما بينها رسميا أو غير رسمى فى طبيعتها ودرجة كفاءتها وعميق جذورها فى الانسان نفسه ومجهوداته التى يبذلها لكى يستطيع أن يواجه المطالب المتزايدة والمعقدة للبيئة [١٨] .

وتعمل الخدمة الاجتماعية فى مجالات متعددة وهى تستخدم طرقها العملية لتحقيق أهدافها ويرى غالبية الأخصائيين الاجتماعيين فى أن طرق خدمة الفرد وخدمة الجماعة وتنظيم المجتمع والإدارة والبحث فى الخدمة الاجتماعية هى الطرق الخمسة الرئيسية فى محيط الخدمة الاجتماعية .

ترتكز خدمة الفرد على قاعدة علمية هى فى غالبها علم النفس الفردى والعلاجى كما أنها تتضمن ناحية فنية تعتمد فيها أيضا على المهارات الفردية للأخصائى الاجتماعى ومقدرته الخلاقة. وإذا فإن الأساس فى خدمة الفرد هو المدارس المختلفة فى تفسير السلوك فالمدرسة الوظيفية والمدرسة الفرويدية فإنه يجب ألا نغفل أهمية العوامل الاجتماعية والثقافية وتأثيرها على الشخصية الانسانية بجانب العوامل لنفسية وألا تعطى لها الأهمية المطلقة فى خدمة الفرد بل يجب الاستعانة بكل العوامل الاجتماعية والثقافية والنفسية [١٩] .

أما خدمة الجماعة فهى طريقة بواسطتها يساعد الاخصائى الاجتماعى الجماعة عن طريق العلاقة المهنية على زيادة كمية الطاقة المبذولة أثناء النشاط الجماعى وتوجيهها لاكتساب أنماط سلوكية تتفق مع أيدولوجية المجتمع للإسهام فى النمو الثقافى للمجتمع [٢٠] .

ويرى سيد أبو بكر وزملاؤه أن المرحلة التى تمر بها الخدمة الاجتماعية تضع أمام خدمة الجماعة العديد من القضايا أهمها :

(١) تحديد القاعدة العلمية التى ترتكز عليها خدمة الجماعة بما يتفق مع الاحتياجات المتغيرة للجماعات الانسانية .

(٢) تحديد انواع الجماعات التى تصلح لممارسة طريقة خدمة الجماعة معها بنجاح .

(٣) تعديل وتطوير الطريقة بما يوفر لها المرونة فى العمل على أنواع

مختلفة من الجماعات .

(٤) امكا ن تحرير طريقة خدمة الجماعة من الصبغة الترويحية التى تغلب عليها عند الممارسة الميدانية .

(٥) تحديد الوظيفة التربوية لطريقة خدمة الجماعة بحيث لا تتكرر مع الوظائف التربوية لمهن أخرى كالتدريس .

(٦) تعميق الوظيفة الوقائية للطريقة - وجعلها أكثر فاعلية .

(٧) تعميق الوظيفة العلاجية وتحديد دور خدمة الجماعة فى العلاج النفسى بحيث لا يتكرر مع دور مهن أخرى كالطب النفسى .

(٨) وضع نظرية وظيفية للطريقة فبدون ذلك الأساس النظرى تصبح لدينا معرفة لا نستخدمها أو أهداف لا نعرف كيف نحققها (٢١) .

أما تنظيم المجتمع فى الخدمة الاجتماعية فهو طريقة معينة فى محيط الخدمة الاجتماعية وكان فى بدايته مجرد أنشطة يبذلها المشتغلون بالخدمة الاجتماعية ثم تطور مع مرور الوقت حتى تبلور فى طريقة علمية.

ويعرفه عبدالمنعم شوقى بأنه مجموعة من العمليات التى تبذل بقصد ووفق سياسة عامة لإحداث تطور وتنظيم اجتماعى واقتصادى للناس وبيئتهم سواء كانوا فى مجتمعات محلية أو اقليمية أو قومية بالاعتماد على المجهودات الحكومية والأهلية المنسقة علي أن يكتسب كل منها قدرة أكبر على مواجهة مشكلات المجتمع نتيجة لهذه العمليات (٢٢).

ويشير سيد أبو بكر وزملاؤه مجموعة من القضايا فى تنظيم المجتمع أهمها :

(١) تدعيم القاعدة العلمية كطريقة تنظيم المجتمع بمعلومات مستقاة من العلوم الاجتماعية وعلم الاجتماع بصفة خاصة بحيث تصلح تلك المعلومات

للاستخدام والتطبيق العملى .

(٢) تمييز الأنشطة التى تتضمنها الطريقة فى محيط الخدمة الاجتماعية.

(٣) إيجاد علاقة واضحة محددة بين طريقة تنظيم المجتمع وتنمية المجتمع ودور الأخصائى الاجتماعى فى برامج التنمية .

(٤) تحديد دور وأهداف الطريقة فى الدول النامية .

(٥) تدعيم الطريقة بحيث تكون أكثر فاعلية فى مواجهة التغيرات السريعة التى تعترى المجتمعات [٢٣].

وتعتبر الإدارة إحدى الطرق الخمسة الرئسية فى الخدمة الاجتماعية وهى تتميز بوسائل فنية معينة. وتخدم تلك الوسائل الفنية المنظمات المختلفة الموجودة بالمجتمع ولتلك الوسائل الفنية نفس أهمية البرامج التى تقوم بها المنظمات الاجتماعية وعمليات الادارة تشمل عملية وضع السياسة ، وعملية التنفيذ، وعملية التقييم أما وظائف الإدارة فهى وظيفة التنظيم التوجيهى ، والتنظيم الإدارى، والاشراف وكلها عمليات ضرورية لنجاح الأخصائى الاجتماعى فى عمله الإدارى [٢٤] .

ولما كان البحث العلمى هو أساس تقدم العلوم المختلفة ولما كانت الخدمة الاجتماعية ترتكز على أساس علمى فإنها اصبحت تستخدم البحث العلمى كقاعدة أساسية لها . ووسائل البحث العلمى كثيرة منها المقابلة ، والملاحظة، والرجوع إلى السجلات والتقارير فضلا عن طرق أخرى مثل الملاحظة الاحصائية التى تعتمد على الاحصاءات المختلفة وقد يمر البحث العلمى بمراحل مختلفة كمرحلة الاستطلاع ، والدراسة الوصفية، والدراسة التجريبية، ومما لا شك فيه أن هناك مجالات كثيرة فى الخدمة الاجتماعية لاجراء البحوث الاجتماعية [٢٥] .

وقد أشار فينك Fink إلى مجالات ممارسة الخدمة الاجتماعية وحددها

سواء أكانت مجالات أهلية أو حكومية فى ثلاثة قوائم رئيسية هى :

أولا : مجالات الخدمة الاجتماعية للأفراد ، والعائلات ، والجماعات ، والمجتمعات وهى تقدم من خلال المؤسسات الاجتماعية سواء أكانت مؤسسات حكومية أو أهلية أو من خلال التعاون فيما بينها وهذه الخدمات الاجتماعية تساعد على تقوية الحياة الأسرية وتزيد من الوظائف الاجتماعية للأفراد وتمنع أى انهيار للأفراد أو الجماعات او فى تنمية المجتمعات وتعضد الأفراد والأسر وهى تضم مؤسسات وظيفتها الأولى تقديم هذه الخدمات أو عن طريق المؤسسات التطوعية ومؤسسات الرفاهية وخدمة الأسرة ومراكز رعاية الأطفال، ومنظمات خدمة الشباب ، والبرامج التى توضع لخدمة المسنين والمعوقين فضلا عن برنامة العمل الاجتماعى الاخرى .

ثانيا : الخدمة الاجتماعية المقدمة للأفراد والجماعات والمرتبطة ببرامج الصحة والتعليم أو برامج أخرى تقدمها مراكز صحية حكومية أو مراكز تقوم على أساس التطوع وكذلك مراكز التعليم وقد تضم المجالات الآتية :

أ - منع أو معالجة أو إعادة تأهيل المرضى بأمراض فيزيقية أو عقلية والاهتمام بالمعوقين جسميا وعقليا سواء فى المستشفيات او العيادات فى مجال الخدمات الصحية المركزة أو فى برامج الصحة العامة والتى تهدف إلى منع المرض أو السيطرة عليه .

ب - فى البرامج التعليمية كالمدارس الرسمية أو المدارس الخاصة أو الفصول الخاصة بالأطفال المعوقين أو فى فصول التدريس المهنى للشباب وللكبار والبرامج التعليمية التى تهدف إلى الوصول إلى تحسين المستوى الاقتصادى والتعليمى.

جـ - فى تصحيح علاج السلوك المنحرف اجتماعيا سواء فى الأحداث أو الكبار والقيام بالدور المناسب فى المحاكم وفى دور الخدمة الاجتماعية الخاصة بالملاحظة أو المراقبة لهؤلاء الأحداث أو فى السجون ، ومؤسسات رعاية الاحداث، والمدارس التدريبية وفى المؤسسات التطوعية التى تهتم بإعادة التأهيل والاقامة فى مؤسسات المجتمع التى تعمل على منع الانحراف .

د - فى مجال الاسكان فى المناطق الحضرية برامج محددة، وفى مجال الخدمات الاجتماعية للسكان : أفراد وجماعات أو هيئات تنمية المجتمع وتنظيمه والبرامج الخاصة بها .

هـ - فى برامج التأمين الاجتماعى والخدمات المقدمة للأفراد وللأسر .

و - فى الترويح والبرامج الثقافية .

ز - فى الصناعة ومنظمات العمل، وفى خدمات الموظفين والأعضاء .

ح - فى مجال الخدمات العسكرية .

ثالثا : أنشطة التخطيط الاجتماعية وتنظيم وتنمية السياسة الاجتماعية للحالات البديلة القائمة على جهد الافراد وذلك لتحقيق ظروف اجتماعية أفضل والقضاء على الظروف البيئية السيئة فى الاقامة وتحقيق الرفاهية للافراد والأسر والجماعات والمجتمعات المحلية على المستوى القومى أو فى مجالس المجتمعات المحلية ومجالس الأحياء والجيرة ، ومنظمات التخطيط الاجتماعى ورفع الميزانيات المخصصة لأغراض الرفاهية الاجتماعية أو العمل على زيادة لميزانية القومية المخصصة .

وفى الاهتمام بالدو الذى تقوم به الخدمة الاجتماعية حتى تستطيع القيام بوظائفها الاجتماعية قد يقوم مجموعة من الاشخاص من مهن مختلفة ومن تخصصات علمية أخرى بأدوار مختلفة وهامة إلا أن الخدمة الاجتماعية

لها وضعها الخاص [٢٥]

وقد قطعت مصر شوطا كبيرا فى تطوير الخدمات الاجتماعية ومواجهتها لمشاكل الجماهير وتحملها مسئولية العمل الاجتماعى كأحد حقوق المواطنين ويمكن تحديد مجالات العمل الاجتماعى فى سبعة ميادين هما :

(١) ميدان رعاية الطفول .

(٢) ميدان رعاية الاسرة.

(٣) ميدان المساعدات الاجتماعية.

(٤) ميدان رعاية الشيخوخة والمسنين .

(٥) تنمية المجتمعات المحلية .

(٦) ميدان رعاية الفئات الخاصة.

(٧) ميدان الخدمات الثقافية والدينية .

وقد اعتمدت وزارة الشئون الاجتماعية على كثير من المؤسسات الاجتماعية سواء اكانت مؤسسات خاصة أو حكومية فى تقديم خدماتها [٢٧]

* * *

ثالثا : اوجه التشابه والاختلاف بين الانثروبولوجيا التطبيقية والخدمة الاجتماعية .

هناك اختلاف كبير بين الفروع الاساسية لعلم الانسان (الانثروبولوجيا)، وهذه الفروع هى : الانثروبولوجيا الفيزيقية أو (الطبيعية) والانثروبولوجيا الاجتماعية والانثروبولوجيا التطبيقية ، والانثروبولوجيا الطبية.

وتعتمد هذه الفروع علي دراسة الانسان فى كل مكان (فى أى مجتمع من

المجتمعات الانسانية المختلفة) أو فى كل زمان (الانسان الحالى أو ماضى الانسان) كما أن الانثروبولوجيا ازدهرت بما استطاعت ان تضعه من مناهج وأساليب وطرق بحث ميزتها عن بقية العلوم الاجتماعية .

فالدراسة الحقلية تقوم على أساس اقامة الباحث الدائمة والمستمرة فى مجتمع الدراسة لفترات طويلة يستطيع الباحث من خلالها أن يلم الماما كبيرا بكل جوانب الحياة الاجتماعية من : علاقات اجتماعية ، ونظم اجتماعية، وأنساق اجتماعية وعناصر أخرى مختلفة تؤثر فى البناء الاجتماعى كما أنه يمكن. ان يقف على العادات والتقاليد والقيم والأعراف والقوانين المكتوبة وغير المكتوبة وأيضا على كل جوانب الثقافة المادية التى أوجدها الانسان أما عن طريق الاكتشاف او الاختراع .

ولكى تتم الدراسة الحقلية على أسس سليمة وضع الانثروبولوجيون المناهج والأساليب الملائمة - التى نشير إليها بشيء من الايجاز - أهمها : الملاحظة والملاحظة بالمشاركة ، والمقابلات المختلفة، ودراسة الحالة، ودلائل العمل الميدانى وغيرها .

كما استخدمت الانثروبولوجيا التطبيقية فضلا عن هذه المناهج والأساليب المستخدمة فى مجال علوم الانثروبولوجيا المختلفة، استخدمت بعض المناهج الاخرى التى استعارتها من علوم النفس كالاختبارات المختلفة أو من العلوم الاجتماعية كالأساليب الاحصائية وبعض المناهج الأخرى باعتبار ان هذا الفرع يعمل فى الجوانب التطبيقية للمجتمعات الانسانية المختلفة .

ومما لا شك فيه أن هناك اختلاف كبير بين المناهج والأساليب التى تستخدم فى ممارسات الخدمة الاجتماعية عن تلك المناهج والاساليب المستخدمة فى الانثروبولوجيا لكن الخدمة الاجتماعية بفروعها المختلفة تتفق فى جميع مجالاتها التى تناولناها بشيء من التفصيل فى الجزء السابق على أن وراء هذه المجالات

«الانسان» الذى يكون إما فردا أو جماعة أو مجتمعا محليا ، وبذلك فهناك اتفاق أساسى فى الهدف ، سواء أكان هدف الانثروبولوجيا ، الانسان الاجتماعى الذى يعيش فى جماعات انسانية مختلفة ، أو مجتمعات محلية أو مجتمعات كبيرة ، او الانسان الثقافى الذى يتميز عن بقية المخلوقات الاخرى بالثقافة التى يكتسبها عن طريق التوارث والتنشئة الاجتماعية والثقافية أو عن طريق الاحتكاك الثقافى بالثقافات الأخرى المختلفة كما أنه يستطيع أن ينقلها للأجيال الجديدة مستخدما وسائل النقل الشفاهى المختلفة أو الوسائل الحديثة فى النقل.

أما الانسان الفيزيقى أو الطبيعى الذى يمثل السلالات البشرية المختلفة أو سواء فى الجانب التطبيقى لعلم الانثروبولوجيا مثل الانثروبولوجيا التطبيقية أو الانثروبولوجيا الطبية واللتان تهدفان إلى العمل على رفاهية الانسان ومواجهة المشكلات الكبرى في حياته والمعوقات المختلفة التى تواجهه .

ففى رأينا أن العلاقة تكون وثيقة الصلة بالخدمة الاجتماعية بفروعها ومجالاتها المختلفة نظراً لأهتمام الخدمة الاجتماعية أيضا بالانسان (الفرد ، الجماعة ، المجتمع) ، كما وأن الخدمة الاجتماعية وممارساتها المختلفة كمهنة تستفيد استفادة كبيرة بالجوانب المختلفة من علم الانسان (الانثروبولوجيا) سواء فى مجال المعرفة النظرية التى يتحيها هذا العلم أو المعرفة الاجتماعية للجماعات الانسانية وللمجتمعات المختلفة ، أو المعرفة الثقافية لجوانب الثقافة المتعددة فى الانسان باعتباره صانع الثقافة الوحيد . أو المعرفة التطبيقية التى يمكن أن تكون الاستفادة من الانثروبولوجيا التطبيقية والانثروبولوجيا الطبية كبيرا . كما وأن الانثروبولوجى التطبيقى يستفيد من الاخصائى الاجتماعى بما يقدمه له من معلومات عن الإفراد او الجماعة أو عن المجتمع ما دام الهدف النهائى لكل منهما هو الرفاهية الانسانية .

وربما كان مجال تنمية وتنظيم المجتمع من المجالات الهامة لكل من الانثروبولوجي والاخصائي الاجتماعي فقد أشار سيد أبو بكر إلى العمليات الأساسية لتنمية المجتمع وتنظيمه نوجزها فيما يلي :

(١) التعرف على المجتمع .

(٢) جمع المعلومات عن المجتمع.

(٣) التعرف على القادة المحليين .

(٤) استثارة سكان المجتمع لكي يدركوا مشكلات مجتمعاتهم .

(٥) مساعدة الأهالي على مناقشة تلك المشكلات .

(٦) مساعدة الاهالي على مواجهة تلك المشكلات عن طريق تقوية ثقتهم في أنفسهم .

(٧) تشجيع الأهالي على مواجهة تلك المشكلات عن طريق تقوية ثقتهم بأنفسهم .

(٨) وضع برنامج للعمل علي حل تلك المشكلات بالاعتماد على المواءمة بين الموارد والاحتياجات .

(٩) التعرف على مواطن القوة والضع في الموقف عند بدء تنفيذ البرنامج.

(١٠) مساعدة الاهالي على المثابرة في تنفيذ البرنامج .

(١١) التركيز على تعليم الأهالي وتوعيتهم ومساعدتهم على زيادة مقدرتهم على الاعتماد على أنفسهم .

(١٢) مساعدة الأهالي على متابعة وتقييم البرنامج لمعرفة مدى ما حققه من أهداف .

وهذه الوسائل والاساليب لا تغيب عن ذكر الانثروبولوجي التطبيقي ويستخدمها في الأساليب الاخرى [٢٩] .

كما وأن الخدمة الاجتماعية يمكن أيضا أن تستفيد من المناهج والاساليب الانثروبولوجية كالملاحظة والمشاركة ، والمقابلة ، ودراسة الحالة، وتاريخ الحياة، والمناهج والاساليب الاخرى التى تعتمد علي الاقامة فى مجتمع الدراسة واعلم ان الخدمة الاجتماعية الآن سواء في مجال الفروع المختلفة الاساليب او البحوث والدراسات الخاصة بها تعتمد على كثير من هذه المناهج والأساليب الانثربولووجية العلمية .

* * *

رابعا : أهم النتائج والتوصيات :

فى ختام هذه الدراسة أشير إلى أهم النتائج والتوصيات :

أولا : مما لا شك فيه ان كل العلوم الانسانية والاجتماعية والخدمة الاجتماعية بفروعها المختلفة تحتاج إلى المزيد من التخصص الدقيق .

ثانيا : ولكن رغم الدعوة إلى التخصص الدقيق للعلوم الانسانية والاجتماعية والخدمة الاجتماعية فإن هذه العلوم فى حاجة ماسة إلى مزيد من التقارب بعضها البعض نظرا لأنها تتعامل مع الانسان أولا وأخيرا.

ثالثا : ضرورة إعطاء الخلفية النظرية عند اعداد الاخصائيين الاجتماعيين عن الانثروبولوجيا وفروعها المختلفة وقد أخذت كثير من كليات الخدمة الاجتماعية ومعاهدها بهذه التوصية بينما ما زال البعض يعطى بعض المعلومات الانثروبولوجية من خلال تدريس مادة علم الاجتماع.

ر ابعا : ايمانا بأهمية الدور الذى تقوم به الخدمة الاجتماعية وممارساتها المخكتلفة يقوم طلاب الانثروبولوجيا بدراسة الخدمة الاجتماعية وتنظيم المجتمع

فى برامجهم الدراسية .

خامسا : امكانية استخدام المناهج والاساليب الانثروبولوجية فى البحوث الخاصة بالخدمة الاجتماعية نظرا لمواءمة هذه المناهج والاساليب لمجالات الخدمة الاجتماعية المختلفة.

سادسا : ضرورة تلاحم كل من الانثروبولوجية التطبيقي والاخصائى الاجتماعى المتخصص فى مجال تنمية وتنظيم المجتمع لحاجة كل منهما فى دراستهما وبحوثهما لجهد الاخر .

سابعا : ان الهدف الاسمى والنهائى للانثروبولوجيا بفروعها المختلفة وللخدمة الاجتماعية بفروعها ومجالاتها وممارساتها هو تحقيق الرفاهية للانسان، وهذا الهدف لا يمكن ان يتحقق الا بتضافر الجهود المبذولة فى الميادين والمجالات والجماعات المختلفة لكل من الخدمة الاجتماعية والانثروبولوجيا والعلوم الاجتماعية الاخرى .

خامسا : ثبت بالهوامش والمراجع :

(١) محمد محمود الجوهرى واخرون (المترجمون) لكتاب مقدمة فى الانثوبولوجيا العامة لمؤلفيه رالف بيلز ، وهارى هويجز جـ ٢ ، مطبعة نهضة مصر ١٩٧٧ ، ص ٨٠٩.

(٢) انظر :

Chambers, Erve 1985 Applied Anthropology, Aprofessional Guide, Englewood Cliffs, N.J. Prent ce Hall.

Willigen, John Van 1986 Applied Anthropology. An introudction, South Hadley, Mass: bergin and Gawey.

(٣) فاروق احمد مصطفى وآخر ١٩٨٩، دراسات فى الانثروبولوجيا التطبيقية ، دار المعرفة الجامعية ، ص ١١

(4) Harris, Marvin, 1987, Cultural Anthropology, Harper & Row Publishers, New York p. 353.

(5) Chapple, E. "Applied Anthropology" in Kroeber ed.) Anthropology today University of Chicago Press 1953, p. 819.

(6) Mair, Lucy "Applied Anthropology" in I.E.S.S vol. 1. p. 325.

(٧) حسن شحاته سعفان : (١٩٦٦) علم الانسان – الانثروبولوجيا – منشورات مكتبة العرفان ، بيروت ، ص ٢٦.

(٨) أحمد أبو زيد ، المترجم ١٩٧٥، كتاب الانثروبولوجيا الاجتماعية لمؤلفه ايفانز بريتشارد الطبعة الخامسة الهيئة المصرية العامة للكتاب ص ١٤٣ .

(٩) محمد محمود الجوهرى واخرون ، مرجع سابق ، ص ٨١٤ – ٨١٦ .

(10) Foster, G. & Anderson, B. 1978 Medical Anthropology New York Wiley, pp. 170 - 171.

(١١) الهاسندا Hacienda مزرعة كبيرة تنمو فيها المحاصيل الكثيرة والتى يديرها مزارعون يقيمون فيها .

(12) Harris, Marvi, op.cit, pp. 368 - 373.

(١٣) محمد الجوهرى وآخرون مرجع سابق ، ص ٨١٧ – ٨١٨.

(14) Harris, Marvin, op.cit., pp. 352 - 353.

(١٥) محمد الجوهرى وآخرون مرجع سابق ، ص ٨١٧ – ٨١٨.

(16) Firth, R. 1970 Human Types, Sphere Book LTD pp 166 - 173..

(١٧) فاروق احمد مصطفى ، ١٩٩٠ ، مقدمة ودراسات انثروبولوجية ، جـ ١ ، دار المعرفة الجامعية ص ٤٣ - ١٤٣.

(18) Fink, E, Arther & others, 1978 The Fild of Social work, 5 th Edition, Holt, Rinehart and Winston Inc. New York p.1.

(١٩) راجع فى ذلك سيد أبو بكر واخرون ، الخدمة الاجتماعية فى النظام الاشتراكى ، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٦ ص ١٩٣ - ٢٤٢.

(٢٠) أنيس عبدالملك وآخرون خدمة الجماعة مكتبة الانجلو المصرية (بدون تاريخ نشر) ، ص ٨٤.

(٢١) سيد أبو بكر وآخرون الخدمة الاجتماعية ، مرجع سابق ، ص ص ٢٨٤ - ٢٨٥.

(٢٢) عبدالمنعم شوقى ، ١٩٦١، تنمية المجتمع وتنظيمه ، مكتبة القاهرة الحديثة، الطبعة الثانية ، ص ٤٣ .

(٢٣) سيد أبو بكر وآخرون ، الخدمة الاجتماعية ، مرجع سابق ، ص ٢٣٢ .

(٢٤) مرجع سابق ، ٢٣٣ - ٣٤١ .

(٢٥) مرجع سابق ، ص ٣٤٢ - ٣٦٥ .

(26) Fink, E., Erther & Others, op.cit., pp. 6 - 7.

(٢٧) محمد كامل البطريق ١٩٧٥ وآخر مجالات الرعاية الاجتماعية وتنظيمها مكتبة ، القاهرة الحديثة ، ص ٥٦ - ص ٥٧ .

(٢٨) سيد أبو بكر حسانين ، طريقة الخدمة الاجتماعية في تنظيم المجتمع ، مكتبة الانجلو المصرية ، (بدون سنة النشر) ص ٥١٨ - ٥١٩.

(٢٩) راجع الفصل الثالث من كتاب مقدمة ودراسات انثروبولوجية - فاروق احمد مصطفى ، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٩٠.

الفصل الخامس

الانثروبولوجيا الفيزيقية واجناس البشرية

مقدمة : الانثروبولوجيا الفيزيقية : النشأة والإهتمامات

- الأجناس البشرية وخصائصها.
- الصفات السلالية بين الأجناس.
- التصنيف السلالي.
- الإنسان والوراثة.
- الهندسة الوراثية.
- الهندسة الوراثية والقيم المجتمعية.

خاتمة : الأجناس في ميزان النقد.

-القراءات والمراجع.

كتب هذا الفصل أ.د محمد عباس ابراهيم – أستاذ الأنثروبولوجيا بكلية الآداب – جامعة الإسكندرية

الفصل الخامس

الانثروبولوجيا الفيزيقية واجناس البشرية*

مقدمة : الانثروبولوجيا الفيزيقية : النشأة والإهتمامات

نهضت الأنثروبولوجيا الفيزيقية في بدايتها الأولي منذ القرنين السابع عشر والثامن عشر بموضع هام – وإن كان هو اليوم يعد من الموضوعات الكلاسيكية – وهو تصنيف وفهم سلالات الجنس البشرى ، وجاءت هذه البداية منبثقة على الإهتمام بعلم الحيوان ، والدراسات الخاصة بتصنيف الأحياء Taxonomic. ففي عام ١٦٨٤ نشر العالم الفرنسي فرانسو بيرنيير Francois Bernier مقالا حول تقسيم العالم إلى أنواع وأجناس بشرية ، وذلك فى مجلة Jornal Des Scavans التى تصدر فى أمستردام ، ويعد هذا المقال من المحاولات الأولى التى سعت إلى فهم التغايرات الموجودة بين الجنس البشرى فى الوقت الذى قام فيه بعض علماء الحيوان والنباتات – أيضاً– بمجهودات متصلة لإكتشاف نماذج وأنواع توزيع الزهور والنباتات ومدى تكيف نموها فى المناطق المختلفة.

ثم جاءت بعد برنيير مرحلة إسهام جديدة تتصل مباشرة بتصنيف الجنس البشرى والإنسان، حيث وضع لينيه Linne فى عام ١٧٣٥ تصنيفاً رئيسياً جديداً اعتمد على الدراسات التجريبية التى قام بها بعض علماء الحيوان والنباتات ، والتى أخذوا من خلالها الإنسان كعضو أساسى وهام يعيش فى المجتمع ويتكيف بدوره مع أنواع معينة من الحيوانات والنباتات، وأن الإنسان له اعتبارات معينة تميزه ككائن عضوى بيولوجى ، ويمكن القول أنه مع نهاية القرن الثامن عشر ظهر تيار جديد من الدراسات العلمية سعى أنصاره إلى فهم واضح للتمايزات والإختلافات الموجودة بين الإنسان. وقد نهض هذا التيار على

* كتب هذا الفصل أ.د. محمد عباس ابراهيم ، استاذ الانثروبولوجيا بكلية الآداب – جامعة الاسكندرية.

وجه الخصوص بين كل من علماء التشريح Anatomists وعلماء الطبيعة Phy-sicians حيث تبدأ دراستهما - رغم تمايزها - من أصل واحد متشابه Cog-nate Field ، فقد أشار عالم الطب والتشريح جوهان بلومينباج Blumen Bach فى عام ١٧٩٥، إلى ضرورة إتباع المناهج التحليلية فى فهم التمايزات والإختلافات السلالية بين الجنس البشرى ، بينما أكد عالم تشريح آخر هو بيتر كامبر Pieter Comper فى عام ١٧٩١ على ضرورة إدخال وإستخدام الأساليب الكمية والقياسية فى مثل هذه البحوث، وخصوصاً المقاييس الخاصة بزوايا الوجه Facial Angle[1].

وفى ضوء ذلك يمكن القول أن الدراسات والإهتمامات التى قام بها علماء التشريح كان لها دور هام فى بلورة المراحل الأولى والتكوينية لمجال الأنثروبولوجيا الفيزيقية ، وقد ظهر ذلك بوضوح من خلال الإسهام الذى قدمه عالم التشريح ادوارد تايسون Edward Tyson فى الفترة من ١٦٩٩ - ١٧١٥ وذلك فى مقال له بعنوان Orange- Outang: Sive Home Sylvestris.

والذى تناول فيه مرحلة السعلاه (القردة التى تشبه الإنسان) أو ماأطلق عليه بعد ذلك إنسان الغابة الذى سكن الأكواخ المعلقة على الأشجار ، وتعكس هذه المحاولة التى قام بها تايسون عن مدى إهتمامه بدراسة الإنسان والرئيسيات من ناحية، فضلاً عن إهتمامه بوضع مبادىء وأسس منهجية للدراسات المقارنة فى فهم التمايزات بين السلالات البشرية والأجناس، والخصائص الفيزيقية لكل منهما من ناحية أخرى.

وقد تدعمت خلال القرن التاسع عشر العلاقة الوطيدة بين كل من الطب وعلم

(1) Blumenbach; johannf., On the Naturpal Variety of Mankind, Schuman, New York, (1975), pp. 25-39

التشريح من جهة وبين الأنثروبولوجيا الفيزيقية من جهة أخرى ، وظهر ذلك على سبيل المثال من خلال إهتمام بعض العلماء المتخصصين فى الأنثروبولوجيا الفيزيقية بنواحى التشريح والموضوعات الطبية، ومن هؤلاء العلماء جوستاف ريتزيوس Gustaf Retzius فى عام ١٩٠٩، وبول بروكا Poul Broca فى عام ١٨٧٧ ، ورودلف فيركوف Rudolf Virchow فى عام ١٨٨٢ [١].

وقد صارت هذه الإهتمامات بعد ذلك مسلكاً تقليدياً بين الباحثين مؤداه أن يتناول الباحث قدراً من المهارات والتدريبات الطبية تؤهله للدخول بمقتضاها إلى العمل فى بحوث الأنثروبولوجيا الفيزيقية وربما تكون هذه العلاقة الوطيدة بين التشريح والأنثروبولوجيا الفيزيقية هى نفس العلاقة الحميمة والرابطة القوية التى قامت بعد ذلك بين فروع الأنثروبولوجيا الفيزيقية والثقافية والإجتماعية.

ولكن على الرغم من العلاقة التى كانت فى البداية تربط علوم التشريح والموضوعات البيولوجية والأنثروبولوجيا الفيزيقية بعلامات خاصة إلا أنه يمكن القول أن هذه الإهتمامات نشأت جميعها تحت رعاية وفى كنف الأنثروبولوجيا بوجه عام. وربما كان السبب الحقيقى المدلل على ذلك هو إستعانة هذه العلوم بموضوعات أنثروبولوجية عامة مثل التطور الثقافى للجنس البشرى، والعلاقات المتبادلة بين الجماعات الإنسانية ، ومعلومات وبيانات الظاهرة الثقافية ، فضلاً عن الإهتمام بالموضوعات المتصلة بالتشريح والتمايز السلالى واللغوى والدراسات الأركيولوجية.

وقد ظلت الأنثروبولوجيا الفيزيقية لفترة طويلة من تاريخها تهتم بموضوعات عامة، وفضفاضة حول السلالات البشرية، ودراسات التشريح المقارن إلى أن

---

(1) Retzius, Gustaf: The Development of Race Measurements and Classification. In: Alfred kroeber & T.T Waterman (eds.); Source Book in Anthropology New York (1909) 1965, pp. 94-102.

جاءت الفترة التى تشر فيها تشارلس دارون Darwin[1] كتابه فى عام ١٨٩٥ عن أصل الأنواع The Origin of Species، حيث بدأت مرحلة جديدة فى مجال الأنثروبولوجيا الفيزيقية إستندت إلى التسجيل (السجل) الحفرى Fossil Record لبقايا الإنسان كأسلوب مميز فى تحليل وتفسير التطور الإنسانى ، ومنها على سبيل المثال تحليل حفريات جبل طارق Gibralter وجماجم إنسان النياندرتال Neanderthal Skulls كما صاحبت هذه الفترة إهتمامات تخصصية فى مجال التشريح والطب وعلم الحفريات Paleontology والتطور البشرى.

أما فيما يتعلق بمنهج البحث فى الأنثروبولوجيا الفيزيقية خلال القرن التاسع عشر فقد اعتمد على أساليب القياس التى تطورت بدورها فى القرن العشرين حيث أخذ الباحثون فى إستخدام الملاحظات والقياسات المقننة ، وقد أقر عدد من المؤتمرات الدولية هذه الأساليب المنهجية فى البحث وكان أهم تلك المؤتمرات هو المؤتمر الذى عقد فى عام ١٩١١ بمدينة موناكو Monaco حيث ظهرت أساليب القياس الأنثروبومترى Anthropometry لأول مرة فى مجال الأنثروبولوجيا الفيزيقية. كما تعتبر الأنثروبولوجيا الفيزيقية من أولى العلوم والتخصصات البيولوجية التى تعتمد فى أبحاثها على استخدام الرياضيات والإحصاء ، والمشكلات السكانية ، ولكن بطرق منهجية خاصة بها.

ومع بداية القرن العشرين بدأت إهتمامات الأنثروبولوجيا الفيزيقية ترتبط أكثر فأكثر بالنواحى البيولوجية للإنسان ، وذلك على العكس من الفترة السابقة، وهنا يمكن القول أن الإهتمامات الحديثة والمعاصرة فى مجال الأنثروبولوجيا الفيزيقية ركزت على النواحى التالية :-

(1) Darwin Charles. On the Origin of Species, Cambridge, Harvard University Press, (1859) 1964.

أولاً :

الزيادة فى معدلات التوالد أو التكاثر Postantal Growth وهذه الظاهرة وإن كانت فى ظاهرها ترتبط بالدراسات السكانية إلا أنها أصبحت أكثر إتصالاً بالأنثروبولوجيا الفيزيقية لأن أساليب الدراسة الخاصة بمعدلات النمو والتغير السكانى تكون دلالتها العلمية والعملية أقوى إذا ارتبطت باستخدام وتوظيف المقاييس الأنثروبومترية التى يستعين بها علماء الأنثروبولوجيا الفيزيقية. هذا فضلاً عن الإهتمام بتوضيح الإختلافات والتمايزات فى معدلات النمو والخصائص والسمات المتصلة بالبشر من حيث الإختلاف فى بنية الجسم نفسه ، ومرحلة ظهور الأسنان، والتغيرات فى شكل وملامح الوجه، وهى الخصائص والسمات التى أصبحت أساسية فى التمييز بين السلالات البشرية.

ثانياً :

المورثات Genetics البيولوجية ، وهو إهتمام حديث النشأة ظهر فى الأنثروبولوجيا من أجل توضيح الإختلافات والتمايزات بين البشر على أساس الإختلافات فى مجموعات أو فصائل الدم المعروفة ABO Blood Groups، وهو إتجاه جديد حاول مكتشفه الأول العالم الأنثروبولوجى هيرزفيلد Hirsz-field فى عام ١٩١٩ أن يصل من خلاله إلى إثبات تمايزات واضحة بين السلالات البشرية [١]. وقد نشرت نتائج بحثه هذا فى مجلة مشرط الجراح Lancet، كما تطور هذا الإتجاه بعد ذلك على أيدى عديد من علماء الأنثروبولوجيا البيولوجية الذين حاولوا تطوير البحث فى مجال الوراثة بدءاً من قانون الوراثة عند مندل Mendel، وحتى الجهود التى قامت بالبحث عن العناصر الوراثية المستقلة والمختلطة بين السلالات البشرية، وهو الاتجاه الذى أخذ فى الإعتماد على إجراء المزيد من البحوث العملية فى بعض مناطق أفريقيا

(1) Hirszfield L.& Hirszfield, H. of Different Blood, in Lance 197, No. 2, 1919, pp. 567-679.

وأوروبا وجاميكا وغيرها.

ثالثا :

من الإهتمامات المعاصرة فى مجال الأنثروبولوجيا الفيزيقية البحث فى التكوين والبنية البشرية Human Constraction وذلك من خلال التفاعل المتبادل بين إهتمامات الأنثروبولوجيا الفيزيقية وبين علوم الطب والطب النفسى Phychiatry وإن كانت هذه الدراسات فى أساسها تسعىٰ إلى التعرف على الأنماط المختلفة للشخصية الإنسانية ، إلا أنها تعد من الدراسات المتأصلة التى يرجع تاريخها إلى إهتمامات اليونانيين وتصوراتهم تجاه الشخصية من خلال التقسيم الذى قدموه على أساس تصنيف الأمزجة وبنية الجسم Humors حيث ظهر بمقتضاه تصنيفان للشخصية هما ، الشخصية البلغمية عديمة المبالاة Phleg-matic، والشخصية الحادة دموية المزاج شديدة الإنتماء Sanguine، وحاولت الأنثروبولوجيا الفيزيقية حديثاً إدخال إهتمامات جديدة فى مجالات البحث فى تلك الناحية مؤداها تحليل وتفسير الروابط والعلاقات المتبادلة بين بنية الجسم، وبين الأنماط السلوكية للإنسان مستعينة فى ذلك بعدد من نتائج البحوث التى أجراها علماء الطب النفسى أثال ماك أوليف Mac Auliffe فى فرنسا، وبندا Pelce فى إيطاليا ، وأرنست كريتشمر Ernst Kresxhmer فى ألمانيا ، وجورج دارير Georg Draper فى الولايات المتحدة الأمريكى [1].

وهى كلها إهتمامات ركزت على إظهار الإختلافات الجسمية من ناحية ، وعلى الترابط بين النواحى النفسية والفسيولوجية لأنماط السلوك الإنسانى من

للمزيد انظر فى ذلك

(1) Kretschmer, Emst; Physique and Character : An Investgation of the nature of Constitution and the theory of Temperament; Routledge., London, (1921) 1936.

- Draper, Georg & Others; Humn Constitution in Clinical Medicine, Harper, new York 1944.

ناحية أخرى.

رابعاً:

من المجالات الحديثة والمعاصرة فى الأنثروبولوجيا الفيزيقية أيضاً الإهتمام بالدور الذى يقوم به التنظيم الإجتماعى والثقافى فى عملية التطور الإنسانى ، وأن أحد الإهتمامات الرئيسية فى ذلك هو دراسة سلوك الرئيسيات Primater behavior خلال التركيز فهم الإتباطات البيولوجية ودورها فى ذلك السلوك ، ولاشك أن هذا الإهتمام قد تجدد على أيدى إثنين من علماء الأنثروبولوجيا الفيزيقية هما كاربنتر Carpenter وسولى ذو كرمان Solly Zuckerman حيث قاما ومعهما عدد من تلاميذهما بإجراء دراسات تجريبية واسعة حول سلوك الرئيسيات آملاً فى تحقيق فرضهما العلمى القائم على الإعتقاد بأن الخصائص الإجتماعية والسلوكية لها دور كبير فى عملية التطور الإنسانى [1].

خامساً:

الأنثروبولوجيا الفيزيقية والحفريات Fossils ويتصل هذا الإهتمام فى الدرجة الأولى بموضوع التطور البشرى من خلال فهم السجل الحفرى Fossils record للإنسان، حيث قامت حديثاً بعض الجهود المكثفة فى هذا المجال نذكر منها على سبيل المثال إكمتشاف ديفيدسون بلاك Davidson Black وون شانج بى Wenchung Pei فى الصين فى الفترة من عام ١٩٢٠ إلى عام ١٩٣٤ ، وكذلك إكتشافات كوينجز والد Koenigs Wald فى جزيرة جاوه فى الفترة من ١٩٣٠ إلي ١٩٥٠. وغيرها من الإكتشافات ، وخاصة التى قام

انظر فى ذلك:

(1) Carpenr C.R. Afield of the Behavior anf Social Relation on Howling monkeys New york 1934- Zuckerman Solly Functional Affinities of Man Monkevs and Apess Harcourt New York 1993.

بها عالم الأنثروبولوجيا ليكى Leakey من خلال أبحاثه فى منطقة أولدوفاوى Olduvai فى شرق أفريقيا فى الفترة من عام ١٩٥١ وحتى ١٩٥٩ ، وهذه الدراسات والأبحاث رغم تعددها إلا أنها تسعى إلى إعادة إختبار تصورات قديمة، والوصول من خلالها إلى حقائق أكثر حداثة ومعاصرة حول تطور الجنس البشرى أو مايعرف بإعادة تركيب الإنسان الأول المعاصر.

إذن تتحدد إهتمامات الأنثروبولوجيا الفيزيقية من البداية بأنها دراسة المظاهر البيولوجية للإنسان ، وقد قسم هذا الإهتمام الموضوعى إلى مجالين أساسين ، أولهما ، دراسة الإنسان بإعتباره نتاجاً للعمليات والمراحل التطورية ، وثانيهما، دراسة وتحليل التجمعات البشرية من حيث الخصائص الفيزيقية والسلالية وغيرها. كما أن هناك جانباً هاماً من جوانب البحث فى الأنثروبولوجيا الفيزيقية يتركز حول دراسة العمليات الفعلية ونتائجها للتغيرات البيولوجية التى حدثت وتحدث فى الإنسان ، وإن كان هذا الجانب قد ركز فى بدايته على دراسة عمليات التطور البشرى وعلاقته بالبيئة إلا أنه الآن يرمى إلى دراسة موضوع من أكثر الموضوعات حداثة وهو الموروثات البيولوجية، وذلك من خلال التركيز على دراسة معايير وميكانيزمات الوراثة والأساليب والطرق التى يمكن من خلالها تعديل بعض الخصائص أو السمات الوراثية ، وكذلك الأساليب التى يتكيف الإنسان من خلالها بيولوجيا مع بعض الظروف الطارئة سواء على مستوى الأفراد والجماعات أم على مستوى الأماكن الجغرافية الجديدة [1] ولهذا يمكن القول أن الباحثين فى الأنثروبولوجيا الفيزيقية أخذوا فى الوقت الحاضر فى توجيه إهتماماتهم نحو دراسة عادات التوالد والتكاثر والموروثات وفصائل الدم

(١) انظر فى ذلك :

- محمد عباس ابراهيم، المدخل إلى الأنثروبولوجيا الطبية، الجزء الأول، الثقافة والمعتقدات الشعبية، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية، ١٩٩٢م.
- فاروق عبد الجواد شويقة، مقدمة فى الأنثروبولوجيا الطبيعية والسلالات البشرية، الطبعة الثانية ، دار روتابرنت للطباعة ، القاهرة، ١٩٨٦.

والأنماط المختلفة للنمو، بالإضافة إلى التركيز على فهم الفروق بين كل من الرجل والمرأة . كما يسعى بعضهم نحو إكتشاف العلاقات بين الخصائص الجسمية والسلالية من ناحية، وبين الصفات الذهنية والأنماط السلوكية والأخلاقية من ناحية أخرى ، وهو الأمر الذى يستلزم المزيد من البحوث والدراسات التطبيقية فى الأمر فى هذا الشأن.

الأجناس البشرية وخصائصها :

تعد قضية السلالات البشرية من أهم المشكلات والقضايا البحثية التى تواجه الأنثروبولوجيا ، ذلك العلم الذى يدرس التاريخ الطبيعى للإنسان بكل تبايناته المرتبطة بالعمر والجنس والعوامل البئية والأيكولوجية لما لها من علاقة بطبيعة السمات والصفات السلالية للبشرية جمعاء عبر التاريخ ، وإذا كان الدارسون للسلالات البشرية يوجهون الإهتمام الأكبر لعلم الأنثروبولوجيا ، إلا أنهم يستفيدون إلى حد كبير مما انتهت إليه العلوم الطبيعية والإجتماعية الأخرى مثل علم التشريح المقارن، وعلم وظائف الأعضاء ، وعلم الحفريات، وعلم الآثار، وعلم الأثنوجرافيا (الخاص بوصف السلالات البشرية وعاداتها وتقاليدها وأعرافها) ، وعلم النفس ودراسة اللغات.

ولم يكن موضوع السلالات ودراسته قاصراً على الدوائر والمحافل الأكاديمية فقط، وإنما أخذه دعاة الإستعمار فى محاولاتهم لتوفير أساس تقوم عليه فلسفتهم الرامية إلى غرس الطبقية، وقهر الشعوب الضعيفة وإستعمارها ، وتقديم «مذهب» أو «نظرية» زائفة تذعب تأكيد إنعدام المساواة الجسمية والعقلية بين السلالات البشرية، والتأكيد على وجود سلالات «راقية» وأخرى «منحطتش وأن ثمة سلالات قادرة وأخرى عاجزة عن تحقيق التطور والتقدم الإجتماعى والإقتصادى والثقافى لنفسها.

وتعد دراسة الأجناس Races فى ضوء التطور العلمى نظرياً ومنهجياً -

فرعاً قائماً بذاته من فروع الأنثروبولوجيا ، وهى الدراسة التى تستهدف تفهم الأجناس البشرية من حيث نشأتها وخصائصها وصفاتها وتصنيفها، مع التركيز على دراسة العوامل البيولوجية والإجتماعية والإقتصادية المؤثرة فى تلك الأجناس ، وتختلف الشعوب فيما بينها إختلافاً كبيراً من حيث لون البشرة، ولون العينين ، ولون الشعر ونوعه وكثافته، وشكل الأنف والوجه والرأس والجفون ، وكذا الإختلافات فى طول الجسم وقصره، ودرجة البدانة وغيرها من الصفات التى تختلف بشكل ملحوظ حتى بين شعب البلد الواحد ، ولكن وجود إرتباط معين فيما بينهما ، يشكل خاصية وراثية ثابتة نوعاً ما. ويفيد كأساس لتصنيف أولئك الذين يتصفون بها بإعتبارهم منتمين إلى جنس معين بالذات.

وتشكل المجموعات الإقليمية للأنماط البشرية وفقاً لتصنيف كليميك Kli-mik وهو من أعلام المدرسة الهولندية فى الأنثروبولوجيا إسهاماً واضحاً لتوزيع السلالات فى العالم القديم قبل حركة الكشوف الجغرافية ، حيث قسم السلالات إلى ثلاث مجموعات كبيرة هى:-

أولاً: المجموعة الزنجية Negroid

وتشكل هذه المجموعة مايقرب من ١٠٪ من مجموع أبناء الجنس البشرى ، وتوجد وتتوزع جغرافياً فى المنطقة الأفروأسيوية الإستوائية ، ومن أهم صفاتها وملامحها الرئيسية : السواد القاتم للبشرة ، العيون السوداء ، الشعر الداكن السواد الملفوف أو المبروم بشدة بعضه فوق بعض تاركاً فوق فروة الرأس أو الجسم مساحات خالية من الشعر، ضيق عظام الوجه ، الأنف القصير غير التام، والذى يتميز بالإستدارة وإتساع الفتحتين مع إمتداد الفك العلوى إلى الأمام إلى حد ما، أما الشفتان فتميلان إلى الغلظ والسماكة ، وقد استمدت هذه المجموعة اسمها من طبيعة الصبغة القاتمة للجلد والشعر، والعينين. ومن الجدير بالذكر أن كثيراً من الأنماط الأنثروبولوجية تكون متباينة فى نطاق المجموعة والجنس الزنجى فلدى البعض منهم بشرة فاتحة ، وللآخرين منهم أنف مستقيم ضيق ، ولفئة ثالثة

منهم شفاه متوسطة السماكة ، فى حين نجد فئة رابعة قصيرة القامة وذات سيقان متوسطة الطول بالمقارنة بالجذع.

ويتواجد الجنس والسلالة الزنجية فى جنوب أفريقيا (البوشمان) وأفريقيا الوسطى (الأقزام) وشرق أفريقيا (الأثيوبيون) والمجموعة السودانية الجنوبية . أما الجنس الأسترالى أو الأوقيانوسى فيمثل الفرع الشرقى من الجنس الزنجى الكبير، وفى كثير من الأحيان يكون الشبه بينهما كبير لدرجة أن علماء الأنثروبولوجيا يجدون صعوبة فى التمييز بينهم.

ثانيا: المجموعة القوقازية Caucasoid

ويشكل مجموعها مايقرب من ٤٠٪ من مجموع أبناء الجنس البشرى، وعلى الرغم من أن هذه المجموعة سكنت حوض البحر الأبيض المتوسط شمالاً وجنوباً وشرقاً ، إلا أنها تعرف فى كثير من الكتابات بالجنس الأوروبى الكبير، وهى تحتل فى عددها مايقرب من نصف أبناء الجنس البشرى على الأرض. وقد انتشر الجنس الأوروبى فى أرجاء العالم بعد إكتشاف أمريكا وأستراليا ومن ثم الهجرة إلى جنوب أفريقيا.

أما عن الصفات الفيزيقية لهذه المجموعة السلالية فيمثل لون البشرة فيها من الفاتح إلى الغامق حتى يصل إلى البنى، ويتميز الوجه باللون المائل إلى الإحمرار أو اللون الوردى ، ويتميز شعر الرأس بالنعومة والتموج والإستقامة وتباين لون الشعر من الفاتح إلى الغامق، كما تتميز المنطقة الوسطى من الوجه والواقعة بين جذر الأنف ونقطة «ستوميون» - وهى النقطة الفاصلة بين الشفتين - بالإستطالة والإستقامة وعدم النتوء ، أى أن هذه المجموعة تتميز بوجه معتدل. أما الأنف فهو مدبب ويتميز باستقامة القصبة الأنفية، وعلوها مع ضيق فتحتى الأنف، كما تتميز الشفتان بأنهما رفيعتان أو متوسطتان ، وليس بهما امتداد إلى الأمام كما هو الحال فى المجموعات السلالية الأخرى.

وتنقسم المجموعة القوقازية إلى سلالتين كبيرتين :

الأولى : الجنس الأوروبى الجنوبى ويشمل أوروبا - والبحر المتوسط - والهند.

الثانية : الجنس الأوروبى الشمالى وتشمل أوروبا - منطقة الأطلنطى - والبلطيق.

هذا وقد توجد بعض الفروق الطفيفة فى الصفات الوراثية بين السلالتين ، كما توجد بين السلالتين مجموعات أو فئات سلالية صغيرة لها أنماط أنثروبولوجية وفيزيقية ذات فروق فى لون الشعر والعينين وحجم الرؤوس والجماجم وطولها وعرضها. وعموماً فإن المجموعة القوقازية تتميز بطول القامة واستقامتها.

ثالثاً: المجموعة المغولية Mongoloid

ويشكل مجموعها مايقرب من ٥٠٪ من مجموع أبناء الجنس البشرى وتسمى أحياناً بالجنس المغولى أو الآسيوى أمريكى ، ويوجد الجزء الأكبر من الجنس المغولى فى آسيا وخاصة فى المناطق الشرقية والشمالية والجنوبية الشرقية، كما انتشر الجنس المغولى عبر القارة الأمريكية ، كما تمتد الملامح الفيزيقية والأنثروبولوجية للجنس المغولى عبر الأراضى الآسيوية للإتحاد السوفيتى وفى مناطق عديدة منه.

ومن أهم الملامح والصفات الرئيسية للمجموعة المغولية الكبرى تميزها ببشرة فاتحة تميل أحياناً إلى الإصفرار أو الإصفرار المختلط بالحمرة ، كما يتميز الشعر بالخشونة والإستقامة، واللون الأسود وكقاعدة عامة بين رجال هذه السلالة يكون ظهور شعر الشارب واللحية فى مرحلة متأخرة وبدرجة قليلة فى النمو أما الجسم فمنعدم الشعر فى كل الأحوال.

وينقسم الجنس المغولى الكبير إلى ثلاث سلالات :

الأولى: المغوليون الشماليون أو سكان القارة الآسيوية.

الثانية: المغوليون الجنوبيون أو الآسيويون الذين يطلون على المحيط الهادى.

الثالثة : المغوليون الأمريكيون.

وعموماً فالجنس المغولى الجنوبى ينتشر فى جنوب شرق آسيا وغالبية المنتمين لهذا الجنس من الملاويون ، وأهل جاوه ، وأهل سندا ، ويتميزون بالبشرة القاتمة ، والوجه الضيق، والشفاه المتوسطة، وأحياناً تكون غليظة نوعاً ما، مع إتساع فتحتى الأنف نسبياً ، وتموج شعر الرأس. أما من حيث الطول فإنهم أقصر من المغوليين الشماليين ، وأقصر بكثير من الصينيين.

أما الشماليون من الجنس المغولى فيتميزون بالوجه العريض ، وضيق فتحتى العينين، وميلهما إلى اللون البنى ، مع ميل الزاوية الخارجية من العين إلى أعلى من الزاوية الداخلية، ومع وجود ثنية ملحوظة على الجفن العلوى ممتدة حتى الرموش عابرة إلى الجفن الأسفل بحيث تغطى الزاوية الداخلية من العين تماماً أو جزئياً، وتعرف بالثنية الجفنية المغولية ، ويتميز الأنف بقنطرة منخفضة.

أما الجنس المغولى الأمريكى فهم الهنود الأمريكيون الذين يتميزون بالطابع المتوط للملامح المغولية ، مع ظهور بعض الخصائص التى تجعلهم قريبين من الأنماط الأنثروبولوجية الأوروبية ، وهم يتميزون بسواد البشرة ، والشعر الخشن المستقيم، ويتميز الجلد بلونه البنى المائل إلى الاصفرار، والعينان بنيتان داكنتان، كما يتميزون بملامح الوجه العريض ، بينما تتميز أنوفهم بأنها ذات عصبة أو قنطرة متوسطة، وأحياناً عالية مما يجعلها قريبة بالقوقازيين وخصوصاً الأوروبيين[1].

---

[1] Brues: Alice; M.; People and Races, Macmillan Publishing Co. Inc, New York. 1977 pp. 109-140.

وعموماً ففى هذه المجموعات البشرية الكبرى (القوقازية - المغولية - الزنجية) يوجد عدد من السلالات والسلالات الفرعية، والبعض منها يسمى بالسلالة الرئيسية وذلك فقط لسهولة الدراسة إذ أنه لايوجد الآن أى مجموعة يمكن أن نطلق عليها سلالة رئيسية ، بينما البعض الآخر الناتج من إختلاط السلالات مع بعضها تسمى سلالات مختلطة أو مركبة [1] مثل السلالة الرئيسية للبحر المتوسط التى تدخل تحت المجموعة القوقازية والتى تنقسمبدورها إلى سلالات فرعية فى أوروبا وفى غرب آسيا والهند وشمال شرق أفريقيا.

ومثل هذه التقسيمات مفيدة فى تتبع الخطوط العريضة لدرجات التشابه والقرابة بين المجموعات المختلفة إذ يبدو أنه بدون هذا التقسيم تصبح دراسة المجموعات البشرية أمراً صعباً وذلك نتيجة لإختلاط وتداخل المجموعات البشرية مع بعضها وهنا يجب أن نلفت النظر إلى أن تقسيم المجموعات البشرية إلى سلالات أو إلى جماعات من البشر يتصفون بصفات وراثية معينة تميزهم كمجموعة، وتفصلهم عن غيرهم من الجماعات البشرية ، ففى كل بقعة من بقاع العالم نجد أن السلالات وكذلك السلالات الفرعية متدرجة مع بعضها وأن هناك فى أغلب الأحيان تداخل بين المجموعات المتجاورة، ولايوجد حد فاصل إلا عند وجود الحواجز الطبيعية كالصحراء الكبرى مثلاً . وغالباً مايكون تقسيم البشر إلى سلالات معتمداً على الصفات الجسمية والسطحية المكونتان للمظهر الخارجى للإنسان [2].

ويوضح الجدول التالى مدى التفاوت فى توزيع المجموعات السلالية الثلاث الرئيسية حسب الإحصاءات التى تمت فى عام ١٩٧٠ [3] وهى كالتالى:

(1) Sergi.G., The mediterran ean Race, Turin, London. 1908.

(٢) يسرى الجوهرى ، السلالات البشرية ، الاسكندرية ١٩٦٨، ص٢٩٦.

(٣) محمد رياض، الإنسان، دراسة فى النوع والحضارة، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٤، ص١٢٨.

الأقليم	القوقازيون		المغوليون		الزنوج	
	بالمليون	٪	بالمليون	٪	بالمليون	٪
أوروبا عند الإتحاد السوفيتي	٤٥٠	٢٣,٦				
الأتحاد السوفيتي	٢١٠	١١	٣٥	٨,٤		
آسيا عند الاتحاد السوفيتي	٧٥٨	٣٩,٨	١٢٠٠	٨٧,٣	٦٥	١٦,٤
أمريكا الشمالية	٢٠٠	١٠,٥	٢	٠,٢	٣٠	٧,٦
أمريكا اللاتينية	١٩٠	١٠	٥٣	٣,١	٤٠	١٠,١
أفريقيا	٨٠	٤,٢	١٠	٠,٨	٢٦٠	٦٥,٥
الأوقيانوسية	١٦	٠,٨	١	٠,٧	٢	٠,٥
العالم	١٩٠٤	٩٩,٩	١٣٠١	٩٩,٩	٣٩٧	١٠٠,١

ومن الجدير بالذكر أن هذا التباين الواضح فى توزيع عدد أفراد سلالات الإنسان المعاصر ليس ثابتاً ، إذ يتغير دائماً من سنة إلى أخرى كما تتغير إتجاهات الهجرات ومواطنها الإقليمية ، ويبدو أن من أهم عوامل هذا التغير درجة رقى وتقدم أفراد كل مجموعة سلالية وإرتقائهم الحضارى، هذا الإرتقاء الذى ينعكس على مستوى استغلالهم للبيئة الطبيعية، مما يسر لهم أنماطاً متقدمة من الغذاء الذى يعطى هو وغيره من وسائل التقدم الثقافى الأخرى الفرصة لإستقرار الإنسان وتزايد أعداده بنسب كبيرة، فمثلاً إتضح أن الفدان المزروع أرزاً (وهو الغذاء السائد بين أفراد السلالة المغولية) يمكن أن يغطى إحتياجات ٢٥ فرداً من الغذاء بينما يستطيع الفدان المزروع بطاطس (وهو الغذاء الرئيسى لدى أفراد السلالة القوقازية خاصة الشعبة المستقرة فى غرب أوروبا والتى اعتمد عليها التوسع القوقازى فى العالم الجديد مع حركة الكشوف الجغرافية وبعدها يمكنه أن يغطى الإحتياجات الغذائية لنحو ٢٢٥ فرداً ، وهذه الصورة والمقارنة لاتفسر فقط تباين عدد أفراد السلالات بل أيضاً تفسر الكثير من أسباب هجرات وحركات بعض الشعوب والسلالات.

الصفات السلالية بين الأجناس :

هى الصفات التى تشكل إلى حد ما خاصية وراثية ثابتة نوعاً ما، وتعتمد كأساس لتصنيف أولئك الذين ينتمون إلى سلالة معينة أو ينتمون إلى جنس معين، ومنها مايلى :-

١- اللون

يتحدد بواسطة كل من البشرة ، والشعر ، وقزحية العين ، وتتوقف درجة اللون بين الفاتح والقاتم على صبغة معينة تفرز بالجلد تسمى «ميلانين» وتوجد فى الجسم على شكل بلورى وآخر محلول ، وتتوقف كثافة اللون على كمية البلورات الصبغية وحجمها داخل الجسم فمثلاً الجماعات الزنجية تكون لديهم صبغة أكثر وأكبر من تلك الموجودة لدى الجماعات السلالية الأخرى. إلى جانب أن الظروف المناخية والعوامل الإجتماعية والحالة الصحية العامة التى يتمتع بها الإنسان كل ذلك له تأثير قوى فى تحديد لون البشرة أما عن درجات تحديد لون البشرة وفقاً للمقياس الوصفى لها فهى : بشرة قاتمة اللون وهى بنية قاتمة ، أو كالحة السواد ، وبشرة متوسطة اللون ، وهى التى تميل إلى السمرة أو البنى الفاتح، والبشرة الفاتحة اللون ، وهى الوردية أو التى تميل إلى الإصفرار.

٢- طول الجسم :

يعد طول الجسم أو طول الفرد من الصفت والمقاييس والملامح العامة الهامة ، وهى درجات بين الطول والقصر تختلف بإختلاف النوع (الذكور والإناث) والسن وإختلاف التوزيع السلالى الإقليمى ، كما تلعب الظروف الإجتماعية والإقتصادية وممارسة الرياضات دوراً لايستهان به فى التأثير على هذه الصفة ، وعموماً فإن درجات طول الجسم تتباين داخل المجموعات السلالية وتكون مقاييسها الأنثروبولوجية لطول الجسم محصورة بين ١٤٢ ، ١٨١ سنتيمتر ، بينما يصل المتوسط العام لطول الإنسان إلى حوالى ١٦٥ سنتيمتر.

٣ - ملامح الوجه :

يلعب النمو العظمى للوجه دوراً هاماً فى تحديد الملامح الأساسية لوجه الإنسان ككل كما أنه من خلال تلك الملامح المرتبطة بعظام الوجه تتحدد الفروق بين الذكور والإناث ، وتعتمد كثير من التصنيفات والمقاييس الأنثروبومترية على قياس درجة بروز الفك أو البروفيل الرأسى وهو قياس المدى النتوئى إلى الأمام والخاص بالمنطقة العليا أو الأنفية، ويساعد النتوء الفكى العلوى أو مايسمى بروز الفك العلوى إلى الأمام على تحديد درجات قياسية تتراوح بين الإمتداد القوى أو المتوسط أو الضعيف. وهكذا يتحدد شكل بروفيل الوجه ومظهره فى ضوء درجات النتوء العلوى للوجه فمثلا لدى القوقازيين الأوروبيين يكون الوجه ضيقاً ذو بروفيل ضيق ممتد إلى الأمام. أما لدى غالبية المغوليين فيكون الوجه واسعاً ومسطحاً، وذو بروفيل مسطح.

أما عن تصنيف الرؤوس وفقاً للنسبة الرأسية ، وهى النسبة بين عرض الرأس وطوله ويعبر عنها على النحو التالى :

$$\frac{\text{العرض} \times 100}{\text{الطول}}$$

وتعد الرؤوس ذات النسبة الرأسية التى تصل إلى ٧٥,٩٪ قصيرة ، والرؤوس التى تصل فيما بين ٧٦٪ ، ٨٠,٩٪ رؤوساً متوسطة ، وتلك التى تبلغ ٨١٪ فأكثر رؤوساً طويلة.

وتستخدم نفس نسبة القياس فى تحديد نسب الجماجم وتكون الأرقام فيها أصغر بعض الشىء عن أرقام النسبة الرأسية ، وتمتد الجماجم المتوسطة فيما بين ٧٥٪ و ٧٥,٩٪ أما تلك الجماجم التى تقل نسبتها عن هذا فتعتبر قصيرة . وتلك التى تزيد عن ذلك طويلة.

٤- الشعر . اشكاله ولونه :

الأشكال السائدة للشعر بين أفراد الجنس البشرى ثلاثة : هى المستقيم أو المسترسل ، والمموج ، والمفلفل أو الأكرت ، وقد يتميز الشعر بالنعومة أو الخشونة ، كما أن درجات لونه تميل مابين الأسود ، والأسود الداكن والبنى ، والبنى الفاتح والمائل إلى الإصفرار . كما يتغير لون الشعر تبعاً للفروق بين الجنسين ، وتبعاً للفوراق فى درجات السن والتقدم فى العمر . كما أن درجات نمو الشعر وتوزيعه على الجسم يعد ملمحاً من ملامح التميز بين السلالات خاصة شعر الشارب والذقن ، والكتفين ، والصدر ، وبقية أجزاء الجسم. وفى بعض الأحيان تختلف درجات نمو الشعر الجسم لدى البالغين لدى الكبار من الكثافة الشديدة أحياناً ، إلى الإنعدام الكامل أحياناً أخرى.

٥- الأنف وشكل العينين :

يتحدد شكل الأنف وملمحه عن طريق ارتفاع قصبة الأنف وإتساع جانبيه والمظهر العام لشركته ، وإتجاه فتحتيه فهناك الأنف المفلطح، والأنف المدبب المائل إلى الأمام المقوس أو المعكوف ، وهناك الأنف الذى يتميز بضيق الفتحتين ، والأنف الذى يتميز باتساع الفتحتين.

أما شكل العينين فيتوقف على درجات إنثناء كلا من الجفن العلوى وحكمه، والجفن السفلى ، كما يتوقف شكل العينين على مدى فتحة العين أو ضيقها ، وهذا بدوره يتوقف على الطريقة التى ينثنى بها الجلد وعلى سمك اللحمة المكونة للجفن ، وهى تختلف من سلالة إلى أخرى بل ومن شخص إلى آخر. أما لون العينين فيتدرج مابين الأزرق والأسود والعسلى.

٦ - الشفتان :

تنقسم الشفاة الخاصة بالجنس البشرى حسب التصنيف والمقاييس الأنثروبولوجية إلى أربع مجموعات أساسية هى : الشفاة الرفيعة ، والمتوسطة ،

والسميكة ، والسميكة جداً أو الغليظة . وتنطوى هذه التفرقة على أهمية الأجزاء المكونة للشفة وهى الجزء الخارجى أو الجلد ، والشفة الحقيقية والغشاء المخاطى الداخلى للشفة ، وتعد الشفة الحقيقية ذات اللون الأحمر وبعد إستخلاص قياس سمك الجلد عنها من أهم الأجزاء التى يستند عليها الأنثروبولوجيين فى تصنيفاتهم وإظهار الفروق القياسية بين الجنس البشرى [١].

وفيما يلى نستعرض بإيجاز أهم الصفات الفيزيقية للمجموعات السلالية الثلاث الرئيسية ، كما عرضها هوتون [٢] وهى :-

الصفة	القوقازيون	المغوليون	الزنوج
لون البشرة	أبيض - أبيض وردى- بنى فاتح	أصفر - أصفر يميل إلى الإحمرار - أصفر مائل للبنى	أسود داكن - أسود - بنى غامق - بنى مائل للإصفرار
القامة	طويلة - متوسطة	متوسطة الطول - متوسطة القصر	طويلة- قصيرة جداً- قزمية
شكل الوجه	ضيق - متوسط العرض- مسحوب يميل إلى الإرتفاع - ليس به بروز	عريض جداً- استواء الوجنات وارتفاعها	ضيق ومتوسط العرض- يميل للإرتفاع - به بروز واضح
شكل الرأس	طويلة - متوسطة الإرتفاع	عريضة جداً - متوسطة الإرتفاع	طويلة جداً منخفضة الارتفاع
شعر الرأس	أشقر - ناعم - مموج- مستقيم	بنى - خشن - مستقيم قصبة أنفية متوسطة	بنى غامق - أسود - خشن أكرت - مفلفل
الأنف	قصبة أنفية مرتفعة- فتحتان ضيقتان	الإنخفاض - فتحتان متوسطتان	قصبة منخفضة جداً- فتحتان واسعتان

(1) Brues. Alice M.; People and races, Op Cit., pp. 228-240
(2) Hoton. E.A. Up From the Ape. Macmillan. New York. 1964 pp. 616-627.

هذا وتستخدم الكثير من الطرق والأجهزة لدراسة وقياس الملامح السلالية وهى تستخدم فى قياس طول الأعضاء وتحديد صفاتها كلون العينين والبشرة والشعر ، وشكل الجفون والعين والشفاه، هذا وقد سجلت العديد من الملامح السلالية بإستخدام الصور الفوتوغرافية والأفلام المرئية والرسم بالأيدى، كما جمعت عينات لاحصر لها من العظام والجماجم والشعر وكان لإسهام الدراسات التشريحية لمختلف أجزاء الجسم دور لايستهان به أدى فى النهاية إلى قيام فرع جديد فى الدراسات الأنثروبولوجية يعرف باسم علم دراسة الجماجم.

ويستخلص من المعلومات الوصفية الهائلة التى يتم جمعها معالجات إحصائية تتسم فى أغلب الأحيان بأنها على جانب كبير من التعقيد ، وتسجل نتائجها فى جداول ورسوم بيانية تسهم بدورها فى التحليل السلالى ، ومن أجل تقديم وفهم أفضل الطرق التى تطور بها شعب ما ، ومدى مايوجد به من إختلافات فيزيقية يمكن رصدها وتحديدها.

وعلى الرغم من وجود إختلافات ملحوظة فى الصفات والمقاييس الأنثروبومترية للأجناس. إلا أن تلك الأجناس ترتبط إتباطاً مباشراً مع بعضها على الأقل فيما يتعلق بالمظهر الخارجى لبنى البشر . فالأجناس ترجع لأصل مشترك على الرغم من النظر إليها أحياناً كمجموعات بيولوجية مكونة من أفراد تتشابه فيما بينهم الصفات والملامح نسبياً. ولكن لايمكن النظر إليها كمداخل مختلفة من التطور ، فكل جنس من هذه الأجناس يتميز بتركيب محدد من الملامح ولكنه متغير من الناحية الوراثية نظراً لما تقوم به ظروف الحياة الطبيعية والأحوال الاجتماعية والإقتصادية من تأثير مشترك على النواحي الوراثية.

التصنيف السلالى :

فى الوقت الذى اتجهت فيه جهود العلماء إلى الإهتمام بتفسير وتحليل التصنيف السلالى للجنس البشرى ، والإجتهاد فى وضع السمات والخصائص

المميزة لكل سلالة رئيسية على حدة ، تدفق تيار الهجرة وزادت نزعة الإنسان تجاه التنقل والإختلاط بالآخرين مع وجود قدرة الجينات الواسعة على الإتحاد والتركيب ، وهو أمر زدى إلى انهيار العزلة الإقليمية ، والعزلة العرقية أو السلالية، فبات الأمر أكثر صعوبة أمام واضعى التصنيفات البشرية والباحثين عن الصفات والملامح الأساسية.

وكانت أولى المحاولات فى التصنيف على أيدى العلماء الفرنسيين منذ عام ١٧٥٨م عندما قسم لينيه Linne الجنس البشرى إلى أربع مجموعات رئيسية هى : الأوروبى ، والآسيوى والأفريقى ، والأمريكى ، ثم تبعه بعد ذلك عدد من العلماء الفرنسيين كان أكثرهم شهرة فى هذا المجال العالم الفرنسى ج. دينكر J. Deniker[1] والذى مكنته وظيفته التى يقوم بها كأمين لمكتبة متحف التاريخ الطبيعى فى باريس من الإطلاع على أكبر قدر من الكتب والدراسات مما كتب عن المستعمرات الأوروبية فى أفريقيا وآسيا. وأهم مايميز تصنيف دينكر بساطته القائمة أساساً على تصنيف الشعر ولونه حيث قسم الشعر إلى ستة أنواع رئيسية اتخذها أساساً لتصنيف السلالات والجماعات الفرعية ، وتلك الأنواع هى :-

١- الشعر المسترسل .

٢- الشعر المسترسل الأسود.

٣- الشعر المموج الأشقر.

٤- الشعر المموج البنى أو الأسود.

٥- الشعر المفلفل أو الأكرت.

٦- الشعر المجعد الصوفى.

---

(١) انظر فى ذلك :
The Races of Man, Macmillan, New York, 1992. pp. 43-61.

ثم أضاف دينكر إلى تصنيفه بعض الأسس الأخرى مثل نسب الوجه والرأس وإرتفاع القامة ولون العينين ووصف الأنف.

وإلى جانب المدرسة الفرنسية فى التصنيف أسهمت المدرسة السوفيتية بنصيب لابأس به على أيدى علمائها وهم ى.ى. روجنسكى Roguinski LL، ن.ن تشيبو كساروف Techebokasarov N.N.، و ف. بوناك Bounak. V.، ويعد الأخير خير من قدم فى هذا المجال[١] ومن الجدير بالذكر أن أنصار المدرسة السوفيتية كانوا يميلون بوصفهم دعاة للمذهب الإشتراكى إلى ضرورة تدخل الإنسان وثقافته فى إذابة الفروق بين السلالات البشرية ، ولايعتقدون مطلقاً بل ويحاربون فكرة نقاء الجنس دون الآخر على أساس المقومات والملامح الفيزيقية ، ويرون أن التطور التاريخى كفيل بإزالة الفوارق والنزعات الإنعزالية بين المجموعات السلالية.

كما أسهم البريطانيون منذ العقد الثانى من هذا القرن وعلى أيدى الأنثروربولوجى البريطانى هادون Haddon, A.C. بدورهم فى تصنيف السلالات البشرية الكبرى، حيث استند هادون إلى شكل الشعر بإعتباره أداة رئيسية للتصنيف بين المجموعات المغولية، والقوقازية والزنجية، ثم تبع هادون بعد ذلك الأنثروبولوجى البريطانى هوتون Hooton- والذى أشرنا إلى جهوده فى الصفحات السابقة من هذا الفصل - منذ منتصف القرن العشرين حيث قدم هوتون تقسيماً بين السلالات الرئيسية قائماً على التفرقة بين لون الشعر وطبيعته، ولون العينين وطبيعتهما، وشكل الرأس بكل مجموعة . ورأى أن المجموعات الرئيسية الكبرى هى البيض والزنوج والمغرل ، وإلى جانب ذلك توجد سلالات فرعية أخري جاءت نتيجة لعوامل التزاوج وظهور الطفرات الكامنة

(1) Nesturph MM.: The Races of Man Kind, J. Wiley, New York, 1995.

والتكيف البيئى والإنتخاب أو الإختيار بين الجماعات السلالية [1].

أما أشلى مونتاجو Montagu, A. فقد أسهم بدوره فى عرض تصنيف للسلالات البشرية ، يقوم على تحديد الجماعات السلالية وراثياً بأنها تختلف عن غيرها من الجماعات وذلك نظراً للإختلافات فيما بينها جميعاً فى تردد الجينات أو تبادلها بينما هى أكثر قدرة على التبادل داخل الجماعة الواحدة رغم مايوجد أمامها من حواجز جغرافية أو اجتماعية. هذا وقد اتخذ مونتاجو من الفروق القائمة بين لون الشعر ، وشكل الأنف وشكل الرأس أنماطاً فيزيقية للتفرقة بين الجماعات السلالية الرئيسية والتى يحددها فى المجموعة القوقازية، والمجموعة المغولية ، والمجموعة الزنجية، والمجموعة الأسترالية أو مايطلق عليهم بالقوقازيون القدماء.

ولم تتوقف محاولات التصنيف السلالى عند مجهودات العلماء الأفراد فقط، وإنما كان للمنظمات والهيئات الدولية إسهاما الواضح فى هذا الشأن حيث قدمت هيئة اليونسكو دعوتها لعلماء الأنثروبولوجيا الفيزيقية والبيولوجية للإجتماع فى عام ١٩٤٩ ، وجاءت نتائج هذا الإجتماع مشيرة إلى مايعرف بتصنيف اليونسكو للسلالات البشرية على النحو التالى[2] :

أولاً: المجموعة القوقازية Coucasoid Races

وتتميز بلون البشرة الأبيض والشعر المموج ، الأنف الضيق المعتدل المائل إلى الأمام ، والجمجمة العريضة ، وطول القامة مابين ١٥٥ سم إلى ١٧٥ سم وتنقسم هذه المجموعة إلى مايلى:

---

(1) Haddon, A.C.; The Races of Man; Cambridge University Press, 1924, pp. 163-169.

- Hooton, E.A/; Up From the Ape. Op. Cit. pp. 278-288.

- Montagu, A.; An Introduction to Physical Anthropology, third Edition, Spring Field, Charles Thomas, 1960.

(٢) كلايد كلاكهون، الإنسان فى المرآة ، ترجمة شاكر مصطفى سليم، المكتبة الأهلية، بغداد ، ١٩٦٤، ص٩٦٢ ومابعدها.

أ- القوقازيون . ويتواجدون فى :

السلالات الفرعية	أماكن تواجدها
الأرمن	آسيا الصغرى
البحر الأبيض المتوسط	حوض البحر الأبيض المتوسط
الشماليون (النورديون)	فى وسط أوروبا واسكندنافيا
الديناريون	شرق جبال الألب من سويسرا، ألبانيا، آسيا الصغرى وسوريا
الألبى	فرنسا حتى روسيا بإمتداد جبال الألب
البلطيق	شرق بحر البلطيق
الهنود الشرقيون	الهند وجزر الهند الشرقية
البولينزيون	بولينزيا

ب - الأستراليون أو القوقازيون القدماء Archaic Coucasoid

وينقسمون إلى :-

السلالات الفرعية	أماكن تواجدها
الاستراليون	استراليا
الفيدا الهند	جزيرة سيلان
آسلاف الدرافيدين	الهند
الأنو	اليابان (خصوصاً فى جزيرتى هوكايدو وريوكيو)

ثانيا: المجموعة المغولية Mongoloid Races

ويتميزون بلون البشرة المائلة إلى الإصفرار تارة والسمرة تارة أخرى ، والشعر مستقيم مائل إلى الخشونة ، والجمجمة عريضة مع ظهور بعض النتوءات فى

بروفيل الوجه، وفتحتى الأنف متوسطتان مع أنف معتدلة فى شكلها العام. وطول القامة يتراوح مابين ١٤٥ سم، ١٧٠ سم، وتتكون هذه المجموعة من :

أ - الاسيويون القدماء Palaesiatics وهم :

السلالات الفرعية	أماكن تواجدها
التونكسيون الأصليون	هضاب آسيا وجبال الهيمالايا
الهنود الحمر	الوسط والجنوب والشمال الغربى لأمريكا
الأسكيمو	المناطق القطبية الشمالية لأمريكا الشمالية وآسيا

ب - الاسيويون المحدثون Neausiatics وينقسمون إلى :

السلالات الفرعية	أماكن تواجدها
الأندنيسيون	أندونيسيا
السامينون	جزر الكولا والشمال الغربى لروسيا
الجنكجيون	مناطق سيبريا
اليابانيون	اليابان
الصينيون	الصين
الكوريون	كوريا

ثالثا : المجموعة الزنجية Nigroid races

ويتسمون بلون البشرة الأسود ، والشعر الأكرت ، والأنف العريض المفلطح ، والجمجمة الطويلة أحياناً ، ويتواجدون فى :

السلالات الفرعية	أماكن تواجدها
الأقزام والأفريقيون	أفريقيا الاستوائية
أقزام المحيط	غينيا الجديدة
أقزام آسيا	جزر الأندمان ، الفلبين، الملايو
الزنوج الأفارقة	وسط وجنوب وغرب أفريقيا

الإنسان والوراثة :

اكتسب علم الوراثة أهمية كبيرة لافى الوقت الحاضر فحسب ، بل منذ أن بدز الاهتمام بملاحظة مدى الاختلافات والتغيرات والفروق التى تطرأ على الجنس البشرى ، ويهتم علم الوراثة بدراسة الأسس التى تنتقل بها الصفات الوراثية للكائن الحى من السلف إلى الخلف ، ومن هنا تعتمد الوراثة على فهم القواعد البيولوجية الحاملة للصفات، إضافة إلى عوامل أخرى تلعب دوراً فى عملية الوراثة.

وقد أمكن ملاحظة الوراثة فى الإنسان منذ وقت مبكر من خلال الوحدات البسيطة المكونة للجسم والتى هى عبارة عن الخلايا Cells الحيوانية المركبة من مادة السيتوبلازم ، والتى يغلفها غشاء رقيق ويوجد بداخلها نواة أو أكثر تسمى البلازما النووية ، وهى التى تقوم بوظيفة تنظيم نشاط الخلية ، والأكثر من ذلك أن تلك النواة هى وحدها الحاملة للخصائص والصفات الوراثية، وعلى الرغم من صغر حجم الخلية إلا أنها تتكون من نسبة عالية من الماء تصل إلى مابين ٧٠٪ رلى ٩٠٪ من حجمها إضافة إلى عناصر أخرى أقل ولكنها أساسية مثل الأكسوجين ، والنيتروجين ، والبوتاسيوم والصوديوم، والكبريت ، والماغنسيوم، والفسفور ، والكلور، والحديد ، والنحاس، واليود ، والمنجنيز[1] وتقوم

(1) Gom. Colemanj. & Goin, Ogive B.; man and The Natural World Macmiilan Company, New York, 1973, pp. 17-20.

الكروموستات Chromosomes وهى الخيوط الوراثية المكونة من عدد من الجينات Genes أو المورثات الحاملة للحمض النووى الوراثى والمعروف باسم deoxyribonucleic Acid ويختصر فى الأوساط العلمية والبحثية بـ DNA، وباختباره وتحليله معمليا يتم التوصل إلى معرفة الشفرة الوراثية المعقدة فمثلاً يوجد فى جسم الإنسان نوعان من الخلايا ، الأولى الخلايا المكونة للجسم وهى تتكون من ٤٦ كروموسوم أو خيط وراثى ، والثانية هى الخلايا الجنسية وهى عبارة عن حيوان منوى Sperm يحمل ٢٣ كروموسوماً للذكر، وبويضة Ovum تحمل ٢٣ كروموسوماً للأنثى. وعند إلتقاء الحيوان المنوى للذكر ببويضة الأنثى يتم الإخصاب والإتحاد فيما بينهما عن طريق الجينات أو المواد الحيوية، ومن ثم تتكون الخلية الأولى نصفها محمولاً من صفات الذكر ، ونصفها الآخر محمولاً من صفات الأنثى ، وهكذا تكون الخلية المتحدة بداية الطريق لتشكل وتكون الجنين فى بطن الأم.

ولكن من الجدير بالذكر أن السمات والخصائص الوراثية لدى الإنسان لا تنتقل فقط عن طريق «جين» واحد وإنما هى نتاج لإتحاد كم هائل من الجينات الحاملة للصفات الوراثية لكل من الأب والأم هذا بالإضافة إلى عدد من العوامل البيئية والإجتماعية، وفوق كل ذلك حكمة القدر والتدخل الإلهى فى الخلق والتكوين[1].

ويرتبط بفكرة وخاصية الوراثة مايعرف بالشفرات الوراثية المتجانسة، وكذا الشفرات الوراثية الغالبة أو المسيطرة ، ويحدث التجانس بين الجينات عندما يكون التأثير متبادلاً بين الجينات المتناظرة ، أما الإنحراف أو الغلبة أو السيطرة فغالباً ماتحدث عندما تكون تأثيرات الجينات المتناظرة غير متكافئة فيغلب تأثير أحدهما على الأخرى. وهذا فى حقيقة الأمر راجع إلى التفاوت فى عدد

ntagu, a. Human Heredity; John Wiley & sons. New York. 3 pp. 58-61.

الكروموسومات وعدد الجينات المنتظمة إلى جوار بعضها كالعنقود أو حبات المسبحة والمكونة للحبل أو الخيط الكروموسومى ، وهذا التفاوت له إنعكاسات واضحة يمكن ملاحظتها على السمات والخصائص الوراثية الظاهرة منها وغير الظاهرة ، والتى تظهر فى حالات التزاوج والتناسل والقرابة البيولوجية.

الهندسة الوراثية :

بعد التوسع الهائل فى النشاط العلمى أمر يبعث على الرضا والغبطة ، ولكنه مع ذلك ، ليس نعمة خالصة تماماً ، فالمرء قد يغتبط إذ يرى المعدل الهائل لنمو ذخيرة المعرفة البشرية التى تحدث فى فترة حياته. ولكن مقدار هذه الذخيرة قد فاق إلى حد كبير قدرة أقوى من العقول البشرية ذاتها على إستيعاب كل المعرفة، فلقد مضى إلى غير رجعة ذلك الوقت الذى كان يلم فيه الباحث أو العالم إلماماً تاماً بحالة العلم، فهذا الأمر ليس فقط يعد مستحيلاً الآن، وإنما هو بالنسبة إلى العالم أمر غير مرغوب فيه، ذلك لأن تقدم العلم يتحقق أساساً على أيدى المتخصصين، وكلما إتسع العلم إزداد نطاق التخصص ضيقاً ، وقد أصبح بعض المتخصصين يعملون فى مجالات ضيقة إلى درجة تبعث على الإشمئزاز والواقع أن المتخصصين فى حدود ضيقة فى البحث معرضون للخطر فى الوقت الذى هم فيه خطرون على أنفسهم، معرضون للخطر لأن حياتهم الباطنة ذاتها تصبح عقيمة مجدبة، وخطرون لأنهم عرضة لأن يقعوا فرائس سهلة لإستغلال أصحاب القوة والمال فى أغراض ضارة بالعلم ومصالح الجنس البشرى بصفة عامة.

ويواجه العلم تناقضاً قاسياً ، ذلك لأن نموه ذاته هو الذى يشكل أخطر تهديد. فالعلم مهدد بأن يتحول إلى نوع من الأسرار التى لايمكن تداولها مثل العلوم العسكرية والعلوم الإستراتيجية وغيرها.

علم الوراثة وميدانه يعد محاولة لتقديم عرض شامل لما يمكن أن ينصب عليه

الإهتمام بالجوانب الإنسانية ، والحقائق والأفكار ذات الصلة الوثيقة بالإنسان فى أصله وحاضره ومستقبله ، وعموماً فإن إدراك الإختلافات والفوارق بين بنى البشر قد يكون أيسر من إدراكه لدى غيرهم من الممالك والمخلوقات الأخرى. ومع ذلك فإن مايجعل الناس مختلفين بعضهم عن بعض ليس أمراً قليل الأهمية، وذلك إذا أردنا أن نفهم رفاقنا من بنى البشر كى تعيش معهم فى درجة معقولة من الإنسجام والتآلف، ويرد تفسير الإختلاف والتباين بين بنى البشر إلى تيارين أساسين :

الأول : يفترض أن التباين بين البشر إنما يرجع إلى تباين وراثاتهم أى طبائعهم، أما الثانى : فيرد التباين والإختلافات بين الناس إلى بيئاتهم المختلفة زي إلى الطرق المختلفة فى تنشئتهم أو تطبعهم.

وعلى الرغم من بساطة الفكرتين السابقتين إلا أنهما قد صيغتا فى صور عدة ، بل وتشكلت على أساسهما مذاهب ومعتقدات إيمانية ونظريات علمية، وصار للمذهب الوراثى أنصاره ، وللمذهب البيئى أنصاره ومؤيديه. ومن الإنصاف أن نقول أن كلتا النظريتين متساويتان فى عدم صحتهما. أما الحقيقة، فتقع بين النظريتين ، أو أنها على الأصح تشتمل على وجهتى النظر الوراثية والبيئية معاً، فالشخص ، أى شخص، وكل مميزاته الجسدية، والذهنية ، والثقافية ، هو فى الواقع نتاج التفاعل بين الطبع والتطبع أو بين الوراثة والبيئة[1].

وفيما يلى سوف نستعرض بشىء من التفصيل أراء كل من المذهبين.فى فهم الوراثة. ففى عام ١٦٩٠ ميلادية عبر جون لوك John Locke عن الفكرة الأساسية للمذهب البيئى بوضوح تام، حين رأي أن الكائن البشرى لايكون عند

---

(١) انظر فى ذلك :
- ناهد البقصمى ، الهندسة الوراثية والأخلاق ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب - الكويت ، يونيو ١٩٩٣م.
- أشلى مونتاجو ، البدائة ، ترجمة محمد عصفور ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب- الكويت ، مايو ١٩٨٢م.

الولادة طيباً أو خبيثاً ، بل يكون صفحة بيضاء تنقش عليها البيئة، والتنشئة والتربية هذه المجموعة أو تلك من السجايا والصفات. فعن طريق التربية الجيدة ، تنبت وتغرس الصفات الجيدة ، فتحفظ وتنمى ، وينتج عن ذلك شخص طيب الأخلاق ، حاذق المهارات ، سليم الأفكار وقد نالت هذه الأفكار شهرة هائلة لاسيما أثناء عصر التنوير فى القرن الثامن عشر.

أما أصحاب المذهب الوراثى فيرون أن الإنسان مخلوق يولد بصفاته وقدراته ، ثابتة غير متغيرة ، إذ أن مايستطيع ومالا يستطيع تحقيقه فى حياته تقرره وراثته وتحدده سلفاً إلى حد كبير ، والواقع أن ماذكره أرسطو من قبل - فى عبارته القائلة إن أولئك الذين ينحدرون من أصول أفضل يرجح أن يكونوا رجالاً أفضل، إذ أن النبل إنما هو عراقة النسب. وعموماً ، فإن تاريخ المذهب الوراثى وسيطرته على فكر التطور والوراثة قد شابه كثير من الغموض، ولكنه وجد بعض التأييد فى الأديان السماوية ، والفكر الدنى ، ففى المسيحية يجد المذهب بعض التأييد على الأقل فى العقيدة الخاصة بخطيئة آدم الأولى ، فهذه الخطيئة التى يرثها جميع البشر ، إنما تجعل الطبيعة البشرية آثمة وفاسدة فى أساسها. كذلك فإن مذهب القدرية الذى يرجع أصله إلى القديس أوغسطين والذى تطور واكتمل على زيدى جون كالفن John Calvin يفترض أن هناك أمراً الهياً لاسبيل لنا إلى فهمه يصطفى بعض الناس فيكونوا أخياراً بينما تحل اللعنة على بعضهم الآخر.

ويبدو أن هنا هوة لايسهل عبورها بين المذهب الدينى وبين الفكرة الدنيوية التى تقول أن ثروة الشخص ومركزه فى المجتمع يتقرران أيضاً ويتحددان سلفاً بواسطة وراثته ، وإن كان كثير من الناس استطاعوا إجتيازها بسهولة تدعو إلى الدهشة ، فإن الله أو الطبيعة أو الوراثة هى التى جعلت بعضنا قادراً وبعضنا الآخر قليل القدرة، بعضنا ذكياً وبعضنا الآخر غبياً ، بعضنا مكباً على العمل ، وبعضنا الآخر كسولاً.

ولكن من الجدير بالذكر، أننا نقع فى الخطأ فى كل مرة نحاول فيها تقسيم السمات البشرية إلى فئتين متميزتين تميزاً تاماً ، الفئة الوراثية، والفئة البيئية ، فهذا التقسيم الثنائى زائف ومضلل ، ذلك لأن أغلب السمات تؤثر فيها وتعدلها الوراثة والبيئة معاً.

وقد شهدت حضارة الإنسان ، وتطوره التكنولوجى فى العصر الحديث قفزات وطفرات وثورات علمية أحدثت تغييراً وتطوراً جوهرياً فى الحياة البشرية ، كثير منها كان يعد ضرباً من الخيال ، وبعضها لم يكن ليخطر على بال بشر ، فكانت الثروة المتعلقة بالتركيب الذرى ، م بزغت ثورة الإلكترونيات الدقيقة ، فجاءت عنها ثورة الحاسب الآلى فى المجالات العسكرية والمدنية بل وفى شتى مناحى الحياة ، ثم احتلت ثورة الطب والبيولوجيا مكانها فى زرع الأعضاء مثل الكلى والرئة والكبد والبنتكرياس والقلب ، وفى كل مرحلة من مراحل التطور العلمى والتكنولوجى هذه كانت هناك مغازلة أو قل مجادلة بين العلم والأخلاقيات الإنسانية توظف العرف تارة ، وتوظف الدين تارة أخرى.

وقبل أن يفيق العالم الإنسانى من زخم المعلمات والنتائج العلمية لاحقت الإنسان طريقة الإخصاب الصناعى [1] ، للتغلب على إصابة أحد الزوجين بالعقم أو الضعف الذى يمنع إتمام الحمل ، ومإن جاء عام ١٩٧٨ إلا وفوجىء العالم بنبأ ولادة أول طفلة أنابيب وهى لويس براون على يد الفريق الطبى الإنجليزى «إدواردز وستبتو» وبينما لاتزال البشرية غارقة فى الدهشة والخوف مما آلت إليه نتائج تحديات الإنسان بتطبيقاته المتطرفة لتقنية طفل الأنابيب ، ارتجف العالم فزعاً لبدء عصر البيوتكنولوجيا بظهور الهندسة الوراثية Genetic Engineering، أو كما يسميها البعض تكنولوجيا تطويع الجينات فى أوائل السبعينات من هذا القرن ، وهى بحق ثورة علمية خطيرة لأنها ترتكز على مادة

(1) Veaatch. R.A. Theory of Medical Ethics, Basic. Books. Inc., New York, 1987, pp. 28-36.

الحياة وهى الجينات Genetic، وهى ثورة تلعب فيها علوم الوراثة الدور الرئيسى لإستعمالاتها التطبيقية فى الطب والصيدلة والزراعة والأمن الغذاى وتلورث البيئة ، وقد جاءت تكنولوجيا الهندسة الوراثية كمحصلة طبيعية لثورتين طبيعتين هما ثورة اكتشاف أسرار المادة الوراثية DNA، وثورة إكتشاف أنزيمات التحديد Rectriction Enzym والتى تقوم بقص الشريط الوراثى فى مواقع محددة وإكتشاف الحمض النووى داخل البلورات المسبحية. والتى تعرف بالمادة الوراثية ، ثم تتابعت البحوث والإكتشافات إلى أن تم التعرف على أسرار الشفرة الوراثية ، والمقصود بها تتابع القواعد النيتروجينية الأربعة التى وهبها الله للحياة ، وهى : الأدنين ، والجوانين ، والسيتوزين ، والثيمين ، وهى عبارة عن مشتقات تقوم بتخزين المعلومات الوراثية فى لوح محفوظ مسئول عن حياة الفرد من الإنبات وحتى الممات .. وهى الجينات.

وماهى إلا فترة وجيزة حتى استطاع الإنسان برمجة البكتريا بالهندسة الوراثية وتحويلها إلى مصانع بيولوجية صغيرة جداً تنتج مايطلبه منها الإنسان من بروتينات ، وهرمونات ، وأنزيمات ، وكيماويات ، ومضادات حيوية ، أدوية ، ولقاحات ، وأمصال ، وغيرها. فتسابقت مكاتب السمسرة ورجال الأعمال فى العالم لإقامة الشركات الدوائة ، فأنشئت أول شركة للهندسة الوراثية فى عام ١٩٧٧ وهى شركة جيناتك Genetics والتى وصل سعر السهم فيها إلى مايقرب من المليون دولار [1].

وبفضل الهندسة الوراثية ونجاح أبحاثها أصبح الإنسان ولأول مرة فى التاريخ يمتلك الوسيلة التى تساعده على تطويع المخزون الوراثى الكامن فى جميع المخلوقات الحية بما يرضى طموحاته ، حيث أمكن للوارثيين الآن تخليق جينات جديدة معملياً وإستحداث تباينات فى الجينات المعروفة والتى هى نتيجة

(1) Wamock. M; Aquestion of life the wamock Report on Human Fertilisation & Embryology Blackwell Oxford. 1984. pp. 138-144.

طبيعية لتطور الحياة ، ماأمكن للعلماء أن يضعوا على مائدة العمليات الوراثية أطقم جينية لصور الحياة المختلفة لتصبح مطوعة للجراحة والتعديل الوراثي أو مايسمى بجراحة الجينات Gene Surgery لتغيير وظائفها البيولوجية من أجل تبديل الإمكانات الوراثية للكائن الحي ، إما لتخليق صفات مرغوبة كالذكاء ، والنبوغ ، والمواهب. والملكات الفائقة ، أو لإضافة خاصية أو صفة لم يكن يملكها من قبل بالتحكم في التشكل والنمو وإنتاج الإنسان العملاق Gigantic Man ، وكما نرى فإن تطبيق الهندسة الوراثية على الجنس البشرى يقوم على فكرة التحكم في الجهاز الوراثي للإنسان ، وبالتالي إمكانية برمجة الجنس البشري وفق تصميمات موضوعة سلفاً. وبذلك يمكن القول أن علماء الهندسة الوراثية قد اقتربوا من أهم خصوصيات الإنسان ولوحه المحفوظ وهي شفرته الوراثية ، وبذلك تكون الهندسة الوراثية مثيرة للإعجاب والمخاوف في آن واحد ، الإعجاب لأنها تقدم الحلول لكثير من المشكلات في العالم ، والمخاوف لخطورة إستخداماتها وتطبيقاتها في نواحي لاأخلاقية يصعب السيطرة عليها مستقبلاً.

ولكن رغم ماتؤدى إليه الهندسة الوراثية من مشكلات كثيرة تحتاج إلى تكاتف الجميع لحلها والتصدى لها ، إلا أنها قدمت كثيراً من النتائج الإيجابية خاصة بالإنسان حتى الآن ، منها على سبيل المثال مايلي [(١)] :-

أولاً : توصلت إلى تخليق أجزاء من البرنامج الوراثي «للأنسولين» لعلاج مرضى السكر بعد أن كانت تؤخذ من الحيوانات مما كان يكلف كثيراً ، ويرفع بالتالي سعر الدواء.

ثانياً : توصل العلماء إلى تحويل أنواع خاصة من البكتريا إلى أنواع من

---

(١) عبد المحسن صالح ، التنبؤ العلمي ومستقبل الإنسان، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ١٩٨١ ، ص ص ١٠٥-١٠٦.

الكيماويات يمكن غزلها وتحويلها إلى ألياف تستخدم فى صناعة الأنسجة وخيوط الجراحة.

ثالثاً: تمكن العلماء من تصنيع أنزيم يوروكيير Urokinase مهمته كل أنواع الجلطات التى يصاب بها الإنسان سواء جلطات المخ أو الشرايين أو الرئة.

رابعاً: أمكن لعلماء الهندسة الوراثية تربية بكتريا خاصة تدخل فى صناعة أعلاف صناعية معينة لغذاء الحيوان والدواجن بديلة عن أنواع الأعلاف التقليدية.

خامساً: توصل العلماء إلى تحويل البكتريا العادية إلى بكتريا مخلقة للقضاء على التلوث البحرى وخاصة الناجم عن التسرب النفطى فى أعماق المياه.

الهندسة الوراثية والقيم المجتمعية :

فى الوقت الذى إستطاعت فيه تكنولوجيا الإخصاب وعلم الأجنة Em-bryology أن يقدم حلولاً مؤقتة لبعض مشكلات العقم التى تواجه الإنسان ، وكذا إمكانية التوصل إلى معرفة وتحليل الجزء الأكبر من الشريط الوراثى ومعرفة مكونات الشفرة الوراثية ، نجد أن هناك مخاوف كثيرة وتساؤلات غاية فى الأهمية ترتبط بها الجانب من التقدم البيوتكنولوجي ، منها مَاهو مصير الأسرة؟ أو بمعنى آخر هل سيحل الجهاز الذى سوف تخلق بداخله الأجنة محل رحم الأم؟ وهل ستشترى وتباع الأجنة مستقبلاً؟ وما الذى يمكن أن يحدث لو توصل العلماء إلى نتائج خاطئة أدت إلى تخليق كائن غريب لايمكن التخلص منه؟ وماذا لو أن وباءاً جرثومياً انفجر من المعامل البيولوجية ، ولم يتم السيطرة عليه ، وقضى على عدد كبير من البشر (١)؟.

الواقع أن المشكلة الحقيقية فى هذا الشأن تكمن فى وجود الفجوة أو الهوة

(1) Veatvh, R.M.; Atheory of Medical Ethics; Op. Cit., pp. 74-77.

البعيدة الفاصلة بين التقدم البيوتكنولوجى وبين القيم الثقافية داخل المجتمع ، وهى مشكلة ليست وليدة التطور والتقدم التكنولوجى الآن، إنما كانت تشغل بال الكثيرين منذ أيام تشارلز دارون Darwin ودعوته إلى فهم التطو على أساس النشؤ والإرتقاء [١] ، وهى الفترة التى كثر فيها الحديث عن تأكيد الحقيقة الأساسية القائلة بتطور الإنسان على أساس نوعين من الإرتقاء التطورى هما الإرتقاء البيولوجى ، والإرتقاء الثقافى . وأن إرتقاء الإنسان رهن بالتفاعل بين النوعين من التطور.

وقد حدثت فى تاريخ العلم والثقافة الكثير من المفارقات فى هذا الشأن فمثلاً كانت أخلاقيات الكنيسة والمجتمع فى أوروبا فى بداية عصر الطب يقفان موقف المعارضة من التقدم الطبى الذى يدعو إلى تشريح الجسد والأكثر من ذلك أنهما كانا يعارضان عملية التشريح للجسد حتى بعد الوفاة ، وذلك لأن الجسد له حرمة مقدسة يجب المحافظة عليها ، والإعتزاز بها. والأمر لايتوقف عند أوروبا فقط بل انتقل بعد ذلك إلى كثير من الثقافات وخاصة الآسيوية ، وأن هناك بعض البلدان تمنع منعاً باتاً أن يتدرب طلاب العلوم الطبية بجامعاتها على تشريح أجساد بشرية والمشكلة مازالت قائمة بين إرتقاء وتقدم العلم وبين وضعية القيم الأخلاقية والثقافية داخل المجتمع . وهو نفس الموقف الذى أتخذ بعد ذلك فى مواقف وعمليات نقل وزرع الأعضاء البشرية وأطفال الأنابيب ، والتلقيح الصناعى وغيرها.

ولكن لب المشكلة يجب أن يكون منصباً ومن البداية على توضيح الغايات أو الأغراض أو الأهداف التى يسعى إلى تحقيقها الإنسان من وراء التقدم العلمى وخاصة البيوتكنولوجى والمسألة فى تقديرى هى أكبر من أن نخدع أنفسنا باجابات سهلة ، كأيماننا بأن المعرفة الفائقة ببيولوجيا الإنسان تجعلنا لانخطىء فى

(1) Darwin, C., The Orrigin of Species, Op. Cit., (1859) 1928, 1964.

إختيار أفضل الخطط ومن ثم رتباعها أو كقول آخر لأن التطور التكنوبيولوجي إنما يغرس في الإسان أفكاراً وميولاً أخلاقية تلائم هذا التطور بإستمرار.

خاتمة : الأجناس في ميزان النقد

إن أجناس البشرية وقد تطورت من أصل واحد تعد من وجهة النظر العلمية الدقيقة أقساماً تقع تحت نفس النوع ، يتشابه بعضها البعض من الناحية البيولوجية ، وطالما أن الأمر يندرك تحت صلة الإنسان وتواصله من أصل واحد ، فإن أياً منها لايعد أعلى أو أقل من الأجناس الأخرى . ولكن المسألة فتحت أمام العنصريين، والمغالين ، والمتاجرين بإختلافات وتباينات بعض خصائص وسمات الجنس البشرى الباب على مصراعيه لتعميق هوة الخلاف والتميز بين السلالات . ومن هنا اعتبر العنصريون أن الجنس الأبيض هو الأعلى مرتبة ومكانه ، وأن الأجناس الملونة (السوداء والصفراء) هي أدنى في المرتبة والمكانة ، وقد ظهرت هذه التفرقة على أيدى بعض العلماء في كل من ألمانيا وبريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية، والذين يدعمون النظرية «الآرية» القائلة بتفوق الرجل الأبيض وتفرده في إبداعات الحضارة والمدنية وقيادة التاريخ ، وأن بقية السلالات والأجناس الأخرى ماهي إلا أيدى معاونة أو أرقاء في خدمة الرجل الأبيض.

ويمكن القول أن دعاة التفرقة بين الجنس البشرى وأصحاب النظريات العنصرية لم يفلحوا حتى الآن في تقديم الدليل الدامغ لدعوتهم . وذلك للأسباب التالية :-

أولاً :

بنيت التفرقة بين الشعوب على أساس الصفات الجسمانية ، فمثلاً خضعت الصفات الفيزيقية للبدائيين الأفارقة لهذه النظرية ، وقيست عادة بمقياس المعيار الجمالي المأخوذ من النمط القوقازى الأوروبى ، فاعتبرت الصفات الجسمانية التى يتميز بها الزنجى كالشفتين الغليظتين والجلد الأسود قبيحة دائماً ، وكلما قلت

زنجية الزنجي قب قبحه ، ومايلفت النظر في هذا الحكم طبيعته المطلقة. فهو يطلق دون أدنى وعى بنسبيته ، والأكثر من ذلك أن هذا الحكم الجمالى يتخذ مع مضى الزمن صفة الحكم الأخلاقى أيضاً فبعد أن استعيض عن التفسير التقليدى للون الزنجي عن طريق الظروف المناخية ، بتفسير وراثى ، أصبح التبرير الذى يقدم عادة هو إنتساب الزنوج المزعوم «لحام» الأبن الملعون من أبناء نوح ، وهذا ماجعل لون الزنجي الأسود مكروهاً لا من الناحية الجمالية فقط ، بل لأنه صار رمزاً لوصمة أخلاقية ونتيجة لها والحق يقال أن في هذا المجال تختلط الحقائق بالتحيزات المغرضة على أساس خلق ذريعة التمركز العرقى حول الذات للرجل الأبيض.

ثانياً:

لايقتصر العنصريون فقط على تأييد وتدعيم بل التفسير البيولوجي والذى لايستند إلى أية براهين تاريخية تجدهم يقحمون فئات أخرى مثل السلالة والأمة فى نفس مجال التفرقة ، وعلى الرغم من أن الفئة الأولى هى من إختصاص البيولوجيا ، وأن الثانية تنتمى إلى مجال الإجتماعيات والإنسانيات إلا أنهما لم يسلما من الوقوع فى براثن العنصرية وتوجهاتها . ولكن حاول بعض الأنثروبولوجيين لدحض هذا المفهوم والقائل بأن الحضارة لم تخلق إلا على أيدى سلالة مامن السلالات الأعلى والتى يتميز أفرادها بكبر حجم المخ ، ولتنفيذ هذا الخطأ نقول أن التطور ذو المستوى العالى أو الراقى للحضارة المصرية القديمة كما ذكره الأنثروبولوجي الألمانى شمدت Shmdt بأن حجم طاسة المخ لدى الذكر من المصريين ٣٩٤, ١ سم٣ وأن طاسة رأس الأنثى كانت ٢٥٧, ١سم٣ ، ومن هنا كان مخ المصرى المبدع أقل من المتوسط إذا ماقورن بأى مخ من الشعوب المجاورة له . والذين كانوا فى مستوى حضارى أقل من حضارة المصرى القديم.

ثالثاً :

تعتبر بحوث ودراسات الأنثروبولوجيا الفيزيقية فى مجالاتها المتعددة ذات أهمية كبيزرة لأنها تخدم عدة معارف إنسانية تدخل فى نطاق تخصصات متعددة مابين إجتماعية (السلالات البشرية) وبيولوجية (الفسيولوجية) وتطبيقية (الطب) . لذلك لم يكن غريباً أن يتزايد الإهتمام بها مع مرور الزمن وتقدم الإنسان فى مضمار الحضارة فمثلاً فى عام ١٩٥٢ قام مورانت وزملائه بمشروع بحثى ممول من مؤسسة نيو فيلد وبتكليف من الجمعية الأنثروبولوجية الملكية فى بريطانيا بدراسة فصائل الدم بين جماعات الباسك ودورها فى تحديد الشخصية وتوضيح مدى الإختلافات بين المجموعات السلالية المختلفة [١] ، ولاسيما لإن الباسك يتحدثون لغة خاصة بهم، ولهم علاقات زواجية داخلية تميزهم عن جيرانهم من الفرنسيين والأسبان.

رابعاً :

الأجناس والسلالات والهندسة الوراثية موضوعات ذات أربعة أبعاد بيولوجية إنسانية يحكمها فى عملية التطور والرقى العلمى فى جوانبها المتعددة مدى ماتقدمه من إيجابية فى البعد الإنسانى ، وهو بطبيعة الحال منصب على تكيف الإنسان مع نتائج هذه الموضوعات ومع طرق وأساليب تنشئة وتتطبيعه إجتماعياً وثقافياً ، ففى مجتمع الفضيلة ينشأ الفرد ويتخذ مكانه فى نسيج المجتمع بعد أن يروض ويعود ويطبع. وفى مجتمع الرذيلة ينشأ الفرد ويتخذ مكانه فى نسيج هذا المجتمع بعد أن يمر بنفس المراحل السابقة ، وفى أثناء هذا التدريب والتلقين والتعويد يكون الفرد مفهومه عن ذاته كما يكون مفهومه عن ذات الآخرين وشخصياتهم كما يكتسب المعايير والأءوات التى يستطيع من

(1) Mourant, A.T.; The Distribution of the Human Blood Group Blackell, Oxford, 1954. p. 221.

خلالها الحكم على الأحداث والأشياء ويبحث الفرد دائماً عن إجابة سؤال حائر ياح عليه بين الحين والحين مؤداه من أنا ومن أكون؟ ومن هم الآخرون ومن يكونون؟ وهنا يأتى التحامل والتعصب العرقى حاملا وفاصلا بين تداخل نسيج العلاقات الإجتماعية والإنسانية ككل فمثلا نجد أن الرجل الأبيض له علاقة من نوع خاص بالرجل الأ«ود - وخاصة فى بلدان التمييز العنصرى - فهى علاقة صاحب السلطة والسيطرة (للأبيض) بالخاضع المستسلم (الأسود) ، الذى لاحول له ولاقوة ، وبالتالى يكون دور الرجل الأبيض هو الآمر الناهى وماعلى الأسود إلا أن ينفذ، وهنا تكون الفرصة سانحة أمام الأبيض بأن يصف العبد المنفذ بالكسل وعدم القدرة على تحمل المسئولية والمراوغة والغباء ونقص القدرات الإبتكارية ، كما تكون الفرصة سانحة أمام العبيد أن يصفوا السادة البيض بالعجرفة والغطرسة والقسوة ، ونقص الأخلاقيات وإنهيار القيم وعدم التسامح وخشونة التعامل فى العلاقات الإنسانية.

خامساً:

ليس هناك من ينكر بأن معايير التصنيف السلالى بين الأجناس فى حد ذاتها شديدة التغيرات والتنوع ويكمن السبب الرئيسى وراء ذلك فى إمتزاج هذا التوجه لدى كثير من المهتمين بالنزعات العنصرية البغيضة والتى تسعى إلى إعلاء جنس على حساب آخر أو الآخرين سواء على مستوى الحياة اليومية العادية والتى تتم فيها العلاقات المتبادلة بين بنى البشر أو على مستوى التوجهات والمحافل العلمية والأكاديمية والمذاهب السياسية - وهذا مايدعو إلى الأسف الشديد فمثلاً أظهر بعض الأنثروبولوجيين الألمان العنصريين من خلال أوراقهم وأبحاثهم التى قدموها للمؤتمر الأنثروبيولوجى والأثنوجرافى الدولى المنعقد فى مدينة كوبنهاجن فى أغسطس من عام ١٩٣٨ ، بأن الخصائص الوراثية لاتقتصر على المظهر الخارجى بشكل جسم الإنسان ، وإنما هناك حسب إعتقادهم وراثة لخصائص وسمات السلالة العقلية ، وأشاروا فى أبحاثهم إل

السكان الأصليين باستراليا قد انقرضوا تقريباً بسبب «ضعف روحهم السلالية» في حين استطاع الموريون بنيوزيلاندا أن يستوعبوا بنجاح الثقافة الأوروبية. فالشعوب من أي تكوين سلالي تستطيع إذا ما أعطيت ظروفاً إجتماعية وثقافية مواتية أن تخلق حضارة ومدنية متقدمة ، فعقول الأفراد وطبائعهم وسلوكياتهم ، وخصائصهم القومية هي صفات مكتسبة وتتشكل تحت التأثير المسيطر والغالب للبيئة الإجتماعية والثقافية ، والسياسية بغض النظر عن إنتماءاتهم القومية أو العرقية.

والسؤال الهام الآن والذي يحتاج إلى إجابة وإجابات ، هل يستطيع العلم والثروة التكنوبيولوجية من القضاء على النزعات والنعرات العرقية النامية إلى خلق عنصريات وتمايزات بين البشر ؟ أم أن المسألة العرقية ستزداد عنصرية ، وإنغلاقا على الهوية والذات ، لاسيما في ظل التطورات المجتمعية والسياسية والدولية المتلاحقة ، إذن فالأمر يحتاج إلى مزيد من الترقب والدراسة والتقصي والبحث.

القراءات والمراجع

١- أحمد أبو زيد ، **التطورية الإجتماعية** ، مجلة عالم الفكر ، المجلد الثالث ، العدد الرابع ، ١٩٧٣ ، وزارة الألام ، الكويت.

٢- أشلي مونتاجو ، البدائة ، ترجمة د. محمد عصفور ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد ٥٣ ، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآءاب ، الكويت، مايو ١٩٨٢م.

٣- ثيودوسيوس دوبجانسكى ، **الوراثة وطبيعة الإنسان** ، ترجمة ذكريا فهمى ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ، ١٩٧١م.

٤- عبد المحسن صالح ، **التنبؤ العلمي ومستقبل الإنسان** ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ١٩٨١م.

٥- فاروق عبد الجواد شويقه ، **مقدمة في الأنثروبولوجيا الطبيعية والسلالات البشرية** ، الطبعة الثانية ، دار ووتابرنت للطباعة ، القاهرة ، ١٩٨٦م.

٦- كلايد كلاكهون ، **الإنسان في المرآة** ، ترجمة شاكر مصطفى سليم ، المكتبة الأهلية ، بغداد ١٩٦٤م.

٧- محمد الجوهرى ، **الأنثربولوجيا - أسس نظرية وتطبيقات عملية** ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠م.

٨- محمد رياض ، **الإنسان - دراسة في النوع والحضارة** ، دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٧٤م.

٩- محمد عباس ابراهيم ، **المدخل إلي الأنثروبولوجيا الطبية** ، الجزء الأول ، الثقافة والمعتقدات الشعبية ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٩٢م.

١٠- ناهدة البقصمي ، **الهندسة الوراثية والأخلاق** ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، يونيو ١٩٩٣م ، الكويت .

١١- نستورخ، م. **أجناس البشرية** ، ترجمة يوسف ميخائيل أسعد ، مراجعة د. أحمد على إسماعيل ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ، ١٩٧١م.

١٢- يسرى الجوهرى ، **السلالات البشرية** ، الاسكندرية ، ١٩٨٦م.

(13) Blumenbach, Johann F.; **On the Normal Variety of Mankind,** Schuman. New York, (1975) 1950.

(14) Bruse, Alice.; M.; **People and Races**, Macmillan Publishing Co., Inc., New York, 1977.

(15) Carpenter, **C.R.; Afield Study of the Behavior and Social Relations of Howling Monkeys**, New York, 1934

(16) Darwin, Charles; **On the Origin of Species**, Cambridge, Haravard University Press, (1959) 1964.

(17) Denilker, **J.; The Races of Man**, Macmillan, New York, 1912.

(18) Draper, George & Others, **Human Constitution in Clinical Medicine**, Harper, New York, 1944.

(19) Goin, Coleman J. & Goin, Olive B.; **Man and the Natural Worled**, Macmillan Company, New York, 1973.

(20) Haddn, A.C.; **The Races of Man**; Cambridge

University Press, 1924.

(21) Hirszfield, L.; & Hirszfield, H.; **Of Different Blood, In, LANCET**; No. 2, 1919.

(22) Hooton, **E.A., Up From the Ape**, Macmillan, New York, 1964.

(23) Kertschmer, Ernst, **Physique and Character, An Investigation of the Nature of Constitution and the Theory of Temperament**, Routtedge, London, (1921) 1963.

(24) Montagu, **A.; An Introcluctio to Physical Anthropology**, Charles Thomas, London, 1960.

(25) Mourant, A.T,; **The Distribution of The Human Blood Group**, Blackwell, Oxford, 1954.

(26) Nesturph, M.; **The Races of Mankind**, J. Wiley, New York, 1955.

(27) Sergi, G.; **The Races of Mankind**, J. Wiley, New York, 1955.

(28) Sergi,G.; **The Mediterranean Races**, Tuirn, London, 1908

(29) Veatch **R. M.; A Theory of Medical Ethical**, Bthics, Basic Books, New York, 1987.

(30) Warnock, **M.; Aquestion of life**, The Wamock Report On Human Fertilisation & Embryology, Black well, Oxford, 1984.

الفصل السادس
الانثروبولوجيا السيكولوجية ومجالاتها

(×) كتب هذا الفصل دكتورة لبيبه محمد موسى / مدرس الانثروبولوجيا بكلية الآداب - جامعة الاسكندرية.

الفصل السادس

الانثروبولوجيا السيكولوجية ومجالاتها

يعد الاتجاه السيكولوجى من الاتجاهات الهامة المسيطرة على علماء الانثروبولوجيا فى الوقت الحاضر ويعد هذا ميدانا جديدا مشترك بين الانثروبولوجيا وعلم النفس فقد أصبح علماء الانثروبولوجيا يهتمون بدراسة الشخصية لمعرفة تأثير الثقافة عليها كما انصب اهتمام علماء النفس على دراسة الثقافة كعامل محدد للشخصية المريضة والسوية إذ أن الشخصية لاتنمو إلا من خلال تفاعلها مع الثقافة فى وحدة تداخل وتفاعل كلى متكامل ومتبادل بين الاثنين. وعلى ذلك فالثقافة والشخصية ليسا موضوعين منفصلين بل هما فى الواقع وجهان لشيء واحد باعتبارهما جزء من عملية التفاعل التى يتكيف بها الناس مع ظروفهم وبيئتهم الطبيعية والاجتماعية ولهذا فقد عنى علماء الانثروبولوجيا فى القرن العشرين بتدعيم دراساتهم بالبحوث السيكولوخية ونشأ عن ذلك فرع جديد من فروع الانثروبولوجيا وهو الانثروبولوجيا السيكولوجية التى ازدهرت فى الولايات المتحدة الأمريكية أكثر منها فى بريطانيا [(١)].

الموضوعات التى تدرسها الانثروبولوجيا السيكولوجية

وتدرس الانثروبولوجيا السيكولوجية المظاهر السلوكية العامة والخصائص العقلية أو الحياة العقلية Mental Life السائدة فى الأنماط الثقافية المختلفة ، كما تدرس التفاعل بين الثقافة والشخصية على اعتبار أن الفرد يعدل بالتعليم عن طريق استدخال ثقافة مجتمعه وتشربها . وتدرس مقومات الشخصية

(×) كتب هذا الفصل دكتورة لبيبه محمد موسى / مدرس الانثروبولوجيا بكلية الآداب - جامعة الاسكندرية.

(1) Marvin Harris, The Rise of Anthropological Theory, Thomes Y. Crowell, 1970, p. 393.

وسماتها فى المجتمعات المدروسة [١] ويتم ذلك على أساس التفسيرات التى تقدمها نظريات علم النفس. كما تدرس الانثروبولوجيا السيكولوجية النواحى المتعلقة بعادات الشعوب وطرق التفكير والمشاعر التى تميز جماعة معينة واختلاف مستويات السلالات فى الذكاء والقدرة على التعلم والاختلاف والتفاوت العنصرى وذلك فى ضوء علم النفس التجريبى [٢] وقد تأثر معظم العلماء الذين بحثوا فى موضوع الشخصية وعلاقتها بالثقافة بنظريات فرويد وتلاميذه وطبقوا منهج التحليل النفسى فى أغلب بحوثهم ولذا لجأوا إلى العناية بتسجيل الأفكار والأحلام وتسجيل تاريخ الحياة فنجد مثلاً عالم النفس أبرام كاردنر يركز اهتمامه على الدنياميات النفسية للشخصية والثقافة أى دراسة أثر النظم الثقافية السائدة فى المجتمع على الشخصية الأساسية× عن طريق التنشئة الاجتماعية نظراً لأن التجارب والظروف التى يتعرض لها الفرد فى سنواته الأولى هى أهم العوامل التى تؤثر فى شخصيته حين يكبر . لذلك وجه العلماء عنايتهم لدراسة عادات الرضاعة والفطام والتغذية وغير ذلك عن الطفولة بجمع المعلومات الاثنوجرافية لكثير من المجتمعات والقبائل البدائية [٣].

كما بحث كاردنر كيفية تأثير الشخصية بدورها فى الثقافة على اعتبار أن الفرد حامل للثقافة وفى نفس الوقت معدل لها - ويؤكد أن التغير فى نظم ثقافية واجتماعية معينة يؤدى بالتالى إلى تغير فى بناء الشخصية الأساسية أو مايطلق عليه بارتلت اسم الشخصية الاجتماعية التى تنتج عن التفاعل والتأثير

---

(١) د. أحمد الخشاب - دراسات انثروبولوجية - دار المعارف عام ١٩٧٠ ، ص٣٠٧.

(2) Encylopedia of Anthropolgy, culture and Personality, p. 103.

(×) وتتعدد الاصطلاحات التى يطلقها علماء الانثروبولوجيا على مفهوم الشخصية الأساسية حيث يطلق عليها الشخصية المنوالية modal وبناء الشخصية والشخصية النموذجية Typical والصورة العامة للشخصية Configuational والطابع القومى National Characterr.

(٣) د. حسن شحاتة سعفان - علم الإنسان منشورات مكتبة العرفان - بيروت ١٩٦٦ ، ص١٤٦ ، ١٤٧.

المتبادل بين كل من الثقافة والنواحى الخاصة بالسلوك والدوافع والاتجاهات لأفراد مجتمع معين والتى تؤثر بالتالى وتعمل على تعديل النظم القائمة [1].

ويضرب كاردنر مثالا لهذا من دراسته الحقلية مبيناً كيف تؤثر عملية التنشئة الاجتماعية على الذات الأعلى Ego والذات الاجتماعية Super Ego ومايتنج عن هذا ويؤثر فى النظم السائدة فى المجتمع والثقافة.

ومن أهم الاسهامات الرائدة فى مجال الانثروبولوجيا السيكولوجية الأبحاث والكتابات المستمرة التى قدمها كل من لوينون ورالف لنتون ومارجريت ميد وهوينتج وجولودو وروبرت لوفين وروث بندكت وغيرهم.

المناهج المستخدمة فى مجال الانثروبولوجيا السيكولوجية

يعتمد علماء الانثروبولوجيا فى دراساتهم الحقلية للمجتمعات المختلفة التى قاموا بدراستها على الاختبارات السيكولوجية مثل اختبارات الرورشاخ Ror chach فنجد عالمة مثل كورادى بوا Cora Dubois فى دراستها لشعب الور أحد قبائل أندونيسيا تستخدم هذه الاختبارات وتتوصل من خلال دراستها لما أسمته بالشخصية المنوالية Modal وتعنى بها الاتجاهات والسمات السيكولوجية العامة المميزة لمجتمع من المجتمعات وقد أثار هذا القول تساؤلات كثيرة وقامت محاولات مختلفة للتعرف على كيفية تشابه اتجاهات الأفراد فى نفس المجتمع.

كما أجرى أنتونى ولاس Wallace اختبارات الروشاخ لعينة من الهنود الحمر المعروفين باسم Toscora Indians للوقوف على السمات والخصائص السيكولوجية العامة للجماعة وتأثير النواحى الثقافية على هذه النواحى.

كما قدم روبرت لومنين R. Levine دراسته الهامةَ عام ١٩٧٣ عن

(1) Hamid Amar, Growing Up In An Egyption Village, rout ledge Skegan Paul London pp. 5-8.

الجينات وتأثيرها على الثقافات المختلفة فى أساليب الحياة والأفكار والقيم والمثل التى توجه السلوك وتتحكم فى الحياة الفعلية وتكوين الشخصية . وقد استعار مصطلحات الجينوتايب العينوتايب من النظرية التطورية. فهو يطلق مصطلح فينوتايب الشخصية ليشير إلى الخصائص الملحوظة والي تعد نتاج التفاعل بين الجينات الشخصية والعوامل البيئية ويفترض لوفين وجود اختلافات فى الجينات الشخصية للشعوب. فالأفراد يولدون بقدرات واستعدادات وميول مختلفة. كما أن هناك اختلافا فى خبراتهم المبكرة فى السنوات الأولى للتنشئة الاجتماعية ولكنهم يتكيفون مع نفس الأنماط الثقافية والاجتماعية والتى من شأنها العمل على تحقيق التشابهات فى الأنماط الشخصية بين أفراد المجتمع الواحد [1]. فكما يشير باتسون bateson إلى أن الصلة بين الفرد ومجتمعه إنما تعنى أن الثقافة تؤثر فى النواحى النفسية للأفراد وينتج عن ذلك مجموعات كلية لأفراد يفكرون ويشعرون بطريقة مجادلة إلى حد كبير [2].

مجالات التعاون بين علماء النفس والانثروبولوجيين :

فلقد تعاون كل من علماء الانثروبولوجيا وعلماء النفس بتطبيق بعض النظريات الخاصة بعلم النفس على كثير من المجتمعات البدائية وأوضحوا موقف علماء النفس من عقده أوديب والآثار المترتبة عليها. وقاموا بتفسير للطوطمية كأول نظام دينى عرفته الإنسانية وأثره على مبادىء التنظيم الإجتماعى. وذلك بتطبيق نظرية فرويد عن التحليل النفسى.

فالتحليل النفسى يعرف بأنه وسيلة لمعالجة مختلف أشكال الاضطراب العصبى وتطور أسلوب ارتياد الحياة الفعلية وتفسير مدركاتها بنظرية محكمة للبناء الفعلى ونموه وديناميات [3]. ويعمل التحليل النفسى على الكشف عن

(1) Fred Polg & Danial Gbates culture and The Individual pp. 117-132.
(2) Hamed Ammar Growing upin an Egyptian Village, p. 4.
(3) Encyclopedia of Science. Psycho Analysis. Vol XI, XII. p. 581.

الدستور المشترك الذى يتضح فيه الارتباط بين الاضطراب الجسمى والنفسى والكشف عن الجانب اللاشعورى من سلوك الفرد ودوافعه وتطور هيكل الشخصية. وقد بدأت مدرسة التحليل النفسى كطريقة لعلاج بعض الاضطرابات النفسية ثم أصبحت نظرية ونظاما سيكولوجيا لم يقف أثره عند علم النفس وحده بل أحدث انقلاباً فى سائر العلوم الإنسانية من أنثروبولوجيا واجتماع وفلسفة وسياسة وغيرها [١].

ولقد توصل سيجموند فرويد صاحب نظرية التحليل النفسى إلى أن العمليات الفعلية اللاشعورية والتى غالبا وارتبطت بالجنس هى الدافع الأساسى فى سلوك الإنسان. وإن هذه النزعات الجنسية قد أمضت بالشىء الكثير القيم إلى ماأنجزه العقل البشرى من آثار ثقافية واجتماعية وفنية رفيعة.

وقد قام بعض العلماء بتطبيق نظريات التحليل النفسى على الرجل البدائى. حيث نجد أن عالم الأنثروبولوجيا مالينوفسكى قد تعرض لهذا فى كتابه بعنوان «الجنس والكبت فى المجتمع المتوحش» والذى يعتبر محاولة لعمل مشترك بين الانثروبولوجيا والتحليل النفسى. كما قام بعض علماء النفس بمحاولات مماثلة من جانبهم نذكر منهم العالم ايرنست جونز E. Jones الذى كتب عن «حق الأم والتجاهل الجنسى عند المتوحشين» حيث يعتبر هذا الكتاب توضيحا البعض الاختلافات فى منهج البحث الذى يتبعه كل من علماء التحليل النفسى والانثروبولوجيين فى تناولهم لمشاكل المجتمع البدائى. والهدف من بحث جونز هو تفسير نظام حق الأم وتجاهل الأبوة الذى يوجد بين بعض المجتمعات البدائية. وفى هذه الدراسة التزم جونز بنظرية فرويد عن عقدة أوديب التى يعدها شيئاً جوهريا فمن رأيه أنها تتكون من عاملين حب الأم وكراهية الأب. وهذا العامل الأخير هو الأهم حيث يؤدى إلى الكبت. كما يرى جونز وعلماء التحليل النفسى أن عقدة

(١) محاضرات تمهيدية فى التحليل النفسى - سيجموند فرويد ، ترجمة د. أحمد عزت راجح - المقدمة.

أوديب شيء مطلق وهي مصدر اساس لكل شيء وعلى حد قوله هي الأصل والمنبع وهي التي تؤرخ لكل الثقافات . فمعظم تفسيرات التحليل النفسي للفلكلور والعادات والنظم تفترض وجود العقدة بغض النظر عن النمط الثقافي والتنظيم الاجتماعي. فحيثما وجد في الفلكلور كراهية بين ذكرين رمز لأحداهما على أنه لأب والآخر هو الابن دون التفات إلى وجود فرص للصراع بين الأب والابن في هذا المجتمع أم لا. وكل عاطفة محرمة تجدها في مآسي الميثولوجيا ترجع إلى الحب المحرم بين الأم والأبن (١).

وفي هذا الشأن يقول فرويد أن هناك دوافع التنافس العاطفي المصطبغ بصبغة جنسية صريحة فالابن يبدأ وهو مايزال طفلاً صغيراً بأن يشعر بنوع من المودة نحو أمه التي يعتبرها متاعاً خاصاً به ويرى في أبيه خصماً ينافسه وينازعه امتلاك هذا المتاع الوحيد له وموقف الابن يستثير في نفسه رغبتين في آن واحد. رغبة في استبعاد الأب وأخرى الاستئثار بالأم. هذا الاتجاه النفسي المزدوج هو مايسميه فرويد عقدة أوديب كما يرى جونز من خلال دراسته لمجتمعات ميلانيزيا أن عقدة أوديب تتوارى وتأخذ شكلاً آخر هو حب الأخ اللاشعوري لأخته وتعد الأخت هنا بديلة للأم فالعقدة صورة فعلية لاتجاهات واحساسات ظاهرة جزئياً ومكبوتة جزئياً ولكنها توجد في اللاشعور ويمكن التوصل لمثل هذه العقدة تجريبيا بالطرق العملية للتحليل النفسي وبدراسة الميثولوجيا والفلكلور والمظاهر الثقافية الأخرى.

بينما نرى مالينوفسكي يستبدل اصطلاح عقدة أوديب بآخر يطلق عليه «عقدة الأسرة النووية» وهي تشمل كما ذكرنا عناصر لاشعورية وأخرى ظاهرة . وقد اعتمد في تفسيرها على الاتجاهات الجديدة لعلم النفس المعاصر والقريب الصلة من التحليل النفسي هذه الإتجاهات أحرزت تقدماً هاماً في مجال المعرفة

(1) Malinowski, Sex & Repression in Savage Society, Routledges Kegan Paul, London, p. 143.

للحياة الانفصالية . أهم هذه الاتجاهات هى نظرية شاند M. Shand للعواطف Sentiments والتى تعد ذات أهمية كبيرة للاجتماعيين حيث أصبحت الروابط الاجتماعية والقيم الثقافية عواطف مقننة تحت تأثير التقاليد والثقافة . وقد تقدمت هذه النظرية على يد Stout وستر مارك وملدوجال وغيرهم فقد كان شاند أول من أدرك أنه من غير المستطاع النظر إلى الانفعالات على أنها عناصر طليقة غير مرتبطة وغير منظمة وأنها تظهر عرضاً من وقت لآخر :- وترتكز نظرية شاند على إن الحياة الانفعالية متمشية تماماً مع البيئة المحيطة بنا . فالأشياء والأشخاص المحيطة بناء ذات قوى دافعة لانفعالاتنا تجاه الأشياء أو الأشخاص منظم فى نسق محدد كالحب أو الكراهية أو الولاء تجاه الآخرين أو موطن أو هدف من أهداف الحياة. هذا النسق المنتظم للحياة والانفعالات يسميه شاند عاطفة فالروابط التى تربط الفرد بأفراد أسرية وكذا الوطنية والمثل العليا للصدق والعدالة والولاء للوطن كل هذه تعد عواطف ويسود حياة كل إنسان عددا من هذه العواطف ويغير من شاند أن هناك نزوعا فطرياً أو استعداداً غريزياً لهذه العواطف والتى يدخل فى كل منها عدداً من الانفعالات وكل انفعال يعيد استجابة عقلية لموقف محدد كما أن لكل انفعال عدداً من ردود الفعل الغريزية.

وعلى ذلك تصبح الاتجاهات أو العواطف تجاه الأب والأم والأخ والأخت لاتنمو منفصلة أو معزولة عن بعضها البعض حيث تعمل وحدة الأسرة على مهر عواطفهم فيما بينهم فى نظام واحد محكم. وبهذا يكون تعبيراً اصطلاح عقدة الأسرة النووية مساويا للتصور الخاص بالنظام المترابط للعواطف أو لتصور العواطف فى المجتمع الأبوى أو الأمومى [1] ولذا لايمكننا أن نتصور أن هذه العقدة هى السبب الأول لكل شىء أو أنها المصدر الوحيد للثقافة والتنظيم الاجتماعى.

B. Malinowski, Sex & Repression, Op. Cit. pp. 148,149.

ونعرض رأى فرويد فى عقدة أوديب الذى رأى فيه أن عقدة أوديب هي مصدر من أهم مصادر الاحساس بالذنب الذى يعذب المصابين فى الكثير الغالب من الأحوال (١).

ففى بحثه تناول فرويد الصور الأولى للدين والأخلاق وافترض أن عقدة أوديب هى التى تثبت فى نفوس الانسانية. بوجه عام فى مطلع تاريخها ذلك لاحساس بالأثم الذى هو المصدر الأساسى للدين والأخلاق. وتعد نظرية فرويد عن النظام التوتمى والتابو ذات أهمية كبيرة فى كتابات التحليل النفسى فى الانثروبولوجيا بين فرويد فى كتابه Totem & Tabo كيف تعمل عقدة أوديب فى تفسير التوعية واجتناب الحماة وعبادة الأسلاف وغشيان المحارم وفكرة الأب الله God Father فكم سبق أن عرضنا عن نظرة علماء التحليل النفسى للعقدة باعتبارها مصدر الثقافة وأنها حدثت فى بداية الثقافة بين فرويد الفروض التى تصف بداية وجود عقدة أوديب مستشهداً بسلفية دارون وروبرتسون سميث فأخذ عن داورن فكرة المعشر الأصلى أو كما يسميه أتكنسون Cyclopean Family - Athkinson الذى كان يمثل الشكل الأول للأسرة أو الحياة الاجتماعية والذى كان يتألف من مجموعات صغيرة يقودها ويحكمها ذكر ناضج ويخضع له عدد من الإناث والأطفال. كما أخذ فرويد عن روبرتسون سميث الأهمية المقدسة للطوطم أو قدسية الطوطم. ويعتبر روبرتسون سميث أن أول عمل دينى تمثل فروضه مشتركة أكل فيها أفراد العشيرة الحيوان التوتمى فى احتفال عام وانبثق عن هذه الوجبة التوتمية أهم عمل دينى وهو نشأة فكرة القربان أو الأضحية Sacrifice حيث ينهى الكتاب وعن أكل الفصائل التوتمية فى الأوقات العادية.

وقد أضاف فرويد فرضاً من عنده هو تمثيل الرجل بالتوتم . ويرتكز هذا على

(١) د. أحمد عزت راجح – محاضرات تمهيدية فى التحليل النفسى – ترجمة عن سيموند فريد ، ص٢٦٧.

الاتجاه نحو تشبيه الأب بحيوان كريه [1] ويضرب فرويد لذلك مثلا بصبى كان يخاف من الكلاب وينفجر باكياً إذا رأى كلباً ويصيح قائلا أيها الكلب لاتغضب سوف أكون لطيفا - ويشرح المؤلف هذه الحالة بقوله أن خوف الطفل من الكلب ليس فى أساسه إلا خشية من أبيه وانها انتقلت للكلب وقوله سأكون لطيفاً يعنى به أننى لن أحدث ضجيجاً. كلام موجه صراحة للأب الذى يمنعه من أحداث الضجيج. ويضيف الكاتب أن الخوف من الحيوانات هو خوف يتواجد بكثرة لدى الأطفال ويفصح التحليل النفسى عن أن مقيدة راجع إلى الخوف من أحد الوالدين ومن هذا نرى أن الطفل وضع على عاتق الحيوان جزءاً من احساساته نحو الأب.

ولتعد نظرية داورن التى بنى عليها فرويد نظريته فقد رأى داورن أن الإنسان قديما كان يعيش فى جماعات صغيرة لكل واحد زوجة واحدة أو اذا كان قوياً فأكثر من واحدة يغار عليهن ويطرد الذكور الآخرين ليستأثر بالأناث ويمنع حدوث المنافسة والنزاع على السيادة ويعين نفسه رئيسا للجماعة ويرى فرويد أن التصورات الدروانية عن المعشر الأصلى لم تسمح بالطبع يبدأ الطوطمية حيث هناك أباً قوى يحتفظ بالأناث ويطرد الأبناء الكبار الذين يتكتلون مع بعضهم البعض ليكونوا على استعداد للحادث الافتراضى والذى يعد ذو أهمية كبيرة فى تاريخ التحليل النفسى إن لم يكن فى تاريخ الانسانية لأنه كما يعده فرويد بداية لنشأة التنظيم الاجتماعى والقيود الأخلاقية والدين.

وتتلخص قصة الحادث الافتراضى فى أن الأخوة المطرودين اجتمعوا على قتل الأب ووضع نهاية لمعشرة وباتحادهم استطاعوا تنفيذ مالم يكن لينفذه كل منهم بمفرده. فهذا الأب القوى كان بالنسبة للأخوة نموذجا يخافون حدوثه لذا عملوا على تحقيق ذاتهم بالتخلص منه واكتسب كل منهم جزء من قوته.

S. Froud, Totem & Taboo, Op. Cit., pp. 177-178.

وعلى ذلك ربما كان أول احتفال للجنس البشرى هو عيد التوتم Totem Feast كتكرار وتذكار لعمل مشهود . وبعد التخلص من الأ يحس الأبناء القتلة بتأنيب الضمير وتتكون لديهم عقدة الشعور بالذنب أو الأثم ويصبح الميت أقوى من الأحياء حيث أصبح ماكان يحرمه الأب عليهم يحرمونه هم على أنفسهم. وينشأ مايعرف باسم المحرمات Taboo كنتيجة للشعور بالذنب. ويعمل الأبناء بعد ذلك فى وضع القوانين والمحرمات الدينية والنظم الثقافية التى نمت وتطورت باستمرار الجنس البشرى.

ونتساءل هل يعنى أن الشعور بالذنب كان السبب فى وجود الثقافة؟ أم كانت الثقافة موجودة من قبل؟ وهل باستطاعتنا أن نبنى الثقافة ومختلف النظم الاجتماعية كنتيجة للشعور بالذنب وندع هذه العقدة تستمر فى حياة الأجيال اللاحقة كما يفترض فرويد . وليس هذا فحسب ولكنه يضع كذلك قاعدة عامة للأنثروبولوجين حيث يؤكد ضرورة افتراض النواحى النفسية للجماعة أو بمعنى آخر استمرارية الحياة الإنفعالية ولكن يستطيع الانثروبولوجيون أن يتبينوا بوضوح الوسيلة التى ترتبت بها خبرات كل جيل وتراكمت للأجيال المتعاقبة هذه الوسيلة وهى الثقافة التى صاغها الإنسان وشكلته هى بدورها فهى فوق مستوى الفرد. وهى الوسيلة الوحيدة التى يعبر بها الإنسان عن أى دافع ابتكارى ليساهم ويضيف إلى القيم الانسانية . ونتساءل مع مالينوفسكى هل حدثت هذه الجريمة التى تسببت فى عقدة أوديب فى حالة الطبيعة وتركت آثارها فى التقاليد الثقافية التى لم يفترض وجودها فى ذلك الوقت ولكن الندم والصراع والتناقص الوجداني وكل الاستجابات الانسانية كلها تعلمها الانسان بالثقافة أو بمعنى آخر أن الثقافة هى التى علمتها للإنسان.

وبناء على ماورد ذكره تصبح اتجاهات الصراع والعقد غير ممكنه الحدوث وتصبح افتراضات فرويد معترض عليها. مثال ذلك طرد الأب للأولاد الذين لديهم الرغبة الغريزية لترك الأسرة تلقائياً طالما لم يعودوا فى حاجة لوالديهم

وكذلك افتقار الذكور للإناث طالما لم يعودوا فى حاجة لوالديهم ووجدت الإناث فى المجموعات الأخرى ثم لماذا يكره الذكور الكبار الأب ويحاولون قتله طالما فى استطاعتهم انتظار اعتزاله للكبر والشيخوخة فيجد هؤلاء الأبناء فرصة لأخذ مكانه ويعد كل سؤال من الأسئلة - السابقة اعتراضاً على افتراضات فرويد التى تضمنتها نظريته.

أما إذا سلمنا بفروض فرويد الخاصة بالجريمة التوتمية Totamic Crime التى سببت الندم المعبر عنه فى التقديس التوتمى كذلك فى نظام المحرمات الجنسية فسيدل هذا على أن لهؤلاء الأبناء ضمير وأن الضمير خاصية انسانية غير فطرية وإنما اكتسبها الانسان كنتيجة للثقافة :- كذلك لايمكن القول أنه بأمكان الأبناء القتلة سن التشريعات وترشيح القيم الأخلاقية والطقوس الدينية ومختلف النظم لأحداث كل هذا لايمكن تصور حدوثه فى وقت سابق لنشأة الثقافة التى لايمكن أن تخلق فى لحظة وكنتيجة لعمل واحد فالتحول من حالة الطبيعة للثقافة لم يتم فى مرتين واحده ولم يكن تحولا فجائياً لأن تطور عناصر الثقافة المادية والمعنوية تم بطريقة تراكمية وعبر امتدادات زمنية طويلة . وبهذا يكون هناك استحالة فى افتراض واعتبار الجريمة التوعية السبب الأول للثقافة وهكذا يكون هناك استحالة فى افتراض نشأة أصول الثقافة كنتيجة بجريمة ما أو ثورة.

وإذا كان السبب الحقيقى لعقدة أوديب والثقافة مما كان نتيجة لعمل معين وإذا تخلقت العقدة فى ذاكرة الجنس البشرى فأنها قطعاً ستندثر بمرور الوقت فهذه العقدة لنظرية فرويد تعد حقيقة فى أول الأفراد ولكنها فى الثقافة الأرض ستختفى [1].

1) C. Colverton, The Making of Man, ch. Marret New York, p. 60.

الدراسات الحديثة فى مجال الانثروبولوجيا السيكلوجية :

ومن أهم الدراسات الحديثة فى مجال الأنثروبولوجيا السيكلوجية الدراسات الخاصة بالطابع القومى National Character ويعنى بها الصفات والسمات السيكلوجية العامة التى يشترك فيها أفراد مجتمع معين والتى ترجع إلى التأثيرات الدائمة الناتجة عن الطابع الثقافى لهذا المجتمع. و د استخدم العلماء الذين قاموا بدراسات حقلية عن الطابع القومى لمختلف المجتمعات مناهج وطرق انثروبولوجية وسيكلوجية فاستخدموا الملاحظة المباشرة خاصة لعمليات التربية والتنشئة الاجتماعية للطفل والمقابلة وتاريخ الحياة وتحليل الأحلام والأساليب الاسقاطية السيكلوجية مثل الرورشاخ واختيارات .T.A.T ودراسة الثقافة عن بعد وذلك عن طريق اجراء مقابلات مع الأفراد المنتمين لتلك الثقافة المراد دراستها. والهدف من هذا هو التعرف على الأساليب المستخدمة فى تربية الطفل والاتجاهات الاجتماعية التى تؤثر فى العلاقات الشخصية بين الأفراد. وقد استعان العلماء كذلك بأفلام الكرتون والأخبار والمقالات الصحفية والصور وكلها وسائل تساعد العلماء على التحليل العلمى المنظم. وقد استعان بهذا المنهج العلماء الأمريكان لأسباب تتعلق بالحرب وطبقوه على اليابان [1] بقصد تركيب ثقافتهم وفهم مزاجهم وطابعهم الخاص . واعتمدوا على الكتابات والمعلومات التى كانت فى متناول أيديهم نظراً لإستحالة القيام بدراسات حقلية مباشرة وقت الحرب.

وقد قام بهذه الدراسة الخاصة للطابع القومى لليابان روث بندكت عام ١٩٤٦ كما استخدمت روث بندكت هذا المنهج وخرجت بدراستها الهامة التى ضمنتها كتابها المشهور أنماط الثقافة معتمدة فى ذلك على العديد من الدراسات

---

(١) د. أحمد أبو زيد ، البناء الاجتماعى ، الجزء الأول ، المفهومات الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦ ،ص٣٩.

التى قام بها بعض الانثروبولوجيين لبيان العلاقات القائمة بين نمط الثقافة السائدة فى بعض المجتمعات البدائية ومظاهر الشخصية كما تنعكس لدى الأفراد فى تلك المجتمعات. والفكرة الرئيسية تتمثل فى أن مثاليات القبيلة فى المجتمع القبلى تفرض على الأفراد وهذه المثاليات تكون الشخصية الموحدة التى تشترك مع غيرها فى مجموعة معينة من السمات الثقافية والخصائص السلوكية والنفسية حيث يتمثل احتواء المجتمع للفرد فى تأثير الثقافة فيه والتى تجعله يتمثل مع غيره قيماً ومبادىء ومثل خاصته وبذلك تصبح شخصيات الأفراد متطابقة مع الشخصية المثالية التى يريدها المجتمع والتى تعد مقياسا لباقى الشخصيات حيث يمد هذا النمط السائد أفراد المجتمع بالإدراك العام والاستجابة الموحدة تجاه القيم والمواقف التى تتطلب اتفاقا عاما كما يرى لنتون كذا تساعد على امكان التنبؤ باحتمالات السلوك فى المواقف المختلفة ومن شأن هذا العمل على تسهيل تفاعل الأفراد مع بعضهم البعض. ومثل هذه الشخصية الانسانية هى حقيقة مسلم بها فى كل المجتمعات.

كما يعتبر لنتون أن نمط الشخصية الأساسية يعد مسألة نسبية وهو يختلف من مجتمع لآخر تبعا للاختلاف فى النواحى الخاصة بالوراثة والاستعدادات السيكلوجية أى النواحى الفطرية وكذلك العوامل الثقافية التى يتربى فى ظلها الأفراد ويرى لنتون أن هذه العوامل الأخيرة تعد أكثر أهمية فى تأثيرها على الشخصية أكثر من النواحي والاستعدادات الفطرية [١].

وهذه النتيجة تتفق مع ماتوصلت إليه روث بندكت فى كتابها أنماط الثقافة والتى اعتمدت فيه على دراسات قام بها علماء آخرون لمجتمعات بدائية مثل قبائل زوني وقبائل كواكيوتل وقبائل دوبو ذلك إلى جانب قبائل قامت المؤلفة

Ralf linton, The Cultural Backgtound os Personality, appleat C. New York, 1965, pp. 137-139.

بدراستها بنفسها. وقد توصلت روث بندكت فى دراستها لأنماط الثقافة إلى ما أسمته بمبدأ النسبية الثقافية Culture Relativity وتعنى به أن كل ثقافة تتميز بطابع خاص نتيجة لما يسيطر عليها من اتجاهات عامة شاملة تميزها عن غيرها وتضفى عليها روحها الخاص Centeral Ethos وطابعها المميز. كما ترى بندكت أن أى ثقافة من الثقافات تتألف من عدد من الصيغ الثقافية التى تتكامل داخل نمط واحد عام يختلف عن غيره من الأنماط الأخرى الموجودة فى ثقافات مغايرة [1] ولذلك فأن كل ثقافة متجانسة تنتج شخصيات متماثلة فالصيغ الثقافية المختلفة ماهى إلا تعبيرات عن الاتجاهات النفسية التى تؤدى إلى التكامل الثقافى وبالتالى ظهور الشخصية القومية ومن الدراسات الهامة للطابع القومى دراسة جيوفرى جورر Geoffrey Gorrer على كل من الأمريكان والروس وكان ذلك فى الأعوام ١٩٤٨، ١٩٤٩ ، ١٩٥٥ وكذلك الدراسات الرائدة لمرجريت ميد التى أجرتها بنفسها لمعرفة الطابع القومى للأمريكين عام ١٩٤٢ ، ١٩٤٩ [2].

ولقد أجري كل من توماس وفلوريان زنانيكى دراستهما المشهورة عن الفلاح البولاندى وضمناها كتابهما بنفس الاسم واعتمد فيها المؤلفان على دراسة الشخصية والثقافة عن طريق تتبع تاريخ حياة الأفراد كما يبين الكتاب عناصر ومكونات الشخصية وعوامل ومظاهر تفككها وكذلك العوامل التى تؤدى إلى اعادة تكوينها وتماسكها وذلك عن طريق الرجوع إلى ثقافة المجتمع وأثرها فى ذلك [3].

ونظرا لوجود علاقة وثيقة ومتبادلة بين كل من النواحى النفسية والعمليات الفعلية من ناحية وبين الحقائق الاجتماعية التى تتضمنها الثقافة فى مجتمع

(1) Encylopedia of Anthroplogy, culture Personality, p. 103.
(2) Marvin Harris, The Rise of Anthropological Theory, Op. Cit. p. 418

(٣) د. أحمد أبو زيد – المرجع السابق ، ص٢٤٠ – ٢٤٣.

معين نجد أن جو لودون Joe Loudon قام بدراسته عن القطام الدينى والاضطراب العقلى فى مجتمع محلى جنوب ويلز وخرج من دراسته إلى نتيجة مؤداها إلى أن الضغوط والمحرمات الدينية والتطرف فى ذلك يمارس ضغطا على الشخصية ويؤدى إلى الاضطراب الفعلى.

كما أجرى لودون Loudon بحثا حول الاتجاهات فقام بتحليل الأدوار الاجتماعية فى مضمون الطبقة والمكانة وأثر الملكات الفردية وعلاقتها بالنواحى السابقة وتأثير كل منها فى الآخر. وكان لودون فى الأصل طبيباً ثم اتجه نحو الانثروبولوجيا وقام بدراسات عديدة فى مجال الانثروبولوجيا السيكولوجيا (١) وعندما قام إريك فروم E. Fromm وهو أحد علماء التحليل النفسى بدراسته التى تدور حول معرفة المتطلبات الوظيفية للشخصية العاملة فى المجتمع الصناعى المعقد ذى التنظيم البيروقراطى توصل إلى أن السمات الشخصية الضرورية والمطلوبة هى المثابرة والنظام والمحافظة على دقة المواعيد حتى يتم العمل بنجاح وفعالية. كما اهتم عالم الاجتماع روبرت ميرتون Merton بتحديد أنماط الشخصية التى تعمل بكفاءة فى الأنظمة البيروقراطية وبين كيف تؤثر هذه الأنظمة نفسها فى تحديد المتغيرات الشخصية ولمعرفة الطابع القومى اليابانى المعاصر قام ديفوس Devos بدراسة لمعرفة العمليات السيكلوجية التى تتضمنها ديناميات التغير الاجتماعى فى المجتمعات الريفية والحضرية اليابانية. وتوصل إلى أن تحقيق المنجزات الهامة فى المجتمع اليابانى الريفى والحضرى ترجع إلى الانشغال الدائم والعمل الشاق المتواصل الناتج عن الشعور بالذنب نتيجة للهزيمة التى لحقت باليابان فى الحرب العالمية الثانية إلى جانب المتغيرات المرتبطة بالقيم الاجتماعية كلها عوامل ساهمت وسهلت التغير السريع فى البناء الاجتماعى اليابانى وحولته من مجتمع إقطاعى إلى دولة حديثة وإلى مثل هذا

---

ed Polg & Daniel G. Bates, Culture & The Individual, Op. Cit., 130.

توصل هاجن Hagen فى دراسة أجراها عن الاقتصاد والتغير الاجتماعى فى عدد من المجتمعات . فقد ناقش هاجن العلاقة بين المتغيرات الشخصية والنظم الاقتصادية المختلفة كالنظم الاقطاعية والاشتراكية وغيرها والطريقة التى قد تسهل أو تعرقل التطور الاقتصادى. وتعد هذه الدراسة ذات دلالة هامة عن اهتمام الانثروبولوجيا السيكلوجية بالاتجاهات النفسية فى العلوم الاقتصادية والسياسية.

وعن القول بوجود علاقة وثيقة بين التربية وخبرات الطفولة وبين الطابع القومى قام جيوفرى جورر Geoffrey Gorrer بدراسته عن الطابع القومى الروسى. فقد كان جورر من المؤيدين لفكرة تأثير خبرات الطفولة على الشخصية البالغة فى روسيا خاصة الاتجاهات نحو السلطة التى يرجعها الباحث إلى طول الفترة التى يقمط Swaddling فيها الطفل فى مرحلة الطفولة المبكرة والتى تترك أثرها على حياته المستقبلة خاصة مايرتبط بنواحى الضبط النفسى والتعبير العدوانى لدى الفرد حينما يكبر.

وفى دراسة أخرى عن الطابع القومى الروسى أجراها بوير Bauer أراد أن يوضح فيها أسباب التوتر الذى يوجد بين الصفوة السياسية فى المجتمع الروسى. وبين عدد كبير من الأفراد الذين لايضمهم الحزب الشيوعى فوجد أنها راجعة أساسا إلى الاختلاف فى القيم والسمات الشخصية اللازمة والتى ينبغى أن تتوفر فى نسبة كبيرة من أفراد المجتمع. فجهود الصفوة فى التخطيط الاجتماعى والتغير لم تصاحبها تغيرات فى الأنماط الدافعة لمعظم قطاعات المجتمع بما يتمشى مع القيم الجديدة التى تدعو إليها الصفوة. ولذا نشأت هوة سيكلوجية نجم عنها التوتر السائد فى روسيا بين الصفوة وبين عامة الشعب الذين لايضمهم الحزب.

ويتفق هذا مع النتائج التى توصل لها ديفوس من خلال دراساته الحقلية حيث وجد أن اللامعيارية Anomi أو سوء التوافق لدى كثير من أفراد المجتمع

خاصة فى القوميات الناشئة الحديثة فى العالم انما ترجع إلى أن التغيرات الاقتصادية والقانونية المخططة لم تقابلها تغيرات مماثلة فى النواحى الأيدلوجية الخاصة بالقيم. كذلك لم يقابلها تغيرات مماثلة فى التأثيرات التشكيلية للطفل من خلال التنشئة الاجتماعية حتى يصبح قادراً على المشاركة الفعالة فى المجتمع الجديد حين يصير يافعا (1).

ولقد أصبح هناك اهتمام متزايد من جانب الانثروبولوجيين نحو دراسة المجتمعات المعقدة خاصة فى الولايات المتحدة الأمريكية حيث اتجه كثير من الانثروبولوجيين والعلماء المتخصصين نحو دراسة ديناميه العمليات السيكو ثقافية وتأثيرها فى السياسة والتغيرات فى المدن الأمريكية (2) ومن هذه التعقيدات المميزة لتلك المجتمعات والتى تهم الانثروبولوجيين الجانب المرتبط بالأبحاث والاختلاف الكبير فى النواحى الرمزية وفى أسلوب الحياة والاختلاف فى شبكة العلاقات الأولية والإختلاف الدينى والعرقى والأيدلوجى. ومن الملامح المميزة لتلك المجتمعات كذلك الصراع من أجل القوة سواء أكانت الاقتصادية أو السياسية والإختلاف داخل الجماعات مثل جماعة صفوة القوة والجماعات السياسية والنقابات والاتحادات ورجال الأعمال وروابط الشباب وغيرها من الاتحادات والروابط. ولذلك تركز الانثروبولوجيا اهتمامها على تحليل تلك العلاقات ومعرفة التداخل بين تلك الجوانب وتأثيرها فى سلوك الأفراد وأثر ذلك على بناء القوة فى المجتمع (3).

وبناء على ذلك رسخ فى التراث السياسى المعاصر أهمية التعرف على البناء

---

(1) George A. Devos, "National Character" International Encyclo., Vol. 11, 12.

(2) Howard Eloock. Political Behviorr, Methuen, London, 1976. p. 30.

Abner Cohen, Tow Dimensional Man, Univ, of California Press, U.S.A, 1978, p.10.

الاجتماعى لكل مجتمع من المجتمعات إذ يعتبر ذلك مدخلا للتعامل مع هذا المجتمع وذلك من خلال الإتصال بالأشخاص والجماعات المهيمنة على مقدرات المجتمع والمؤثرة فى أفكاره وآرائه وعقائده. حتى أن الدول تتلمس فى الآونة الحاضرة طرق الاتصال بالصفوة الحاكمة المسيطرة كى تقيم لها ركائز فى هذا المجتمع لما لها من مصالح معينة فى الارتباط بها ومن ثم تستطيع أن تروج لمصالحها أو تحميها أو تكفل على الأقل عدم الاضرار بها وبذلك تكتسب الانثروبولوجيا السيكلوجية أهمية معاصرة فى مجال ادارة العلاقات بين المجتمعات المختلفة. فليس من المعقول تصور الأنثروبولوجيا على أنها دراسة للمجتمعات التقليدية فحسب وإنما هى دراسة متطورة تتسم بأهمية معاصرة حيث أصبحت مرتبطة بالدول الحديثة التى تزايد فيها الصراع السياسى والاقتصادى من أجل القوة (١).

إن تحقيق الأهداف السياسية والاقتصادية وغيرها يتطلب استكشاف النماذج البشرية التى يراعى تحقيق تلك الأهداف عليها واستكشاف تلك النماذج يستلزم التعرف على الصفوات فى المجتمعات المدروسة وذلك أول الطريق فى تحديد أسلوب التعامل معها فقد يثبت على مر التاريخ أن طريقة تصرف الصفوة إنم تكون انعكاسا لأصولها وطريقة وصولها إلى مراكزها. فبنية الصفوة والظروف المحيطة بها تحدد كيفية اتخاذها القرارات وتأثيرها فى المجتمع (٢).

ولهذا تعنى الدولة الكبرى عند تحديد سياستها مع الدول الأخرى بدراسة الطابع القومى لأنماط الصفوة فى المجتمع لتحديد المنهج السليم للتعامل وتحقيق المصالح.

ولعل هذا مايعرف فى الولايات المتحدة الأمريكية فى ظل الدراسات

---

(1) Ibid. p. 21.
(2) Dwaine Marvick, Political Decision Makers, Ameyind, New York, 1972, pp. 13-17.

والتحليلات التى تجريها الإدارة الأمريكية فى إطار مايسمى بلعبة الأمم Game of Nations حيث تجرى دراسات عميقة وموضوعية للمجتمعات المختلفة لمعرفة وتحليل شخصيات الصفوة بصفة خاصة وتحليل منهجها فى التصرف وذلك عن طريق جمع البيانات الوافية عن نبت تلك الشخصيات وتطور نشأتها حتى وصولها إلى مراكز السلطة والقيادة أو المشاركة فيها والنظر إلى الفرد من الصفوة فى محيطه الثقافى بمعنى النظر إليه كصفوة فى جماعة ثقافية أو أثنية أو مجتمع محلى بما يحويه هذا المجتمع من قيم ومعايير واتجاهات وعرف وتقاليد معينة. كذلك النظر إلى سلوكه من زاوية ارتباطه بالمحيط الاجتماعى واعتباره استجابة ناجحة عن باعث أو دافع اجتماعى وثقافى معين فلقد أثبت الدراسات التى أجريت على الصفوات فى جميع أنحاء العالم أن معرفة بنائها وحركتها [1] يمكن تلمسها بوضوح إذا ما نظر إليها من خلال العوامل الثقافية والتاريخية التى تشكل السمات المميزة لبناء الصفوة فى مجتمع معين ذلك إلى جانب النواحى السيكلوجية الخاصة بها[2].

ومن الدراسات الانثروبولوجية التى أجريت فى مجال الانثروبولوجيا السيكلوجية فى مصر الدراسة التى أجراها الدكتور/ حامد عمار على قرية سلوا بأسوان بعنوان Growing up In An Egyptian Viillage وكذلك الدراسة التى قام بها المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية عن الثأر فى إحدى قرى الصعيد وهى قرية بنى سميع تحت اشراف الدكتور/ أحمد أبو زيد والذى استخدم فيها اختبارات الرورشاخ وذلك بقصد التعرف على خصائص ومكونات الشخصية الأساسية فى تلك الثقافة المحددة.

(1) Stein Rokkan, Comparative Research Across Cultures and Nations, Mouton, Paris 1988, pp. 93-95.

(2) مايلز كوبلاند - بطبقة الأمم - تعريب مروان خير - دار الفتح بيروت سنة ١٩٦٩ ، ص٢٠-٢٢.

كذلك الدراسة التى أجراها قسم الانثروبولوجيا عن الإنسان المصرى سنة ١٩٧٩ تحت اشراف الأستاذ الدكتور/ أحمد أبو زيد هذا وقد حققت الانثروبولوجيا السيكلوجية تقدما ملحوظاً فى السنوات الأخيرة نتيجة للاهتمام المتزايد بتدعيم الدراسات الانثروبولوجية بالنواحى السيكولوجية مما سيحقق فى النهاية فهاماً أعمق للانسان والمجتمع.

الفصل السابع
انثروبولوجيا اللغـــة

كتب هذا الفصل د. مها معاذ ، مدرس الانثربولوجيا - كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

الفصل السابع

انثربولوجيا اللغة

حول مفهوم اللغة :

اللغة من العوامل التى تتميز بها المجتمعات، بل من العوامل التى تهب لكل مجمع خصائصه المميزة ، فيقول «فندريس» فى كتابه الشهير «اللغة» : «ففى كل مجتمع ، مهما كانت طبيعته وحجمه ، تلعب راللغة دورا ذا أهمية أساسية ، اذ هى أقوى الروابط بين أعضاء المجتمع الواحد، وهى فى نفس الوقت رمز إلى حياتهم المشتركة، وضمان لها، فاللغة فى مرونتها ويسرها وامتلائها بالظلال الدقيقة للمعانى تصلح لاستعمالات مختلفة متشعبة، وتقف موقف الرابطة التى توحد اعضاء الجماعة فتكون العلامة التى بها يعرفون، والنسب الذى اليه ينتسبون» [1] .

والبشر فى مختلف انحاء العالم يتكلمون، ولكن تتعدد اللغات وتختلف باختلاف الاجناس والثقافات، ومع ذلك فان اللغة مع تعدد صيغها هى تلك العملية المرتبة التى تحتوى على نوع من الأصوات تمثل إداة يمكن استخدامها لنعبير عن كل ما نريده ، ويعتبرها بعض العلماء شفرة مرتبة منظمة تساعد على ترجمة ما يدور بداخلنا من افكار ومعتقدات، حيث انها تحول ادراكنا بصفة عامة الى صور لفظية يمكن ان تفسر عن طريق الآخرين [2].

على ان خطر اللغة فى حياة الفرد لا يقل عن خطرها فى حياة المجتمع، اذ هى الاداة الوحيدة التى تمكن الفرد من الدخول فى نطاق المجتمع الذى يعيش فيه، ولولا اللغة لظل الفرد حبيس العزلة الاجتماعية، غير عالم بكل ما يجرى

* كتب هذا الفصل د. مها معاذ ، مدرس الانثربولوجيا - كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

(1) J. Vendryes, Language, A Linguistics Introduction to History, First Ed., 1925. New York, R. 4. D.P. 321.

(2) Haviland, William, A., "Anthropology" Copyright, 1974. Holt Winston, Inc., New York, PP. 283 0 284

حوله من الأحداث الفردية والاجتماعية فقد قال «ماكس موللر» ان التفكير لا يتم بلا كلمات، لذلك فلابد أن يكون الفرد الذى تعوره اللغة - اذا وجد - يعوزه التفكير الفطرى أيضا .

ولا يقتصر دور اللغة فى حياة الفرد على صبغة بالصبغة الاجتماعية، وانما يتعدى ذلك ايضا الى معونته على الاحساس بفرديته فى وسط الخضم الاجتماعى [1].

فلا شك ان لكل منا اسلوبا معينا لا فى المسالك الشخصية فقط ، وانما فى الاستعمال اللغوى أيضا ، وقد يخاطب المرء نفسه فى بعض الاحيان، وقد يفكر بصوت عال، وقد يقيد فى مفكرته موعدا ليذكر نفسه به فى زمنه المحدد فهو بذلك يكتب بنفسه لنفسه ، فيعطى هنا للغة طابعا فرديا، وقد يتعثر المرء بحجر اثناء مشيه، فيسب ويشتم تحت دافع الألم الذى أحس به أثر الصدمة، وقد لا يوجه السب إلى انسان أو شيء معين عن قصد ، ولكن هذا السب لم يكن الا افرازا لغويا، اشبه ما يكون برد الفعل، وقد يغنى المرء لنفسه ، او يلقى الشعر، ويسر لسماع صوته ، فهذا يجعل الطابع الاجماعى للغة كذلك اجتماعيا فرديا.

والفكر هو الذى جعل اللغة الانسانية ميكانيزما متطورا معقدا اى ان العقل الانسانى يشكل الاطار الأوسع لحركة اللغة ونموها، فالانسان يطلق على الاشياء معانى من خلال احساسه بالشيء ، ويقول «الدكتور ابو زيد» فى مقالته «لعبة اللغة» [2] موضحا العلاقة بين اللغة والفكر فى كتاب «اليس فى بلاد العجائب» حين قيل للفتاة الصغيرة انه يتعين عليها ان تفكر جيدا قبل ان تتكلم، صاحت فى دهشة واستغراب «كيف اعرف ما أفكر فيه قبل ان أرى ما أقوله؟؟ وثمة قول آخر يناظر هذا القول وقد صدر هو ايضا عن فتى صغير «أننى أدرك ما

(١) تمام حسان ، اللغة بين المعيارية والوصفية، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، المغرب، ص ١٠.

(٢) د. أحمد أبوزيد ، مقالة بعنوان «لعبة اللغة» ، عالم الفكر، المجلد السادس عشر، العدد الرابع، مارس ١٩٨٦، وزارة الاعلام، (الكويت)

أعني ولكنني لا أعـرف كيف أقـولـه» ، وعلى الرغم من ان هاتين العبـارتين صدرتا عن طفلتين فانهما تكشفان بدقة عن العلاقة الوثيقة بين عملية التفكير والصياغة اللفظية وعن دور اللغة كأداة في التعبير عن الفكر، فاللغة هي التي تساعد على ترجمة الصور الفكرية الغامضة وصياغتها في كلمات وعبارات دقيقة ومفصلة ... اذن ... اللغة هى التى تمكن الفرد من. ان يفكر منطقيا وان يتحكم فى تجاربه، وان يتخيل الماضى ويرتب للمستقبل ، والكاتب الالمانى «لودفج فيورباخ» Ludwing Feuerbach يقول فى بيان أهمية اللغة للانسان: «ان الكلمات تجعل البشر احرارا ، فالشخص الذى لا يستطيع التعبير عن نفسه يصبح كالعبد ، فالحديث هو التعبير عن الحرية، والكلمة هى الحرية نفسها.. » [1].

والناس داخل المجتمعات لا تعيش في عالم الحركة والنشاط الاجتماعى فقط، وانما يقعون تحت رحمة اللغة ونظامها التى هى اداتهم الرئيسية للتعبير فى مجتمعهم، ومن الوهم تماما ان نتخيل ان الانسان يكيف نفسه للحقيقة بدون استخدام اللغة، وان اللغة ليست الا اداة رئيسية لحل المشاكل الخاصة بالعلاقات والانعكاسات ، وانما فى الحقيقة «اللغة» هى الاساس الفعلى لكل شيء ، فالحياة داخل المجتمع بنيت الى حد كبير على العادات اللغوية للجماعة [2] .

فاللغة تتألف من انماط من السلوك المتعارف عليه ، لذلك لا يمكن للغة ان توجد بغير مجتمع ، وليس هناك شخص له لغته الخاصة به وحده، لأن ذلك يعتبر مجرد «شفرة» وليس لغة، واللغة يرثها المجتمع لا الافراد كما انها ليست حقيقة بيولوجية، وتختلف اللغة من جماعة لأخرى ولو أنها تؤدى وظيفة واحدة بالنسبة

(1) Pei-Mario, "The Story of Language", J.B., Lippincott C., New York, 1949, P. 71.

(2) Ruth, N., "An Enauiry into its Meaning and Education". New York, 1957, P. 18.

لها جميعا ، وكما انه لا توجد ثقافة واحدة بل عدة ثقافات، كذلك لا توجد لغة واحدة بل عدة لغات، واللغة تستطيع ان تتغير، بل وتتغير بالفعل بأسرع مما تحدث التطورات البيولوجية، وتتبع فى ذلك قواعد مختلفة [1] . واللغة تتصف بالمرونة والتحرر ، لذلك فهى تستطيع ان تتشكل وتنحدر من جيل لآخر مثلما تنتقل العقائد والعادات من. غير أن يفطن الناس الذين يتكلمونها الى ذلك .

والواقع ان الاهتمام بمفهوم «اللغة» يرجع إلى عصور موغلة فى القدم، على الرغم من انه فى الفترة ما بين (١٩٢٠ - حتى ١٩٦٠) لم يهتم الانثروبولوجيون البريطانيون الاجتماعيون باللغة بصورة جادة، وان كانوا قد اهتموا بوجهة نظر العالم الانثروبولوجى «مالينوفسكى» وآرائه حول اللغة دون توجيه أى نقد لنظريته الشهيرة «سياق الحال» على الرغم من ان «الوظيفيين» فى القرن التاسع عشر قد انصب اهتمامهم حول الجانب التجريبى لهذه النظرية، وقد كان هناك كثير من العوامل التى ساعدت على اهتمامهم بهذا الصدد ، وذلك مثل الظروف الغامضة التى كانت تحوم حول بعض الجماعات المنعزلة والتى من خلالها ظهر معظم الاطار العملى فى هذا الصدد [2] ، كما يجب ان نضع فى الاعتبار انه كان هناك عدد ضئيل من الانثروبولوجيين فى ذلك الحين والذين لم يكونوا ينتمون إلى مدرسة معينة اهتموا باللغة وببعض المصطلحات التى أخذوا يبحثون عن اصولها ويحاولون تفسيرها فى ضوء سياقها الاجتماعى .

والاهتمام «**باللغة**» بدأ البحث فيه يتم من نواحى عديدة، فنجدها الآن تمثل موضوعا للفحص التحليلي المدقق للفلاسفة والمناطقة الذين يدرسون قوانين التفكير وانعكاسها فى اللغة، كذلك فان الطابع الاجتماعى للغة آثار اهتمام

---

(١) وليم هاولز، ما وراء التاريخ ، ترجمة وتقديم د. أحمد أبوزيد ، دار النهضة العربية، بيروت ، ١٩٨٤، ص ٨٤.

(1) Hilary Henson, "British Social Anthropologists qnd Language", A History of Separate Development, 1974. PP 119 - 120.

علماء الاجتماع والجغرافيا والتاريخ . والانثوبولوجيا، كما ان اكتساب اللغة واداءها لوظائفها الدلالية والايحائية والتأثيرية قد فتح الباب للباحثين السيكولوجيين لدراستها. وقد ظل هذا «المفهوم» (مفهوم اللغة) - لزمن طويل يمثل فكرة عامة تستخدم للدلالة على مجمل وسائل الاتصال الانساني،. وعلى مدى فترة طويلة كان هذا الفهم للغة هو التصور السائد لدى الغالبية من الدارسين فى هذا المجال .

ولقد أصبح مفهوم اللغة من أكثر المفاهيم تداولا كما انه اكثرها غموضا، فالتعريفات تعددت واختلفت بحيث أصبح من الصعب الاتفاق على تعريف شامل يعطينا صورة واضحة وكاملة عن مضمون كلمة «اللغة» ، لذلك نحن نعتبر ان افتقاد تعريف محدد وشامل لهذا المفهوم يأتى فى كثير من الاحيان بنوع من البلبلة والغموض، فضلا عن الصعوبات التى يواجهها من يريدون الانطلاق من اطار تصورى معين يتضمن فهما محددا للغة، وذلك لأنهم سيجدون انفسهم تائهين وسط مجموعة متناثرة من التعريفات لا تعطيهم فى النهاية فهما شاملا لبناء اللغة وديناميتها .

ونتساءل هنا : هل يمكن ان نصل الى تعريف محدد وشامل لمفهوم «اللغة» بحيث يصبح ذلك التعريف هو القاعدة الاساسية التى ترتكز عليها كل الدراسات والبحوث التى تقام فى هذا المجال؟؟

ولكى نحاول الاجابة على ذلك السؤال ، نقوم هنا :

أولا : بعرض معظم التعريفات التى قيلت حول ذلك المفهوم من جانب العلماء فى مختلف فروع العلم والمعرفة .

ثانيا : التقريب بين تلك التعريفات حسب الخصائص المشتركة بينهما.

(1) Hirszfield L & Hirszfield, H. of Different Blood, in Lance 197. No. 2. 1919 pp 567-679.

ثالثا : الوصول او استنباط تعريف محدد في ضوء هذه التعريفات لذلك المفهوم .

المحاولات العديدة التي قامت من جانب العلماء لتعريف وتحديد مفهوم «اللغة» :

تعددت التعريفات واختلفت حول هذا المفهوم، الأمر الذى دعا عالما لغويا شهيرا وهو «لويس هيلمسليف L. Heilmslev الى اعتبار اللغة: نسيجا وحدها Suigeneris أى كل مكتف بذاته»[1] .

كما دعا الفيلسوف الفرنسى المعاصر «جان بول سارتر» إلى أن يطلق على هذه الاختلافات عبارة «أزمة اللغة» [2] .

وقد كان العرب القدامى يرون ان كلمة «لغة» ليست اصيلة فى العربية بل دخيلة، وفدت عليها من اليونانية فهى تعريب لكلمة (لوجوس) Logos بمعنى المنطق، ويعطون احتمالا لذلك بالرجوع إلى معجم مقاييس اللغة لابن فارس حين يوحد بين (لغو) و (لغى) ، فيرى ان اللغو يدل على الشيء لا يعتد به ، وان اللغى يدل على اللهج بالشيء، ثم يقول بعد ذلك «ويقال ان اللغة مشتقة من اللغى، وهى عبارة تفيد معنى الظن لا معنى اليقين» [3] .

وقد كانت الخلافات النظرية حول مفهوم «اللغة» قديمة، فنراها فى كثير من آراء واتجاهات العلماء القدامى ، وقد كانت هناك مدرستان فى هذا الصدد:

- الأولى تسمى المدرسة الطبيعية Natural

---

(1) Heilmslevm L., "Prolegomenan to a Theory of Language", Bloomington, Indiana University Press, Trans. by F.J. (2nd. ed.,) Madison, 1961, P. 23.

(2) Whitehead, A.W., Modes of Thoughts, The Free Press, New York, 1968, P. 81.

(٣) احمد بن فارس، «الصاحبى فى فقه اللغة وسنن العرب، فى كلامها» تصحيح ونشر المطبعة السلفية ، القاهرة ، ١٩١٠، ص ٢٣.

- الثانية تسمى المدرسة الاصطلاحية Conventional.

وقد كان فيثاغورس وافلاطون ينتميان للمدرسة الأولى ، حيث ذهبا إلى أن اللغة نشأت عن ضرورة كامنة أو طبيعية سماها افلاطون (المثل) .

وكان كل من. ديموقريطس وارسطو ينتمى الى المدرسة الثانية حيث اعتقدوا ان اللغة قد نشأت بالاصطلاح او الاتفاق ، وان الكلمات مجرد رموز ، ورأى ان اسماء الاشياء لم توجد بالطبيعة، وانما توجد حين تصبح رموزا .

مفهوم اللغة :

والحديث عن مفهوم «اللغة» وما قيل عنها من تعريفات يستلزم منا ان نغوص فى أعماق تلك التعريفات العديدة حتى يمكن ان نستنبط بالتقريب تعريفا محددا لها، فموهبة الحديث واللغة المرتبة من صفات البشر، فقبل ان نبدأ فى عرض آراء واتجاهات العلماء حول ذلك المفهوم، ينبغ أن نقول ونؤكد انه لا توجد عشيرة أو مجموعة من الناس بدون لغة، كما لا شك انه لا توجد لغة عاجزة عن التعبير عن حاجات ومتطلبات من يتكلمون بها داخل مجتمعهم ، فلا يوجد خاصة من الناس مفرداتهم محدودة إلى درجة انهم لا يستطيعون الاستمرار والاتصال بدون استعمالات اضافية للاشارة او الايمادة إلى حد ان الادراك وسهولة الفهم والاتصال بين أعضاء تلك الجماعة يصبح مستحيلا فى الظلام [1] .

وحقيقة الأمر ان اللغة بالضرورة بلغت حد الكمال كوسيلة للتعبير والاتصال بين الناس في مختلف السمات الحضارية، واللغة لابد ان تتطور وترتقى حتى يمكنها ان تعبر عن التطور الثقافى او الحضارى الذى يحدث، ووجودها يعتبر شرطا اساسيا وجوهريا لقيام تلك الثقافات .

(1) Ben G. Blount, "Language Culture and Society", University of Texqas. Austin. Copyright (c) 1974. by Winthrop Pub. Inc, P. 46 - 47

ويقول «وليم هاولز» فى خاصية اللغة للانسان. «هناك اختلاف ملحوظ بين الانسان والقردة العليا بل وكل الحيوانات الاحرى وهو أننا نتكلم على العكس منها، اى عندنا ما يعرف باسم «اللغة» ، ولو كان سيجفريد سمع الطيور تتكلم بعد أن تذوق دم التنين لتخمر ذلك النبات - لأن اللغة بالمعنى الدقيق ثقافة، وبذلك فهى ليست فى مقدور البهائم» (١) .

وقد تناول موضوع «اللغة» عدد كبير من المدارس العلمية، ومنها مدرسة «علم الاجتماع الفرنسى» وكان من. أشهر علمائها - العالم «رولان بارت» الذي كان ينظر إلى اللغة علي انها نظام او نسق اجتماعى وثقافى لا يرتبط وجوده بوجود الافراد ، بل ان الفرد هو الذى يدخل فى هذا النسق منذ الولادة فيتربى فيه، وبذلك تعتبر اللغة أهم عنصر من عناصر التنشئة الاجتماعية (٢). وفى الاتحاد السوفيتى - تكلمت مدرسة «بافلوف السلوكية» عن اللغة، فأوضحت أنها تتألف من ردود فعل لمؤثرات خارجية يصبح الشكل المقبول اجتماعيا منها عادة لدى الفرد عن طريق الثواب الذى يقدمه له المجتمع سواء اقتصر هذا المجتمع على الوالدين فى بادىء الأمر أو امتد إلى أبعد من ذلك فيما بعد (٣) . كما تناولت مدرسة العالم اللغوى الشهير «نوم تشومسكى Nom Chomsky موضوع اللغة ، فأكد ان اللغة عملية معقدة، وان الانسان يولد ولديه قدرة لغوية محدودة تساعده على اكتساب آية لغة يعيش في مجتمعها، كما أبرزت تلك المدرسة قدرة الفرد المتكلم على تأليف وابتكار جمل وتعابير جديدة لم يقلها أحد من قبل ، أو على الاقل لم يسمعها هو نفسه من قبل (٤) .

(١) انظر فى ذلك كتابه (ما وراء التاريخ) ، ترجمة الدكتور احمد أبوزيد ، دار النهضة العربية، ١٩٨٤، ص ٧٨.

(٢) أحمد أبوزيد، عالم الفكرة، مقالة بعنوان و«النصوص والاشارات»، قراءة فى فكر «ولان بارت»، مجلة دورية، المجلد الحادى عشرة ، ١٩٨٠، ص ٢٥٣.

(٣) نايف خرما، اضواء على الدراسات اللغوية ، مجلة دورية (عالم المعرفة) ، ١٩٧٨، ص ١٣٨ .

(٤) المرجع السابق ، ص ١٣٩.

وقد كان عالم النفس الامريكى «سكينرSkinner» يتفق معه فى هذا الرأى، حيث كان ينظر الي اللغة علي انها عادة مكتسبة شأنها فى ذلك شأن العادات الاخرى التى يكتسبها الانسان، وانها تمكن الفرد من التعبير عن الاستجابة لمثير مصدره شخص آخر ، زى أنه ينظر للغة من زاوية الأنماط السلوكية كالمشى والأكل (١).

وعرف العالم اللغوى الشهير «رومان جاكبسون Roman Jakobson» اللغة بأنها نسقا من العلامات ، والعلامات دعامة ضرورية للفكر - ففيما يتعلق بالفكر الذى يخاطب المجتمع (مرحلة الاتصال) وكذلك الفكر الذى هو بسبيله إلى مخاطبة المجتمع (مرحلة الصياغة والتكوين) فان نسق العلامات الأكثر شيوعا هو اللغة بالمعنى الدقيق للكلمة ، بينما يميل الفكر الباطنى وبخاصة حين يكون فكرا ابداعيا إلى استخدام انساق أخرى من العلامات تكون أكثر مرونة وأقل خضوعا للقواعد من اللغة ، بحيث تتيح قدرا أكبر من الحرية والديناميكية للفكر المبدع الخلاق (٢).

ويعرفها «هيجل Hegel» الفيلسوف الألمانى الشهير بقوله : «اللغة» هى فن التفكير النظرى فى معناه الحقيقى من حيث أنها تمثل التعبير الخارجى عنه(٣).

وينظر عالم اللغويات الأمريكى «سابير A. Sapir» إلى «اللغة» على أنها وسيلة انسانية خالصة لاغريزية non - instinctive لتوصيل الأفكار والعواطف والرغبات بواسطة نسق من الرموز التي تم اختيارها مسبقا (٤) ، ولكى

(1) Skinner, F.: Verbel Behavior, N.Y., Appleton Century Crofts, 1957, p. 11.
(2) Arthur Koestler, The Act of Creation, Pan Books, London, 1964, pp. 173-174.
(3) Hegel. Philosophy of History, Trans. J.L. Homes, Wiley and Sons, 1973, p. 291.
(4) Sapir, E., Language, "An Introduction to the Study of Speech", N.Y. Harcourt, Brace and Company. 1921, p. 11.

يقرب «سابير» تعريفه هذا إلى الأذهان . قام بمقارنة اللغة بنظام السير ، وقال أن السير وظيفة انسانية موروثة بيولوجيا ، وأنه وظيفة عضوية كل فرد فينا خلق مهيأ لها بعكس اللغة تماما والتى تحتاج إلى العيش وسط الجماعات الانسانية حتى يمكن أن تتم عملية اكتسابها.

ويعرفها «جيمس ماكميلان» بأنها نظام اتفاقى arbitrary لرموز صوتية vocals Signals تصدر عن الإنسان ، ويتفاعل بها عند استعمالها فى الجماعات الانسانية ، ويستبعد هذا التعريف الكتابة ، الايماءات ، أصوات الحيوانات ، ونظم الشفرة المرئية أو المسموعة أو الملموسة [١].

وعرف اللغوى «كارول» اللغة على النحو التالى : «أية لغة من اللغات هى نسق بنائى Structural System من الأصوات المعرفية المنطوقة، ومن تتابعات الأصوات التى تستخدم فى التعامل بين الأفراد Interpersonal Communication عند مجموعة من البشر ، وتصنف الأشياء والأحداث والعمليات التى تتم فى البيئة الانسانية [٢].

وأخيرا .. عرفها اللغوى «ماريوبيه Mario Pei» فقال : أن اللغة تتكون من كلمات ، وتلك الكلمات تؤلف جملا متكاملة تحمل كل منها معنى معينا للمستمع، والكلمات هى رمز الفكرة ، ونحن يجب أن نتحكم فى كلماتنا لاستخدامنا ، فاللغة هى محتوى الرموز الذى يحمل أفكارنا وتصوراتنا [٣].

هذه المجموعة من التعريفات يمكن أن نلاحظ من خلالها اختلاف وجهات

(1) Mc. Millan, J.B., "Summary of Nineteenth Century and Comparative Linguistics", in Collage Composition and Communication. No.5, 1954, p. 141.
(2) Carroll, J.B., "The Study of Languagē" Harvard Univs. Press, U.S.A., 1960, p.7.
(3) Mario Pei, "Au About language", L.B. Lippincott C., New York, 1954, p. 36.

النظر في تعريف المقومات المتكاملة للغة ، مما يؤدى ذلك إلى عدم الاتفاق على تعريف واحد شامل جامع لكل المقومات ، فهذه التعريفات تبرز وجوها مختلفة للغة حسب فكر صاحبها وتخصصه ، فنرى مثلا «هيجل» الفيلسوف يعرفها من الوجهة المنطقية و «سابير» اللغوى يعرفها عبر نمطها الرمزى ، و «سكينر» السيكولوجى يراها من حيث تأثيرها وتأثرها النفسى .. وكلها وجوه تكمل بعضها البعض ولكنها فى النهاية لاتعطينا تعريفا محددا شاملا.

الاتجاهات النظرية فى تعريف «اللغة» :

ظل مفهوم «اللغة» يعانى الكثير من التباين والتناقض من جانب العلماء والدارسين حتى يومنا هذا ، وانقسم العلماء إلى ثلاث فرقاء :

أ - فريق يأخذ بالتعريف اللغوى البحث.

ب - فريق يأخذ بالتعريف الاجتماعى.

جـ - فريق ثالث يأخذ بالتعريف اللغوى مضافا إليه الصبغة الاجتماعية ، أي أنه يجمع بين الفريقين السابقين.

(١) الاتجاه الأول : الاتجاه اللغوى :

يأخذ أصحاب هذا الاتجاه بالتعريف اللغوى لمفهوم «اللغة» ومعظم هؤلاء من اللغويين ، فاللغة عندهم أولا وقبل كل شىء نسق من الرموز الصوتية، وتكمن قيمة زى رمز فى الاتفاق عليه بين الأطراف التى تتعامل به ، وقيمة الرمز اللغوى تقوم على علاقة بين متحدث أو كاتب هو المؤثر وبين مخاطب أو قارىء هو المتلقى ، واللغة هي وسيلة التعامل ونقل الفكر بين المؤثر والمتلقى ، «والمعنى هو مفتاح الاتصال هنا ، فعند الاتصال بالآخرين فاننا نقوم بترجمة اتصالاتنا فى شكل رموز تمثل اللغة ، فنوصل مافى الذهن إلى آخر ليتلقاه هو ويحوله إلى

(1) Myers, E& M., "The Dynamics of Human Communication". A :Laboratory Approach, Copyright, 1973. Mc graw Inc p. 45.

نظام لغوى له معنى ومفهوم. والأساس هنا هو استخدام بل توظيف الرموز التى نستخدمها لكى نجعل المعنى مفهوما لدى الآخرين [١]

والرموز اللغوية Linguistic Symbols رموز صوتية ، ومعنى هذا ان طبيعة اللغة تتخذ فى المقام الأول عند أصحاب هذا الاتجاه صورة صوتية مسموعة، أما الكتابة فهى فى أحسن أحوالها محاولة للتعبير عن اللغة فى واقعها الصوتى، فالكتابة محاولة لنقل الظاهرة الصوتية السمعية إلى ظاهرة كتابية مرئية، فاللغة تسمع بالاذن، والكتابة ترى بالعين، والكتابة محاولة لنقل اللغة من بعدها الزمنى إلى البعد المكانى ، فالظواهر اللغوية الصوتية تتابع فى الزمن والحروف المكتوبة تتابع فى المكان [١].

وتعتبر الكتابة نظاما رمزيا يخدم عملية اختزان النظام الرمزى الآخر المتمثل فى اللغة المتكملة، فالرموز البصرية تقف لتلك الملفوظة ، وهو نوع من أنواع القراءة أيضا، فالكلمة مصطلح مطموس وغير واضح ambigusus فهى تشير إلى عنصرين (مسموع) audike و (مكتوب) written، والأخير يتميز بالشكل الرسمى المدون، بينما العنصر المسموع يميل إلى تلك الاشارات البصرية الصامتة والاشارات المسموعة، والكلمات عبارة عن رموز مكتوبة على ورق، والمعنى ليس فقط اتصال فيزيقى يرحل مع الكلمة من فم شخص إلى آخر ، ولكنه يحمل فى مضمونه رموزا هى التى تبنى العلاقة الفعلية بين من يستخدم تلك الرموز [٢]. ولعل أشهر التعريفات التى تؤكد هذا الاتجاه هو ذلك التعريف الذى قال به الاستاذ «هوسكوفتر Prof. Herskovits» وهو : «ان اللغة نسق من الرموز الصوتية التعسفية يمكن بها لاعضاء الزمرة الاجتماعية التعاون

(١) محمود فهمى حجازى ، علم اللغة العربية ، مدخل تاريخى مقارن فى ضوء التراث واللغات السامية، وكالة المطبوعات ، الكويت، ١٧٣، ص ١٠.

(2) Anthropology. Race, Language, Culture, Psychology, Prehistory, "Kroeber" Oxford IBH, Pub. Co., S. Ed., 1972, PP. 233 - 234.

والتفاعل. فالكلام يعتمد على القدرة على عمل التجريدات بكثرة وسخاء والتعبير عن تلك التجريدات برموز معينة، ثم استخدام تلك الرموز فى سرعة وطلاقة» .

كما جاء «اوزوالد شبنجلر» O. Spengler وأكد ان جوهر ا غة هى الرموز والمعانى التى تدل عليها هذه الرموز [1] وأيده فى ذلك عالم اللغة «جرينبرج Greenberg» الذى اعتبر اللغة نظاما من الرموز الملفوظة مرتبطة بجموعة من القواعد [2] .

٢ - الاتجاه الثاني : الاتجاه الاجتماعي :

ويتمثل هذا الاتجاه في ان اصحابه يأخذون بالتعريف الاجتماعى لمفهوم «اللغة»، ومعظم اصحاب هذا الاتجاه من الانثروبولوجيين وعلماء الاجتماع.

فاللغة عندهم ظاهرة اجتماعية وفردية، أولا : «فردية» لأنها تختص بالانسان كفرد، وهى عبارة عن مجموعة تجارب تعكس ما يحدث فى عقل الانسان وما بداخله، ثانيا : «اجتماعية» لأنها مرتبطة بالمجتمع وبنائه وتكوينه ، فهى فى أبسط صورها الرسالة المستخدمة بين فرد وآخر داخل المجتمع الواحد ، وما من مجتمع انسانى يقام بغير لغة [3].

ويعتبر مارتينيه Martinet واحداً من الذين أدركوا الصبغة الاجتماعية لمفهوم اللغة ، حيث هى فى نظره وسيلة هامة من وسائل الاجتماع وأداة ذات غرض محدد [4].

(١) اوزوالد شبنجلر، تدهور الحضارة الغربية ، ترجمة أحمد الشيبانى ، الجزء الثانى ، دار الحياة ، بيروت ، ١٩٦٤ ، ص ٣٩٧.

(2) GREENBERG, J.H. ESSAYS IN LINGUISTICS, CHICAGO, PHOEUIX BOOKS, 1957, P. 1.

(3) Robert E. Yarder, J. Burl Hogins, "Language", An Introductory Reader, San Diego Mesa Collage, New York, 1969, pp. 19 - 21.

(4) Martinet, "Phonology as Functional Phonetics", The Philological Society Bub., XV. London, 1949, p. 5.

وقد أدرك العالم الانثربولوجى الشهير «مالينوفسكى Malinowaki» تلك الصبغة الاجتماعية وأكد عليها فى تعريفه للغة ورفضه اعتبار مجرد وسيلة لنقل الأفكار من شخص لآخر ، فاللغة عنده مرتبطة بالعمل، فهى تنقل فكرة تدعو إلى العمل سواء أكان عمل فرد أم عمل جماعة ، فهى فى نظره حلقة من سلسلة النشاط الانسانى المنظم ، وهى ضرب من العمل، وليست أداة عاكسة للفكر ، ويقول [1] :

"In its primitive uses, Language functions as a link, in concerted human activity, as a piece of behaviour, It is a mode of action and not an instruments of reflection".

وقد خرج مالينوفسكى بنظريته الشهيرة فى اللغة والتى تعرف باسم «سياق الحال» Context of Situation من دراسته الشهيرة لمجتمع التروبرياند، فقد وجد مالينوفسكى اثناء دراسته صعوبات كثيرة فى العثور على مرادفات لفظية حرفية لتعبيرات كثيرة يستخدمها اهالى المنطقة، فقام بجمع تلك المرادفات وقال بأن ترجمة هذه العبارات الى لغة اخرى تسلب نصها الاصلى الكثير من خصائصه ومعانيه، واننا يجب ان نفسر دلالة كل لفظة او عبارة داخل اطار السايق الاجتماعى والثقافى الحقيقى الذى تنتسب اليه .

ويؤكد فريق هذا الاتجاه على ضرورة وجود اللغة لايجاد الحياة داخل اى مجتمع بشرى ، فميل الانسان الى تنظيم عناصر السلوك الانسانى تنظيما محكما يجعله فى أشد الحاجة الى تنظيم وترجمة افكاره وسلوكه للآخرين، وهذا لن يتسنى له الا من خلال اللغة، وفي هذا ينبه «ابن جنى» إلى خاصية طريفه فى

(١) عبده الراجحى ، اللغة وعلوم المجتمع ، مطبعة الاسكندرية ، كلية الآداب ، ١٩٧٧، ص ٢٦.

علاقة الانسان باللغة عبر الحاجة، تتمثل فى وعيه للعلاقة بين وجوده وتكامل بعده اللغوى لدرجة انه يعزو تصرف الانسان فى بناء لغته، إلى الوعى بضرورة سد الحاجة أولا ، وبالذات فاذا وضح لنا ان الحاجة هى السبب الاساسى لوجود الظاهرة اللغوية، لزم ان يستقر بالاستدلال ان اللغة مولد للمنفعة من حيث هى وسيلة لسد الحاجة الفردية والاجتماعية [1]. فالفردية والاجتماعية هما المظهران الاساسيان للغة وهما لا ينفصلان عن بعضهما البعض، فاللغة هى التى تضيق الفجوة بين الخاصتين، فهى التى تجعل الانسان يعيش كشخص مستقل التجارب والافكار وفى نفس الوقت عضوا فى مجتمع متألف وفى جماعة اجتماعية [2] .

ويقول «ابن مسكويه» موضحا أهمية اللغة للحياة الاجتماعية: «ان السبب الذى احتيج من اجله الى الكلام ، هو ان الانسان الواحد لما كان غير مكتف بنفسه فى حياته، ولا بالغ حاجاته فى تتمه بقاءه مدته المعلومة وزمانه المقدر المقسوم، احتاج الى استدعاء ضروراته فى مادة بقائه من غيره، ووجب بشريطة العدل ان يعطى غيره عوض ما استدعاه منه بالمعاونة التى من اجلها قال الحكماء «ان الانسان مدنى بالطبع» وهذه المعاونات والضرورات المقتسمة بين الناس التى بها يصح بقاؤهم وتتم حياتهم.وتحسن معايشهم ، وهى اشخاص واعيان من. أمور مختلفة واحوال غير متفقة، وهى كثيرة غير متناهية، وربما كانت حاضرة فصحت الاشارة اليها ، وربما كانت غائبة لم تكف الاشارة فيها ، فلم يكن بد من ان يفزع الى حركات بأصوات دالة على هذه المعانى بالاصطلاح ليستدعيها بعض

(١) ابو الفتح عثمان ابن جنى ، الخصائص ، تحقيق الشيخ محمد على النجار، مطبعة دار الكتب، القاهرة ، ١٩٥٢ ، الجزء الاول ، ص ٦٧ .

(2) Robert yardr, Language, An Introductory Reader, San Diego Messa Collage. New York, 1969. PP. 21 - 22.

(٣) ابو حيان التوحيدى ، وابو على بن مسكويه ، الهوامل والشوامل، نشر أحمد امين. والسيد احد صقر ، القاهرة ، ١٩٥١، ص ٦ - ٧.

الناس من بعض وليعاون بعضهم بعضا فيتم لهم البقاء الانساني وتكمل فيهم الحياة البشرية [٣]

٣ الاتجاه الثالث : الجمع بين الاثنين (اللغوى والاجتماعى) .

هذا الاتجاه يأخذ أصحابه بالتعريف اللغوى لمفهوم «اللغة» ، مضيفا اليه معنى ذا حس اجتماعى ، وهذا الاتجاه هو الذى يمثل الغالبية العظمى من اللغويين المحدثين واعمالهم ودراساتهم اللغوية [١]

ويقوم هذا الاتجاه على الجمع بين الاتجاهين السابقين ، فهم يأخذون من الاتجاه الاول (اللغوى) الخصائص البنائية المحضة، ومن الاتجاه الثاني أولوية الخصائص الوظيفية، وقد رفض اصحاب هذا الاتجاه التعريف الكلاسيكى للغة، وذلك تم لهم من منطلق ملاحظة انواع من الوظائف الكلامية كالمنولوج (الكلام الانفرادى) وكثير من صور استعمال اللغة فيما يسمى بالسلوك الجماعى كالصلاة والدعاء وعبارات التحية المألوفة ، وترديد اصوات وكلمات غير قاصدين الا المتعة بأصواتنا ، والانتشار بلغتنا .. ولكها لا شأن بتوصيل الفكر او التعبير عنه[٢] . وقد عبرت الكاتبة الفرنسية مدام «دوستايل» عن هذا الاتجاه بقولها: «أنها ليست كما هى عند غيرنا مجرد وسيلة لتوصيل افكارها واحساساتها، وشئونها، ولكنها آلة يحب الانسان ان يلعب بها ، وهى تحرك النفوس كالموسيقى عند جماعات ، والخمور القوية عند آخرين ..» [٣] .

(١) محمد حافظ دياب، مقدمة فى علم اجتماع اللغة، رسالة دكتوراه ، جامعة الرياض، ١٩٨٠، ص ٣٠١ - ٣٠٢ .

(٢) د. محمود السعران ، اللغة والمجتمع ، رأى ومنهج ، دار المعارف ، الاسكندرية ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٣، ص ٢٣ - ٢٤.

(٣) انظر فى ذلك كتاب :

Jespersen, "Language", PP. 7.- 8.

تعليق :

بعد هذا العرض للتعريفات المتعددة للغة التى جاءت على ايدى الكثير من العلماء فى مختلف فروع العلم والمعرفة استطيع ان اوضح انه مهما اختلفت التعريفات وتعدت لمفهوم واحد - (مفهوم اللغة) فانها قد تضمنت خاصتين هامتين تتكامل بهما جوانب هذا المفهوم وهما :

- الخاصية البنائية والخاصية الوظيفية.

بكل خاصية من هاتين الخاصيتين توضح جانبا معينا من جوانب وابعاد المفهوم، يساعد ذلك كثيرا على اداء وظيفته وأخذ مكانه السليم فى ساحة العلم.

ومن تلك التعريفات السابقة ، نستطيع ان نستنبط تعريفا محددا يشتمل على معظم جوانب المعانى التي وردت قبل ذلك فى تعريفات العلماء من مختلف المدارس العلمية المتخصصة. فنقول:

«ان اللغة هى اداة الانسان الرئيسية للعيش والتعاون فى مجتمع بشرى، وهى عبارة عن رموز صوتية تحمل مضمونها معنى ثقافيا يحقق غرض الاتصال، وهى تكتسب من المجتمع والسنة الناس، وتتوارثها البشرية» .

وفى هذا التعريف اؤكد على ضرورة ان اربط بداية الكلام بالمعنى الحقيقى بأول بوادر الثقافة، فاللغة والثقافة شيء واحد الى حد كبير، ولما كانت الثقافة مسألة اجتماعية ولما كانت اللغة ضرورية للتعبير عن الاشياء المجردة، فانه يصعب تصور الثقافة من غير اللغة، كما ان تعديها لمرحلة المحاكاة الخالصة وقياس الافعال البسيطة وهى المرتبة التى تعلو مباشرة على الشمبانزى، لابد أن تسير اللغة معها جنبا الى جنب، وفى النهاية فالاثنان معا يسخران لخدمة البشرية والانسان على وجه الأرض.

ميكانيزم الحديث . وعمومية اللغة :

ماذا نعنى بالحديث ..؟؟

ان اللغة المنطوقة التى تعتمد على استعمال الصوت اللفظى هى وسيلة الانسان الرئيسية فى التعامل مع غيره من أبناء جنسه، ولاشك أن التاريخ الحقيقى للانسان يؤكد على أن اللغة الصوتية تمثل المركز الأول على كل الأنواع الأخري من رموز الاتصال (الكتابة ، الايماءات ، الاشارات ، ..الخ). واجهاز الذى يستخدم فى نطق اللغة واستخراجها واحد عند كل الناس for all known people ، وهو يتكون من الحنجرة والحبال الصوتية الرقيقة، والأنف واللسان والحلق والشفاه ، ومع أن الدافع الأصلى للكلام يمكن حصره فى الحنجرة ، الا أننا يمكن أن نعتبر أن الألفاظ السمعية الرقيقة تعتبر نتيجة للنشاط العضلى للسان، وهو عضو وظيفته الأولى والأساسية لاتمت بصلة لاصدار الأصوات، ولكنه فى النشاط الصوتى الفعلى لاغنى عنه لتطور الصوت التعبيرى والذى نسميه فى النهاية «اللغة» (١).

والبحث فى أصل اللغة وبداية الحديث والكلام الانسانى كان دائما موضع اهتمام الكثير من العلماء اللغويين، ويقول «روجرواسكوت» Roger Wes-cott فى كتابه "Language Origins" : «ان البحث فى أصل اللغة والكلام الانسانى عاد وشغل معظم الدارسين اللغويين من جديد، وان معظم الدراسات اللغوية تقوم الآن على أسس منهجية سليمة للبحث فى ذلك الجانب.. ويقول ان معرفتنا لأصل الحديث وكيف تعلم الانسان اللغة تعتبر قاعدة أساسية للبدء فى الدراسات اللغوية العديدة ، فلكى نتبين ونتعرف جيدا فروع الشجرة لابد أن نكشف عن الجذور الرئيسية التى نبتت تلك الفروع من خلالها (٢).

(1)Ben G. Blount, "Language and Culture and Society" University of Texas, Copyright (c) 1974, by Winthrop Publishers, Inc., pp. 48-49.

(2) American Anthropologist, Journal of the American Anthropological Association, volume 78, Number 3, Septmber 1976, Copyright 1976 by Anthropologist Ass. U.S.A Linguistics, pp. 695-696.

واعتبر كتابه هذا عملا هاما فى مجال الدراسات اللغوية خاصة من ناحية تناوله لأصل «اللغة» الانسانية ، وأصل «الحديث» الانسانى وبدايته، كما احتوى كتابه هذا على العديد من طرق دراسة والبحث فى أصول اللغة مما يعتبره اللغويون أساسا فعالا فى الدراسات الحاضرة والمستقبلية [1].

وقد اعتبر كتاب "Zinikin's Mechanisms of Speech" من أهم الأعمال التى تناولت موضوع «الحديث الانسانى»، وقد نشر هذا الكتاب لأول مرة فى موسكو عام ١٩٥٨، وقام بترجمة هذا العمل إلى اللغة الانجليزية كل من : انطونيا فيلنوف جوف Antonina Filonov Gove وروبرت ابرناثى Robert Abernathy وقد وجد هذا العمل صدى كبيرا فى الدراسات اللغوية، خاصة وأنه يحوى فروضا وعوامل جديدة عن تلك التى قام بها اللغويين الأمريكيون والبريطانيون فى دراساتهم. وقد أسهمت مباديد Zinkin اسهاما كبيرا للغويين والانثروبولوجيين فى نفس الوقت، وقد ركزت معظم مبادىء هذا الكتاب على الدور الذى تلعبه حنجرة الفرد فى استخراج الحديث وطريقة فهمه [2].

وقد كان Zinkin يعرف أن معظم الدراسات الخاصة بالحديث قائمة على تلك النظرية الصوتية التى كانت شائعة فى القرن التاسع عشر، وقد كانت تلك النظرية تعتمد على أن ميكانيزم الحديث وفهمه يعتمد على العين ، اللسان، الفم ، وحركة كل منهم ، وأن التشابه الذى يوجد من الناحية التشريحية فى كل من حنجرة وبلعوم الانسان والرئيسيات جعلهم يتشابهون فى الصيحات التى يطلقونها فى أول الخليقة.

هذا «الفرض» جعل Zinkin يخرج منه بنتيجة أوجزها فى أن التغير الذى

(1) Ibid., p. 697.

(2) Ideberman, p., (Mechanisms of Speech) Linguistics, American Anthropologist, Journal of the American Anthropological Association, volume 73, number 4, 1971, Copyright 1971, U.S.A., pp. 904 -905.

حدث فى حجم وشكل الحنجرة بعد ذلك والفرو بينهما اى بين الرئيسيات والانسان) هو الذى ساعد على بناء الحديث الانسانى وأدرك Zin-kin أن الرئيسيات لاتستطيع أن تخرج من حنجرتها أصواتا عديدة تشكل حديثا ، بل أنها قاصرة على بعض الصيحات التى تعد على الأصابع ولاتستطيع أن تتطور ، وقال بأن حنجرة الانسان Vocal Tract مسئولة عن استاتيكية الحديث وديناماياته (١) :

"Which is responsible both for speech statics and dynamics", (p. 263).

كما يجدر بنا الإشارة هنا إلى العالم اللغوى الشهير «فرديناندى سوسير F. De Saussure حيث تناول موضوع الحديث الانسانى وقال : «ان الحديث (الكلام) هو ذلك النشاط العضلى الصوتى الذى يستخدمه الفرد أو الأفراد بواسطة العبارات التى لها واقع مادى مباشر، ويمكن أن تدرك ادراكا حسيا»(٢). والكلام أداء نشاطى طبقا لصورة صوتية ذهنية، وهو عبارة عن تطبيق صوتى ومجهود عضوى حركه لذلك الجهاز الذى يطلق عليه الحنجرة، ولذلك يعتبر معظم اللغويين الكلام ظاهرة فردية (٣)

وهذا التحديد من جانب العلماء فى تعريف مصطلح «الحديث» أو «الكلام» جعلهم يفرقون بين اللغة والكلام، فاللغة فى نظرهم ظاهرة اجتماعية على العكس من الكلام الذى يعتبر ظاهرة فردية، واعتبر «دى سوسير» أن اللغة نظام اجتماعى مستقل عن الفرد، فى حين أن الكلام هو فيها بمثابة التحقيق العينى الفردى، ويعنى هذا أن اللغة تقنين اجتماعى أو مجموعة من القواعد ، فى حين أن الكلام فعل فردى يقوم به الشخص أثناء حديثه.

(1) Op. Cit., p 906.
(2) De Sáussure, F Course de Linguistigue Générale, Pub. Par Charles Balley et Albert Sechehaye Payot Lausanne, 1916, p. 34.
(٣) تمام حسان، مناهج البحث فى اللغة ، دار الثقافة، الدار البيضاء، ١٩٧٤، ص ٣

ولقد كان معظم اللغويين الشبان يرون أن الكلام هو الموضوع المباشر للبحث اللغوى، فخالفهم د« سوسير فى اعتبار أن الكلام ليس هو اللغة كنظام، بل يعتبر الكلام طرقا مختلفة للافادة من النظام اللغوى، وليس لهذا النظام اللغوى وجود حسي مباشر، ولكن له وجودا حقيقيا فى عقل أبناء البيئة اللغوية الواحدة ، وان اللغة بهذا هى مجموع الوسائل والامكانيات التى تحدد بناء العبارات الفردية المختلفة [١].

التطور اللغوى:

كيف تطورت اللغة الانسانية حتى وصلت إلى صورتها الحالية؟

إن أهم حقيقة يمكن التأكد عليها هى عمومية اللغة وانتشارها فى كل المجتمعات الانسانية المعروفة فى مختلف مراحل التطور، واذا كان الشك ينتاب بعض علماء الاجتماع والانثروبولوجيا حول وجود بعض الظواهر الاجتماعية الأخرى كالدين أو الأسرة عند بعض الشعوب البدائية البسيطة، فليس هناك دليل واحد على وجود جماعة انسانية واحدة – مهما بلغت من التأخير لاتعرف اللغة فى صورتها الكلامية على الأقل [٢].

والانسان هو الكائن الوحيد الذى يتمتع بالقدرة على التفكير المنظم كما أنه ينفرد عن بقية الكائنات بوجود لغة متطورة لديه يستطيع من خلالها التفاهم وتوصيل الأكار ونقل المعلومات وتبادلها مع الآخرين، بل ونقل التراث الانسانى كله من جيل لآخر عبر الزمن، لذلك عرف الانسان اللغة منذ قديم الزمان، فاللغة قديمة قدم أى جانب آخر من الثقافة، فهى التى أتاحت للانسان أن يصنع المجتمع

---

(١) محمود فهمي حجازى، «أصول البنيوية فى علم اللغة والدراسات الانثولوجية» عالم الفكر، وزارة الإعلام، العدد الثانى، ١٩٧٧ ، ص ١٥٩ ، الكويت.

(٢) أحمد أبو زيد ، الفكر واللغة ، عالم الفكر ، المجلد الثانى ، العدد الأول ، ابريل ١٩٧١ ، ص٣ ، وزارة الاعلام ، الكويت.

وأن يقيم الحضارة ، وقد استخدم الانسان اللغة منذ آلاف السنين [١] . وهى عمر الانسان على الأرض.

وظاهرة أصل اللغة وتطورها وثيق الصلة بأصل الإنسان ذاته، ويتطور جسمه وعقله، وان معرفتنا بتاريخ الانسان قبل التاريخ المدون قد ازدادات فى القرن الأخير ، ولكن رغم تقدم معارفنا فى هذا الحقل، إلا أن أصل الانسان ونشأته من حيوان أبكم إلى حيوان ناطق ، ومن حيوان لايعقل إلى حيوان عاقل لايزال يكتنفه بعض الغموض، وتحوطه حجب من الأسرار ، لذلك يقول الباحثون أن معرفة أصل الانسان ونشأة لغته تعتبر من أقدم المشاكل التى جابهت الانسان[٢].

ونحن نتساءل دائما : كيف بدأت اللغة الانسانية فى المقام الأول؟ الحقيقة ان هذا التساؤل حول أصل اللغة وكيف بدأت وتطورت أصبح سؤالا متداولا ، وأصبحت مادته جديرة بالدراسة ، وقد كتبت عدة نظريات حول هذه النقطة. ولكننا مازلنا فى حاجة إلى العمل قليلا على أسس سليمة ومنطقية للغة واتصالاتها وذلك قبل أن نصل إلى الحقيقة فى شأن أصل اللغة وتطورها.

وليس معنى ذلك أننا نفقد الأمل فى التعرف على هذه الحقيقة ولكن العملية تحتاج فقط إلى إعادة بناء العملية الخاصة بأصل اللغة بصورة ذكية.. والسؤال الذى يشغل أذهاننا دائما هو : كيف تكلم الإنسان؟

ان الانسان لاشك باتساع ادراكه واحتاج إلى التعاون والاتصال، فاحتاج إلى

(١) نقول استخدم الانسان اللغة وكأن اللغة كانت موجودة أبدا ، ولعل هذا هو جوهر التعريف «الدوركايمى» للظاهرة الاجتماعية أنها سابقة. ولكن بلاشك أن الانسان هو الذى صنع اللغة، ويستدل على ذلك من تعدد اللغات فى العالم، فاللغة التى تنطوى على مجموعة معقدة من الأصوات والدلالات فهى حديثة، وهى وليدة الثقافة وهى مكون من مكوناتها.

(٢) أنيس فريحة ، محاضرات فى اللهجة وأسلوب دراستها ، معهد الدراسات العربية العالمية ، ١٩٥٥ ، ص١٢.

اللغة ولاريب باتساع المدارك كان يتدرج بتدرج النمو فيها ، فيكون احتياج اللغة بطريق التدرج أيضا ، وبعد أن كان التفاهم بالاشارات ثم بالمقاطع الصوتية القليلة أصبح أكثر لحاجات أكثر ، وهكذا .. إلى أن نمت اللغة وتطورت بنمو الإدراك وتكاثر الحاجة وتطور المجتمع البشرى، ومن ثم كيف المقاطع حروفا أمكن حصرها فكان منها اللغة (١).

ونرى هنا نفس الشيء تماما يحدث عند الطفل الصغير ، فالطفل أول مايتحرك لسانه بالكلام يكون ذلك منه بالحروف السهلة على النطق ، فاذا أدرك الأشياء أخذ يطلق عليها فى هذه الحروف ما لايخلو من مناسبة ، واذا اتسع ادراكه وانطلق لسانه بالحروف الأخرى قلد من هم حواليه بما يسمعه منهم من اطلاق الألفاظ على معانيها ، وهو فى ذلك سنتقل فى كلامه من لغو الأطفال إلى لغة الوليد إلى غرين الصبى ، ثم إلى لهجة العشيرة ثم إلى تهذيب الدراسة ، وهكذا تلقن اللغة (٢).

ويذهب كثير من العلماء إلى أن المراحل التى يجتازها الطفل فى أى فرع من فروع حياته تمثل المراحل التى اجتازها النوع الانسانى فى تعلمه للغة، فقبل أن يتمكن الطفل من الكلام يكون قد اكتشف وسائل كثيرة للاتصال بالآخرين ، وهى وسائل بسيطة وساذجة وتلقائية ولكنها تكفى على زى حال للتعبير، كما هو الحال مثلا فى البكاء للتعبير عن الجوع ، والأم أو عدم الشعور بالراحة والخوف، وهذه كلها وسائل فى كل المجتمعات الانسانية بلا استثناء وبغير اختلاف فى كل زمان ومكان، وان كانت تتخذ عند الكبار أشكالاً جديدة ومقصودة (٣). ولايلبث الطفل بعد ذلك أن يلجأ إلى بعض الأصوات ذات المقاطع

(1) Casson, Ronald W., "Culture and Congition", Anth. Perspective Mc. Publishing Co., Inc., New York, 1981, p. 23.

(٢) أحمد رضا العاملى ، «مولد اللغة» و منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت ، ١٩٥٦ ، ص ١٣ -١٤.

(٣) أحمد أبو زيد «حضارة اللغة»، مجلة عالم الفكر ، المجلد الثانى، العدد الثانى، ١٩٧١، الكويت ، ص١٩.

المتميزة للتعبير عن بعض حاجاته ويتدرج ذلك ويزداد حتى يملك ناصية اللغة . وهذا ماحدث تماما للانسان وللغة فى مرحلة نشأتها الأولى على حد قول العلماء اللغويين، وهذا الاتجاه يحمل اسم «نظرية التلخيص» أو «نظرية هيكيل».

ويقول العلماء : ان اللغة الانسانية قد نشأت وتطورت من أنواع التعبير الطبيعى ، وان الانسان قد افتتح هذا السبيل بمحاكاة أصوات الطبيعية وأصوات الحيوان والأشياء، والتعبير الطبيعى للانسان يشمل جميع الأمور الفطرية غير المقصودة التى تصحب الانفعالات (اللارادية) وذلك مثل الصراخ والبكاء والضحك واغماض العينين [١].

ونحن نجد هذه المرحلة تماما عند الطفل ، وتسمى «المرحلة الأولي» «أما بالنسبة للانسان فنحن نجد مرحلة «الصراخ الفطرى» أولى مراحل نشأة اللغة الانسانية، حيث يقول العلماء ان فى هذه المرحلة لم يكن فى أصوات اللغة الانسانية أصوات «مد« ولاأصوات «ساكنة»، وانما كانت مؤلفه من أصوات تشبه أصوات التعبير الطبيعى عند الانفعال. وكما قال العلماء ان الانسان لديه القدرة على محاكاة أصوات الطبيعة وأصوات الحيوان، نجد ذلك عند الطفل أيضا ـ فالطفل في بعض الأحيان يحاكى الأشياء وأصوات الحيوانات، وتعتمد هذه الأصوات على استعداد فطرى عند الطفل وهو غريزة المحاكاة [٢].

وقد كان الكلام الانسانى يعتمد فى البداية اعتمادا كبيرا على الاشارات اليومية والجسمية التى كانت تصحبه، فتكمل ناقصة وتوضح مدلوله، ثم مالبث أن أخذ يستغنى شيئا فشيئا عن هذا المساعد حتى كاد يستقل بالتعبير ، وهذه المرحلة تسمى «التعبير الوضعى الارادى». ثم بدأت اللغة تتطور ، فاجتازت فيما يتعلق بتطور أصواتها ثلاث مراحل :

---

(١) على عبد الواحد وافى، نشأة اللغة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٤٢ ، ص٦١ - ٦٢.

(٢) المرجع السابق ، ص ٦٤.

- مرحلة الصراخ التى كانت فيها أصوات اللغة شبيهة بأصوات الحيوان والأشياء ومظاهر الطبيعة.

- مرحلة أصوات اللسين.

- مرحلة الأصوات الساكنة أو أصوات التمرينات النطقية.

ويؤكد العلماء على أن اللغة الانسانية بدأت بألفاظ دالة على معان جزئية ثم تطورت بعد ذلك إلى ألفاظ دالة على معانى كلية خاصة بعد ارتقاء اللغة ونهضة التفكير الانسانى ، وان الصفة هى أول ماظهر فى الكلام، ثم ظهرت أسماء الذوات ثم الأفعال، واختتمت مراحل الارتقاء بظهور الحروف (١).

وأخيرا .. نستطيع القول أن العلامة «شليجل» وأعضاء مدرسته أكدوا على أن اللغات الانسانية الأولى كانت «عازلة» أى لاتتصرف فيها الكلمات ولاترتبط فيها عناصر الجملة بعضها ببعض بروابط ملفوظة، ولكن اكتساب الطفل لعملية الكلام لايفسر لنا نشأة وتطور اللغة، حيث أن الأطفال يكتسبون لغتهم الفطرية فى بيئة قد توطدت فيها قبل وجودهم ، ووجد فيها استخدام واضح وأصيل للغة التى تحيط بهم، وتكفى لارضاء حاجاتهم، وهم يسهمون بدورهم فى بعض الوضوح ، حتى ولو لم يكونوا قد أدركوا الكلام فعلا كما يجب أن يكون ، فان حالتهم تختلف تماما عن الجنس البشرى ككل فى ظروف سادت اللغة فيها وتشكلت (٢).

ومن ثم فان تشبيه العلماء لمراحل تطور اللغة بمراحل تطور لغة الطفل لايكفى لتفسير كيف تطورت لغتنا ، ولايوجد أى شواهد مباشرة بأصل اللغة وتطورها القديم ، ولم تترك اللغة المنطوقة أى آثار فى الرواسب الأثرية ، كما أن

(١) المرجع السابق ، ص٩٠ - ٩١.

(٢) على محمود فريد ، علم اللغة العام فى الفكر الغربى، المطبعة العالمية ، القاهرة ، ١٩٧٨، ص٤٠.

الدراسات المقارنة للغات الحديثة تخفق فى تقديم شواهد حول كل من أصل اللغة ومراحل تطورها.. وعلى الرغم من أنه قد يتضح بالبرهان أن مشكلة أصل وتطور اللغة غير متاحة للحل ، إلا أنه موضوع هام يسترعى انتباه كل من يقرأ عن اللغة.

تعليق :

لاشك أن هناك علاقة وثيقة بين تطور اللغة وبين تطور عقلية الانسان، فالعلاقة بين اللغة وسلوك وعقلية الجماعة علاقة بين متغيرين ديناميين، فكلما تطور عقل الانسان وسلوكه استطاع بذلك أن يطور لغته. فلو بحثنا فى أى لغة لاتضح لنا أنها تحتوى على عوامل تتفق مع عقلية المتحدثين بها تتساوى عدداً مع العوامل التى لاتتفق مع هذه العقلية، وهذا اذا فرضنا بالطبع أننا يمكن أن نتوصل إلى وصف دقيق لعقلية جماعة معينة وأنماط سلوكهم. ولنقف على مدى قوة العلاقة بين اللغة وعقلية الجماعة، ينبغى أن نتمكن من دراسة جوانب اللغة للوصول إلى علاقة كل جانب منها بالنواحى الفكرية والعقلية.

ونتساءل هنا : هل اللغة هى التى تؤثر فى عقول المتحدثين بها وتشكل أنماطهم السلوكية؟ أم ان عقلية الجماعة هى التى تؤثر فى اللغة؟

اتباع «المدرسة الحسية» فى اللغويات هم الذين يعتقدون أن التغيرات فى اللغة والعمليات اللغوية ماهى إلا ردود أفعال منعكسة آليا لايتدخل عقل الفكر الواعى فيها إلا قليلا، وبذلك فهم يرفضون فكرة الاعتراف بوجود صلة بين اللغة وعقلية المتحدثين بها.

فى حين يعتقد أتباع «المدرسة العقلية» فى اللغويات أن هناك صلة ضمنية بين اللغة والعمليات العقلية للمتحدثين بها، ويشاركهم فى هذا الاعتقاد العديد من الفلاسفة واللغويون. وعلى رأسهم اللغوى «جرامونت» : الذى يؤكد أننا من خلال هذه الصلة نستطيع تحديد الاتجاه الذى ستشير فيه التغيرات والتطورات

التى ستحدث فى اللغة مستقبلا.

مثال لذلك :

يمكننا التنبؤ أن اللغة الإنجليزية التى يتحدث بها الأمريكيون سوف تزداد كلماتها وعباراتها التى تعبر عن الماديات والتجارة ولغة المال، وستقل فيها عبر الزمن العبارات التى ترمز إلى الفن - والحس - والجمال، فى حين تزداد اصطلاحتها المعبرة عن المفاهيم العملية زيادة كبيرة.

ولذلك .. نؤكد على أن اللغة تتأثر بعقلية الجماهير والبيئة التى نشأت فيها. وخاصة فيما يتعلق بالمفردات اللغوية، فالانسان داخل مجتمعه قادرا على تطوير لغته، فاللغة ماهى الا تعبير عن الثقافة السائدة، وبتطورها تتطور الوسيلة المعبرة عنها، وليس معنى ذلك أن اللغة تتأثر دائما بالعوامل العقلية والنفسية للمتحدثين بها، لأن هذه العوامل العقلية تسبق عادة فى وجودها البيئة اللغوية وأوجه نشاط المتحدثين باللغة - كما أنه يمكن قياس العوامل البيئية وأوجه النشاط بطريقة موضوعية على حين يصعب قياس النواحى العقلية والفكرية خاصة لمجتمع كبير.

واللغة بما فى طبيعتها من جوانب وضعية تحليلية تساعد مع بعض العوامل الأخرى على نمو وتطور بعض أوجه النشاط بين الجماعة ، ولكن لابد أن يكون هناك بيئة معينة ونشاط معين يسبقان فى وجودهما اللغة التى تصفها.

مثال ذلك :

ان الرجل الهوبى Hoppi يصف الكون بطريقة تختلف تماما عن الرجل الأبيض، وليس يعنى هذا أن لغته تجبره على ذلك الوصف ، وانما معناه أن خبرة هذا الرجل الهوبى تختلف تماما عن خبرة الرجل الأبيض فى أمور الحياة ، فاللغة والفكر مرآتان لعالم الخبرة الذى نمر به ، ولكن الخبرة التى نمر بها لايمكن أن تسيطر عليها اللغة.

دور اللغة فى المجتمع .. وانبثاق اللهجات الاجتماعية :

اولا اللغة والدور الاجتماعى

هناك وصف شهير أطلقه كل من كيجان Kegan (١) وهافمان -Have mann على اللغة وهى : أنها أعقد انجاز بشرى، ومع ذلك فهى تتصف بالتحرر والمرونة ، لذلك فهى تستطيع أن تتشكل وتنحدر من جيل لآخر مثلما تنتقل العادات والتقاليد من غير أن يفطن الناس الذين يتكلمونها إلى ذلك.

والتغيير والتبديل من سنن الكون المقررة ، واللغات خاضعة فيما تخضع لهذه السنن، فهى اذا عرضة للتغير على مرور الزمن واختلاف الأحوال.

فالمثل العامى يقول : «ان الذى لايتغير يموت».

وما من مجتمع بغير لغة، فالمجتمع هو مجموعة الأفراد الذين يعيشون فيه، هؤلاء الأفراد هم الذين يخلقون اللغة، اذ أن اللغة من أهم عوامل بقاء المجتمع، فاللغة فى زى مجتمع لاتوجد من أجل ذاتها، وانما هى نشاط اجتماعى يخدم مايسميه «سابير» بالتشارك الاجتماعى، فهى التى تفصح عن العلاقات الشخصية والقيم الثقافية ، لذلك فان زى تغير فى ذلك المجتمع لابد أن يستتبعه تغير فى اللغة التى يتكلم بها حتى يمكن للغة حينئذ القيام بوظيفتها الأساسية كظاهرة اجتماعية ، فلا مناص للدارس من فهم اللغة من المجتمع – ومن فهم المجتمع من اللغة.

(1) Kegan, J. and Havemann, E. Psychology An Introduction, 3rd., Ed., Harcourt Brace Jovanovich, Inc., N.Y., chiosecs 1976, p. 121.

مراجع الفصل

(1) J. Vendryes, Language, A Linguistics Introduction to History, First Ed., New York, 1925.

(2) Haviland, William, A., "Anthropology" Copyright, Holt, Winston, Inc., New York, 1974,

(٣) تمام حسان ، اللغة بين المعيارية والوصفية، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، المغرب،

(٤) د. أحمد أبوزيد ، مقالة بعنوان «لعبة اللغة» ، عالم الفكر، المجلد السادس عشر، العدد الرابع، مارس ١٩٨٦، وزارة الاعلام، (الكويت) .

(5) Pei-Mario, "The Story of Language", J.B., Lippincott C., New York, 1949.

(6) Ruth, N., "An Enauiry into its Meaning and Education", New York, 1957.

(٧) وليم هاولز، ما وراء التاريخ ، ترجمة وتقديم د. أحمد أبوزيد ، دار النهضة

(8) Hilary Henson, "British Social Anthropologists qnd Language", A History of Separate Development, 1974.

(9) Hirszfield L.& Hirszfield, H. of Different Blood, in Lance 197, No. 2, 1919;.

(10) Whitehead, A.W., Modes of Thoughts, The Free Press, New York, 1968.

(١١) احمد بن فارس، «الصاحبى فى فقه اللغة وسنن العرب، فى كلامها» تصحيح

(12) Ben G. Blount, "Language Culture and Society", University of Texas, Austin, Copyright (c) by Winthrop Pub. Inc, 1974.

(١٣) أحمد أبوزيد، عالم الفكرة، مقالة بعنوان و«النصوص والاشارات»، قراءة في

(١٤) نايف خرما، اضواء على الدراسات اللغوية ، مجلة دورية (عالم المعرفة) ،

(15) Skinner, F.: Verbel Behavior, N.Y., Appleton Century Crofts, 1957.

(16) Arthur Koestler, The Act of Creation, Pan Books, London, 1964.

(17) Hegel, Philosophy of History, Trans. J.L. Homes, Wiley and Sons, 1973.

(18) Sapir, E., Language, "An Introduction to the Study of Speech", N.Y. Harcourt, Brace and Company, 1921.

(19) Mc. Millan, J.B., "Summary of Nineteenth Century and Comparative Linguistics", in Collage Composition and Communication, No.5, 1954.

(20) Carroll, J.B., "The Study of Language" Harvard Univs. Press, U.S.A., 1960.

(21) Mario Pei, "Au About language", L.B. Lippincott C., New York, 1954.

(22) Myers, E& M., "The Dynamics of Human Communication", A :Laboratory Approach, Copyright, Mc graw Inc.,1973.

(٢٣) محمود فهمى حجازى ، علم اللغة العربية ، مدخل تاريخى مقارن فى ضوء

(24) Anthropology, Race, Language, Culture, Psychology, Prehistory, "Kroeber". Oxford IBH, Pub. Co., S. Ed., 1972.

(٢٥) اوزوالد شبنجلر، تدهور الحضارة الغربية ، ترجمة أحمد الشيبانى ، الجزء الثانى

(26) GREENBERG, J.H. ESSAYS IN LINGUISTICS, CHICAGO, PHOEUIX BOOKS, 1957.

(27) Robert E. Yarder, J. Burl Hogins, "Language", An Introductory Reader, San Diego Mesa Collage, New York, 1969

(28) Martinet, "Phonology as Functional Phonetics", The Philological Society Bub., XV. London, 1949.

(٢٩) عبده الراجحى ، اللغة وعلوم المجتمع ، مطبعة الاسكندرية ، كلية الآداب ،

(٣٠) ابو الفتح عثمان ابن جنى ، الخصائص ، تحقيق الشيخ محمد على النجار،

(31) Robert yardr, Language, An Introductory Reader, San Diego Messa Collage. New York. 1969

(32) ابو حيان التوحيدى ، وابو على بن مسكويه ، الهوامل والشوامل، نشر أحمد

(٣٣) محمد حافظ دياب، مقدمة فى علم اجتماع اللغة. رسالة دكتوراه . جامعة الرياض، ١٩٨٠،

(٣٤) د. محمود السعران ، اللغة والمجتمع ، رأى ومنهج ، دار المعارف ، الاسكندرية

(35) Ben G Blount, "Language and Culture and Society" University of Texas, Copyright (c) , by Winthrop Publishers, Inc.,1974.

(36) American Anthropologist, Journal of the American Anthropological Association, volume 78, Number 3, Septmber 1976, Copyright 1976 by Anthropologist Ass. U.S.A. Linguistics,

(37) Ideberman, p., (Mechanisms of Speech) Linguistics, American Anthropologist, Journal of the American Anthropological Association, volume 73, number 4, 1971, Copyright 1971.

(38) De Sáussure, F.: Course de Linguistigue Générale, Pub. Par Charles Balley et Albert Sechehaye, Payot Lausanne, 1916.

(٣٩) محمود فهمي حجازى، «أصول البنيوية فى علم اللغة والدراسات الاثنولوجية» عالم الفكر، وزارة الإعلام، العدد الثانى، ١٩٧٧ ، الكويت.

(٤٠) أحمد أبو زيد ، الفكر واللغة ، عالم الفكر ، المجلد الثانى ، العدد الأول ، ابريل ١٩٧١ ، وزارة الاعلام ، الكويت.

(٤٢) أنيس فريحة ، محاضرات فى اللهجة وأسلوب دراستها ، معهد الدراسات العربية العالمية ، ١٩٥٥ ، ص١٢.

(43) Casson, Ronald W., "Culture and Congition", Anth. Perspective Mc. Publishing Co., Inc., New York, 1981.

(٤٤) أحمـد رضا العـاملي ، «مـولد اللغـة» و منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٥٦ .

(٤٥) على عبد الواحد وافى، نشأة اللغة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٤٢

(٤٦) على محمود فريد ، علم اللغة العام فى الفكر الغربى، المطبعة العالمية ، القاهرة ، ١٩٧٨.

(47) Kegan, J. and Havemann, E. Psychology An Introduction, 3rd., Ed., Harcourt Brace Jovanovich, Inc., N.Y., chiosecs 1976, p. 121.

الفصل الثامن
انثروبولوجيا القرابة

(*) كتب هذا الفصل دكتورة فادية فؤاد حميدو - مدرس الأنثروبولوجيا - بكلية الآداب جامعة الإسكندرية

الفصل الثامن
انثروبولوجيا القرابة

مقدمة

اهتم علماء الانثروبولوجيا منذ القرن التاسع عشر بدراسة انساق القرابة ، حتى أصبحت دراسة هذه الانساق من أهم النواحي التى تميز الدراسات الانثروبولوجية عن البحوث السوسيولوجية التى تكتفى فى العادة بدراسة الزواج وأشكال العائلة ، دون الاهتمام بالنسق القرابى ومصطلحات القرابة . وعلى هذا فقد ارتبطت دراسات أنساق القرابة بالانثروبولوجيا الاجتماعية حيث كانت تركز على دراسة المجتمعات التقليدية البسيطة دراسة مركزة شاملة ولذا فقد درس علماء الانثروبولوجيا الانساق الاجتماعية التى يتألف منها البناء الاجتماعى لتلك المجتمعات - بما فيها النسق القرابى - من أجل توضيح مايوجد بينها من تفاعل وتشابك يؤدى فى النهاية إلى فهم البناء الكلى التلك المجتمعات . ومن هنا أكد بعض العلماء المعاصرين على أن القرابة هى ظاهرة بنائية[1] بالإضافة إلى ارتباطها بمجال الانثروبولوجيا الاجتماعية.

وفى هذا الصدد يذكر نيدهام Needham مدى أهمية موضوع القرابة فى مجال الانثروبولوجيا حيث يقول أن القرابة بالنسبة للانثروبولوجيا هى كالمنطق بالنسبة للفلسفة [2] كما يؤيده فى هذا الرأى روبن فوكس [3].

(*) كتب هذا الفصل دكتورة نادية فؤاد حميدو - مدرس الأنثروبولوجيا - بكلية الآداب جامعة الإسكندرية.

(1) Levi Strauss, C., Les Structures Elementaires de la Parente, P.U.F. Paris, 1949. p160.

(2) Ed. By: Needham, R., Rethinking Kinship and Mrriage, Taristock Publications, London, 1971, p. 91.

(3) See, Fox, R., Kinship and Marriage: An Anthropogical Perspective, C. Nicholls & Company LTD, London, 1967, p. 10.

كما يذهب كثير من العلماء إلى أن أفضل وأنجح وسيلة لدراسة البناء الإجتماعى للمجتمع البدائى هى البدء بتحليل نظام القرابة . ورغم التراث الهائل الذى تركه الرعيل الأول من علماء الانثروبولوجيا التطورين إلا أن الدراسة المقارنة لانساق القرابة لم تنل حتى الآن ماهى جديرة به من اهتمام كبير من جانب الدراسين المحدثين. وهذا هو مادفع لووى Lowie إلى القول بأن كل نقطة تقريبا فى هذا الميدان بحاجة إلى دراسة(١).

ومن المعروف أن علماء الانثروبولوجيا فى القرن التاسع عشر قد اتجهوا فى دراساتهم للانساق القرابية اتجاهاً تطورياً ، وذلك تمشياً مع التيار الفكرى الذى ساد ذلك العصر ، حيث سيطر التفكير التطورى على كل مجالات الحياة. وقد تمثل ذلك الاتجاه فى كتابات عدد من علماء الانثروبولوجيا المشهورين ، من أمثال لويس مورجان Lewis Morgan، وسير هنرى مين sir Henry Maine، وباخوفن Bachofen ، وماكلينان Maclenan وغيرهم.

ثم طرأت على تلك الدراسات القرابية تغيرات جذرية تمثلت فى محاولة تطبيق علماء الانثروبولوجيا المحدثين المنهج الوظيفى البنائى ، وربما يعتبر رادكليف - براون Radcliffe-Brown من أهم العلماء الذين حاولوا تطبيق هذا المنهج.

وقد تبع «رادكليف - براون» فى ذلك غالبية علماء الانثروبولوجيا وبخاصة فى بريطانيا. لذلك يرى بعض الكتاب أن «رادكليف - براون» هو صاحب الفضل فى توجيه الدراسات القرابية التى قام بها العلماء فى القرن التاسع عشر وجهة منهجية تحليلية منظمة ، تعتمد على التحليل والمقارنة (٢) بالإضافة إلى

---

(١) بوتومور، توماس ، تمهيد فى علم الاجتماع، ترجمة محمد الجوهرى وآخرون ، دار الكتب الجامعية ، ١٩٧٢، ص٢٦١-٢٦٢.

(2) Fox, R., Op. Cit. pp. 9-12.

أن راد كليف – براون يعتبر من العلماء القلائل الذين أسهموا بالكتب المنهجية التى تناولت موضوع القرابة بالدراسة والتحليل . ومما يؤكد نظرة رادكليف – براون البنائية التحليلية فى دراسته للقرابة أنه يذهب إلى ضرورة التعرف معرفة كاملة على نسق القرابة والزواج عند دراسة أى شعب من الشعوب البدائية ، أو عند محاولة فهم أى مظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية لتلك الشعوب سواء كانت أموراً اقتصادية أو سياسية أو دينية [1].

انتقل بعد ذلك الاتجاه البنائى الوظيفى إلى عالم من علماء الانثروبولوجيا فى فرنسا وهى «كلوديفى – ستروس Claude Levi Strauss الذى أفلح فى أن يرتفع بالدراسات البنائية بحيث ارتبط اسمه بكلمة البنائية Structura-lisme وجعل من الاتجاه البنائى منهجا فكريا يطبق على دراسة المجتمع والفن والنظم واللغة والقرابة ، وكان متأثراً فى ذلك بالعلماء اللغويين البنائيين.

إذا أردنا أن نسوق فى البداية تعريفاً عاماً للقرابة يمكننا القول بأنها عبارة عن انتماء شخصين أو أكثر إلى جد واحد أو اعتقادهم أن لهم جداً واحداً انحدروا منه، وقد تكون القرابة حقيقية ، وقد تكون متخيلة أو قانونية وتقوم الأولى على صلات الدم فى الغالب ، وهى العنصر الأساسى فى القرابة ، وقد تكون القرابة متخيلة أو قانونية ، كما هى الحال فى قرابة التبنى.

وتختلف قواعد تحديد نطاق القرابة من مجتمع لآخر اختلافاً شديداً فهناك مجتمعات تجعل من القرابة متصلة بالأب وحده وتسير فى هذا الخط وهو خط الذكور ، ويسمى الخط الأبوى Patrilineal وعلى هذا تعتبر الأم وأقاربها أباعد عن القبيلة أو العشيرة أو الأسرة . وثمة مجتمعات على عكس هذا تسير القرابة فيها متتبعة الخط الأمومي وتعرف باسم القرابة الأمومية matrilineal

(1) Radcliffe - Brown. A. R. & Forde Introduction. African Systems of Kinship and Marriage. Oxford Un Press. London. 1950, p. 1.

وثمة مجتمعات تسير القرابة فيها مع الخطين الأمومى والأبوى ويعتبر الشخص عضواً فى عشيرة أبيه وفى عشيرة أمه، وأبناء الطرفين أقارب له ، وتسمى هذه القرابة قرابة الجانبيين أو القرابة الثنائية Bilateral. وثمة مجتمعات تتبع القرابة فيها عدة خطوط، ففى بعض عشائرها تسير وفق خط الأم، وفى بعضها الآخر تسير وفق خط الأب وفى نوع ثالث وفق الخطين معاً، وتسمى هذه القرابة قرابة كل الخطوط المتعددة(١).

كان هذا تعريفاص عاماً للقرابة ، وسوف يصادفنا خلال هذا الفصل عدة تعريفات أخرى لأصحاب نظريات القرابة المختلفة رأينا أن من الأفضل تقديمها عند عرض نظرية كل منهم. إلا أنه لايفوتنا أن نشير - منذ البداية - إلى أن فهم نسق القرابة لن يتيسر إلا بتحليل نظام الزواج والعائلة فى المجتمع ، نظراً لأن نسق القرابة يقوم فى أساسه على نوعين من العلاقات :

النوع الأول : العلاقة التى تقوم على رابطة الدم Consanguinity وينشأ عنها الأقارب المقربين والذين تربطهم روابط الدم.

النوع الثانى : العلاقة أو القرابة التى تنشأ عن طريق المصاهرة أو الزواج(٢).

وبهذا الصدد يميز «فان جنب» بين نوعين من القرابة هما : القرابة الاجتماعية parente Social، والقرابة الفيزيقية Parente Physique واستنبط منهما «مالينوفسكى» نوعين من الأبوة هما : الأب الفيزيقى الذى ينجب الأولاد بالفعل، والأب الاجتماعى الذى ينتسب إليه الأولاد دون أن ينجبهم بالفعل (٣).

(١) معجم العلوم الاجتماعية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ص٤٦٦.

(2) Bredemeier, H.C. and Stephenson, R.M., The Analysis of Social Systems, Holt, Rinhart and Winston, London.1962, p. 190.

(3) Buchler, Ira R. and Selby, H.A, Kinship and Social Orgainization : An Introduction to Theory and Method. The Macmillan Company, New York, 1986, pp. 9-12.

وعلى أى حال فإن أى دراسة موضوعية للقرابة تقتضى أن يتعرض الباحث لاتجاهين أساسين : الاتجاه الكلاسيكى الذى تميز بأنه يشتمل على مجموعة من العلماء جعلوا من التطورية أساسا لتفسير النظم الاجتماعية والتأريخ لها ويمثله «لويس هنرى موجان» وقد تبعه فى ذلك عديد من العلماء من أمثال «ماكلينان» «وباخوفن» «ومين» ثم الاتجاه الحديث – الذى ظهر كرد فعل للاتجاه السابق – وهو الاتجاه البنائى الوظيفى ، ويمثله لدينا كل من «رادكليف – براون» عن المدرسة البريطانية ، وكلودليفى – ستروس عن المدرسة الفرنسية.

وسوف يتضمن هذا الفصل إشارة إلى الاتجاهين السابقين :–

أولاً : الاتجاه الكلاسيكى :

اتجه علماء هذا الاتجاه وجهة تطورية ، وذلك تمشياً مع التيار الفكرى السائد فى ذلك الوقت، والذى جاء نتيجة لتأثرهم بكتابات تشارلس داروين Darwin وخاصة فى كتابه عن أصل الأنواع [1]. فما كان منهم إلا أن حاولوا دراسة أصول النظم الاجتماعية فى ضوء المنهج التطورى والبحث عن البدايات الأولى لتلك النظم وتتبع المراحل المختلفة التى مرت بها. وقد أدى بهم اتباع هذا المنهج إلى الاعتماد على الظن والتخمين فى جزء من دراساتهم، مما أوقعهم فى كثير من التناقض والتخبط فى النتائج التى توصلوا إليها.

يعتبر لويس مورجان من أهم أعلام المدرسة التطورية حيث كان لأفكاره أبلغ تأثير فى كثير من العلماء الذين انتسبوا لتلك المدرسة وسوف نتخذ من آراء «مورجان» فى القرابة ركيزة لشرح اتجاهات المدرسة التطورية ، على أن نشير بين الحين والآخر إلى أوجه الشبه والاختلاف بينه وبين بقية ممثلى المدرسة «باخوفن و «ماكلينان» «ومين».

---

(1) Fortes. M., Kinship and The Social Order : The Legacy of Lewis. Margan, Routledge and Kegan Paul, London, 1977, p. 6.

أجمع معظم الباحثين على أن الدراسة العلمية لانساق القرابة قد ظهرت مع أعمال لويس مورجان وخاصة فى عمله العظيم الذى يشاد به فى مجال دراسات القرابة ، ونقصد به كتابه عن «انساق روابط الدم والمصاهرة فى العائلة الانسانية ١٨٧٠ »[١] فهو من الأعمال الرائدة التى تستحق المدح والثناء [٢]. حتى إن «لووى» يذهب إلى أن «مورجان» قد عمل من خلال كتابه هذا على خلق دراسة انساق القرابة خلقاً وجعلها كما لو كانت فرعاً من علم الاجتماع المقارن[٣].

استند «لويس مورجان» فى إقامة نظريته على المنهج المقارن والمنهج التطورى ، فعندما عرض لموضوعات القرابة والزواج والأسرة وجد أن كل نظام من هذه النظم يمر بعدة مراحل وتعتبر المرحلة اللاحقة أكثر تطوراً وتقدما من المرحلة السابقة [٤]. ولذا استند إلى فكرة البساطة والتعقيد ، فكان ينظر إلى النظم الأوربية على أنها قمة التطور والتقدم وإن كل ماعداها يمثل مرحلة تطورية أكثر تأخراً.

ولقد انطلق «مورجان» من فكرة أساسية نجدها عن كثير من العلماء التطوريين الذين أشرنا إليهم وهى :

إن المجتمع البشرى كان فى البداية عبارة عن جماعة اجتماعية كبيرة تعيش فى حالة بدائية لاتحكمها قواعد خلقية ، حيث يعيش الناس فى حياة اباحية وفوضى جنسية ، كما كان لكل فرد فى المجتمع الحق فى أن يتصل جنسياً بأى امرأة دون أن يفرض على هذا الإتصال أى قيود أو تحريمات . ويتفق معه فى ذلك

(1) Murdock, G.F Social Structure, Macmillan, New York, 1949 , p. 91.
(2) Herbert Landar, On Morgan's Kinship Theory, In Current Anthropology, vol. 19, No.1, March, 1978, p166.
(3) Buchler Ira, R. and Selby, Kinship.and Social Organization, p1.
(4) Harris. M. The Rise of Anthropological Theory, thomas Y. crowell, new york, 1970, p. 180.

كل من باخوفن «وماكلينان» حيث يذهبان إلى أن الإباحية الجنسية هى أول الأشكال الزواجية الذى ساد منذ فجر الانسانية . حيث يكون الرجال فى مجتمع ماحقاً مشاعاً لنسائه بدون قيود زواجية[١].

ويرى «مورجان» أن مرحلة الاباحية الجنسية قد ارتبطت بشكل معين من أشكال العائلة وهى العائلة الدموية Consanguine Family ، التى تقوم على الزواج بين الأخوة والأخوات . ثم عرفت الانسانية مرحلة أكثر تقدماً وهى مرحلة زواج الجماعة Group Marriage، وفيه عرفت العلاقات الجنسية بين الرجال والنساء بين القيود والتحريمات حيث يتم الزواج بين جماعة الأخوة وعدد من النساء لسن أخوات أو يتم بين جماعة الأخوات وعدد من الرجال ليسوا أخوة. وقد ارتبط بهذا الشكل من الزواج - على مايرى «مورجان» - العائلة البونالوية Punaluan Family[٢] التى تعتبر أكثر تقدماً من العائلة الدموية. ثم تطور زواج الجماعة إلى شكلين جديدتين من الزواج التعددى هما : تعدد الأوراج Polyandry أى زواج المرأة الواحدة بأكثر من رجل ، وتعدد الزوجات Polygyny وهو زواج الرجل الواحد بأكثر من امرأة . ويرى «مورجان» أنه ارتبط بالشكل الأول من الزواج التعددى العائلة السنديازمية . والشكل الثانى ارتبط بالعائلة الأمومية الكبيرة.

وأخيراً توصل «مورجان» إلى الزواج الأحادى أو المونوجامى Monogamy الذى يتم فيه زواج الرجل الواحد من امرأة واحدة فقط ، والذى يعتبر فى رأى «موجان» أعلى وأرقى شكل وصل إليه الزواج ، وقد ارتبط بهذا الشكل من الزواج العائلة المونوجامية التى تقوم على الزواج بين رجل واحد وامرأة واحدة ، ويعيشان معا بصفة مستمرة ، ولايندمجان فى أى وحدة عائلية أخرى ، وهذا

(١) مصطفى الخشاب ، الإجتماع العائلى ، الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٦ ، ص١٠٥.
(2) Harris. M . Op Cit. p 181

الشكل هو السائد فى المجتمع المتمدين (المجتمع الأوربى فى نظر مورجان) وتؤدى هذه العائلة إلى خلق نسق واضح ومتميز من روابط الدم[١].

لقد اعتمد مورجان فى إقامة نظريته على فكرة أساسية وهى إنه كلما اتسع نطاق العلاقات الجنسية الشرعية التى يدخل فيها الفرد الواحد فى وقت واحد ، كان ذلك دليلاً على تأخر هذا الشكل من أشكال العلاقة الجنسية[٢].

هناك وجه شبه كبير بين كل من «مورجان» و «باخون»، حيث بدأ كل منهما من فرض واحد تقريباً، وهو أن الإنسانية عرفت منذ فجرها الأول مرحلة الإباحية الجنسية وإن كان باخوفن يضيف إن تلك الإباحية قد تطورت إلى مرحلة أكثر تقدماً، يقصد بها المرحلة التى تقول بسبق ظهور العائلة الأمومية على العائلة الأبوية ، أى أن الانتساب إلى الأم فى خط النساء جاء فى مرحلة مبكرة عن الانتساب إلى الأب ، فكانت القرابة فى خط النساء – طبقاً لهذه المرحلة اسبق فى الظهور على القرابة فى خط الرجال [٣]. وقد علل «باخوفن» فرضه السابق فى كتابه عن حق الأم (١٨٦١) Das Mutterrcht[٤] حيث أشار إلى أن النظام الأمومى قد ظهر نتيجة لمرحلة الإباحية الجنسية التى كانت تسود علاقات الرجال بالنساء فى بداية حياة الإنسانية ، فمن المعروف بالطبع أن الإباحية كانت تحول دون معرفة الآباء ، لذلك كان انتساب الأولاد إلى أمهاتهم فقط. ومما يدعم هذا الرأى ماتشير إليه الحضارات القديمة من اعطاء المرأة مكانة عالية مرموقة . وكثير من الأساطير يدل على ذلك كما فى أسطورة ايزيس المصرية.

---

(١) أحمد أبو زيد ، المجتمع القديم ، مجلة تراث الإنسانية ، المجلد التاسع ، العدد الأول ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، ١٩٧١، ص٥٣.

(٢) أحمد أبو زيد ، البناء الاجتماعى، الجزء الثانى ، الانساق ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الاسكندرية، ١٩٦٧، ص٢٧٩–٢٨٠.

(3) Harris, M. op. cit., p. 188.

(٤) على عبد الواحد وافى ، الأسرة والمجتمع ، مطبعة لجنة البيان العربى ، الطبعة السادسة ، ١٩٦٦ ، ص٩٢.

وبصدد الآراء التى توصل إليها «باخوفن» عن حق الأم ، نجدها فى كتاب «مورجان» المجتمع القديم ، مما يجعلنا فى النهاية نخلص إلى القول بوجود تأثير متبادل بين كل من «مورجان» و «باخوفن» ، حيث تشابهت الأسس التى تقوم عليها النظرية القرابية عند كل منهما.

وقد توصل «ماكلينان» إلى نتائج مشابهة إلى حد كبير للنتائج التى توصل إليها كل من «مورجان»و «باخوفون» ، بالرغم من أنه قد بدأ من بداية تختلف عن تلك التى بدأ بها كل من «موجان» و «باخوفن». صحيح أن «ماكلينان» قد اتفق مع غيره من العلماء التطوريين - مورجان وباخوفن - فى القول بمرحلة الإباحية الجنسية وحالة الفوضى التى كان يعيش فيها المجتمع الإنسانى فى البداية ، إلا أنه أعطى اهتماماً أكثر بالبحث عن أصل نظام الزواج وتحليله. كما كان مهتماً بالبحث عن الشكل الأول للزواج هل هو الزواج الاكسوجامى أم أنه الزواج الاندوماجى.

يرجع الفضل لماكلينان فى ظهور اصطلاحى الزواج الداخلى Endogamy والزواج الخارجي Exogamy أو الأغترابى [1] وقد فسر الزواج الخارجى على أنه نتيجة طبيعية لوجود نظام الطوطمية فى مجتمع من المجتمعات ، الذى يفرض على الرجل أن يتزوج من خارج الجماعة القرابية التى ينتمى إليها. حيث أن أفراد الطوطم الواحد - كما هو معروف . أخوة وأخوات ومن ثم يحرم الزواج بينهم .

ومن هنا فإن الزواج الاكسوجامى - على مايرى ماكلينان - كان أسبق فى الظهور من الزواج الاندوجامى أو الداخلى.

وقد توصل «ماكلينان» أيضاً إلى سبق الانتساب إلى الأم على الانتساب

(1) Beattie, J., Other Cultures, Aims, Methods and Achievements in Social Anthropology, Routledge & Kegan Paul LTD, London, 1964, p. 120

إلى الأب ، وسيادة القرابة فى خط النساء عن القرابة فى خط الرجال التى ظهرت فى مرحلة متأخرة وفى هذا فإنه يتفق مع العالمين السابقين.

أما «سير هنرى مين» فإنه يؤكد على العكس من ذلك حيث يرى أن الانتساب إلى الأب ظهر فى مرحلة مبكرة عن الانتساب إلى الأم ، وان العائلة الأبوية الكبيرة هى الشكل الأصلى للعائلة . وهنا نلحظ تضارباً فى آراء العلماء التطوريين.

وإذا عدنا إلى الإسهام العظيم الذى أسهم به «مورجان» فى مجال نظرية القرابة لوجدناه يتمثل فى التمييز بين انساق القرابة ، حيث ميز بين نوعين هما :

انساق القرابة التصنيفية Classificatory، وانساق القرابة الوصفية Descriptive.

ويرجع الفضل إلى «مورجان» فى توجيه أنظار العلماء إلى وجود مصطلحات القرابة التصنيفية والتى توصل إليها من دراسته لانساق القرابة لدى قبائل الشوكتو والأوماها ، وإن لم يكن هو أول من قال بوجود هذه المصطلحات ، حيث سبقه فى ذلك لافيتو - كما ذكر رادكليف - براون- الذى توصل فى القرن الثامن عشر إلى المصطلحات التصنيفية التى توجد بين قبائل الهنود الحمر فى أمريكا وخاصة بين قبائل الايروكواى والهيرون. وقد وجد لافيتو أن الأطفال هناك يعاملون أخوالهن على أنهم آباء لهم ويطلقون عليهم مصطلح أب. كما يعاملون خالاتهم على أنهن أمهات لهم، ويطلقون عليهن مصطلح أم.وان الأولاد من جهة الأم وإخواتها ، ومن وجهة الأب وأخواته يعاملون بعضهم كأخوة وأخوات [1].

ويمكن القول بصفة عامة بأن مصطلحات القرابة التصنيفية تهدف إلى ضغط علاقات القرابة البعيدة فى عدد قليل من درجات القرابة مع إهمال التفاصيل.

---

(1) Radcliffe-brown and Forde, "Introduction African Systems of Kinship and Marriage, p. 8.

وتستخدم المصطلحات التصنيفية المتعددة فى تحديد الجيل والجنس كالعم Uncle والعمة Unt، إلا أن كلمة Cousin (هذا فى اللغة الإنجليزية) لاتشير إلى الجنس حيث تستخدم لأبن العم وابن الخال ، وابنة العم وابنة الخال على السواء [1].

وقد لاحظ «مورجان» - فى رأى رادكليف - براون أن مصطلحات القرابة التصنيفية تعمل على تماسك الجماعة القرابية الكبيرة عن طريق التقريب بين أفرادها وتقريب درجة القرابة . كما يرى أن المبدأ الذى تقوم عليه تلك المصطلحات هو مايعرف بمبدأ وحدة جماعة الأخوة [2]. وسوف أعرض لهذا المبدأ فى معرض الحديث عن «رادكليف - براون».

أما مصطلحات القرابة الوصفية : فتهدف إلى وصف جميع درجات القرابة خارج الأسرة. ففى النسق الوصفى عند العرب يوجد مصطلح للعم يختلف عن ذلك المصطلح الذى يطلق على الخال (على العكس من الإنجليزية حيث يطلق عليهما Uncle) إلا أنه بالرغم من هذا وطبقاً للنسق الوصفى يطلق على العم (أخ الأب) كما يطلق على الخال (أخ الأم) هذا هو معنى مصطلحات القرابة الوصفية [3].

وسوف نعرض الآن للنظام التصنيفى الذى درسه «مورجان» ووجده عند كل من قبائل الشوكتو والاوماها وهما من قبائل الهنود الحمر فى شمال أمريكا.

وجد «مورجان» أن مصطلحات القرابة التصنيفية عند الشوكتو تستخدم للأقارب من ناحية الأب ، وفى مقابل هذا وجد مصطلحات القرابة التصنيفية

---

(1) Makarius, R., Ancient Society and Morgan's Kinship Theory 100 years after "In current Anthropology, Vol. 18. No. 4. 1977. p. 710.
(2) Radcliffe - Brown, Op. Cit., p. 23.
(3) Makarius, R., Op. Cit., p. 712.

عند الأوماها والتى تستخدم للأقارب من ناحية الأم.

وقد عرض «رادكليف براون» لهذين النسقين حيث يذكر

إن «موجان» فى دراسته لمصطلح القرابة لدى قبائل أمريكا الشمالية قد لاحظ سمات معينة تميز مصطلحات أبناء العمومة والخؤولة لديهم حيث وجد أن الشوكتو يطلقون كلمة أب Father ليس فقط على العم وإنما يطلقونها أيضاً على ابن أخت الأب (ابن العمة) ، ويصبح بذلك أبا تصنيفياً ، وإن أولاد ابن العمة يعتبرون أخوة وأخوات ، ومن الشائع لديهم أن يطلقون كلمة ابن Son على ابن الخال [1].

ويقابل مصطلح القرابة عند الشوكتو ذلك المصطلح الذى يوجد لدى قبائل الأوماها وهنا يسير المصطلح التصنيفى خلال الأقارب من ناحية الأم ، حيث يستخدم للخالة نفس المصطلح الذى يستخدم للأم، وأولاد الخال يكونون اما أخوالاً أو أمهات. كما تستخدم المرأة مصطلحاً واحداً (ابن) لكل من ابنها وابن أختها وابن عمتها [2].

هذا هو نسق القرابة لدى قبائل الأوماها ، ويرى «رادكليف - براون» أن هناك عديداً من المصطلحات تشبه ذلك النسق لدى أوماها وهى التى توجد فى بعض المناطق مثل كاليفورنيا ، وبعض قبائل شرق أفريقيا ، مثال ذلك أيضاً المصطلحات التى وجدت بين قبائل غينيا الجديدة ، والتى توجد بين سكان جزر بانكس فى مالينزيا.

ويذكر «رادكليف - براون» أنه فى نموذج الأوماها تسمح العادة بأن يتزوج الرجل من ابنة أخ الزوجة ، وهناك مايشابه هذا فى نسق الشوكتو ، حيث تجرى العادة بأن للرجل الحرية فى أن يتزوج من أرملة خاله.

---

(1) Radcliffe-Brown, Structure and Function in Primitive Society, co-ciety, Cohen & West LTD, London, 1965, p. 54.

(2) Ibid, p. 55.

وفى رأى «رادكليف - براون» الذى اعتمدنا عليه بصفة أساسية فى عرض آراء «مورجان» فإن ماقام به «مورجان» للتعرف على القرابة لدى قبائل الهنود الحمر بعد دراسة عميقة . وقد كان مبعث اهتمام «رادكليف - براون» بهذين النمطين من اصطلاحات القرابة إنهما يعكسان فى رأيه مبدأ بنائياً واحداً ولكنه مطبق بطرق متباينة . فهو يعتبرهما صفات لنوع واحد حيث وجد أن كلمة واحدة مثل Cousin تطلق على كل أولاد الأخوة والأخوات (من جهة الأم وجهة الأب) أى تطلق على كل أبناء العمومة والخؤولة[١].

ويختتم «رادكليف - براون» كلامه عن مصطلح القرابة التصنيفى عند «مورجان» بأنه يهدف إلى تكامل المجتمع وتضامنه وتكافله ، حيث أن نسق القرابة التصنيفى يعتمد على التعرف على العلاقات الاجتماعية القوية التى تربط الأخوة والأخوات داخل الأسرة الأولية ثم الاستفادة من هذه العلاقة فى بناء منظم مركب من العلاقات الاجتماعية بين الأقارب.

والفقرة الأخيرة توحى بجذور بنائية لدى المدرسة التطورية، وعند «مورجان» على وجه الخصوص.

بعد أن عرضنا للإتجاه الكلاسيكى فيما يتعلق بالإطار العام لنظرية القرابة ، نتناول بالعرض الأسس التى قام عليها وأهمها فكرة التطور وما وجه لهذا الاتجاه من انتقادات.

إذا رجعنا إلى المدرسة القديمة بصفة عامة نجد أن معظم علمائها قد اتسمت كتاباتهم بالسمة التطورية ، وقد جاء ذلك كنتيجة طبيعية لما شاهدته بداية القرن التاسع عشر من انقلاب كبير فى منهج الانثروبولوجيا الاجتماعية وطرق معالجة موضوعات هذا العلم.

---

(1) Ibid, p. 55.

وقد كان لظهور كتاب أصل الأنواع أثراً واضحاً فى اهتمام العلماء بالبحث عن الأصول ، فظهرت دراسات عن أصل الحضارة ، أصل اللغة ، أصل القانون ، أصل العائلة والزواج [١]. وقد افترضت كل هذه الدراسات وجود مراحل معينة بالذات مرت بها الحياة والنظم الاجتماعية فى تطورها ، بحيث أن كل مرحلة من هذه المراحل تعتبر أبسط من المرحلة اللاحقة لها وممهدة لظهورها.

وخلاصة القول أن فكرة التطور قد أصبحت أسلوبا ومنهجا ، مما دعا العلماء المناصرين لها إلى النظر إلى الشعوب البدائية على أنها تمثل أدنى المراحل التى مرت بها البشرية ، ولم يكن اهتمامهم بها لذاتها ، وإنما لاستخدامها فى إقامة نماذج ومثل افتراضية تمثل التاريخ المبكر للجنس البشرى بعامة ، وتاريخ النظم الأوروبية بخاصة ، حيث تمثل النظم الأخيرة أعلى وأرقى مابلغته النظم الاجتماعية فى سلم التطور.

وعند تطبيق منهج التطور ، اضطر العلماء إلى الاعتماد على الظن أو التخمين أو الافتراض ازاء النقص الشديد فى المعلومات الاثنوجرافية المؤكدة عن ماضي الموضوعات التى يدرسونها ، وكانوا يهدفون باعتمادهم على الظن اعادة تركيب المراحل التى يتصورون أن المجتمعات والنظم الاجتماعية قد مرت بها فى تطورها ، وعرفت هذه الطريقة بما أسماه «دوجالد سيتوارت» بمنهج التاريخ الظنى Conjectural history كان الباحث - طبقا لهذا المنهج - يتصور وجود أحداث لم يقم الدليل على حدوثها بالفعل فى الماضى ، وذلك حتى تظهر نظريته فى صورة منطقية محكمة . ونجد تطبيقاص لذلك فى كتاب أصل المجتمعات السياسية «لهوبز» واصل اللغة لآدم سميث ، بالإضافة إلى تناول «تايلور» نشأة الدين ، ووستر مارك البدايات الأؤلى للأسرة [٢].

---

(١) أحمد أبو زيد ، التطورية الاجتماعية ، عالم الفكر ، مجلد ٣ ، عدد ٤ ، ص١١٠.
(2) Radcliffe- Brown, structure and Funçtion , pp. 50-52.

وقد استعان العلماء فى بحوثهم بالمعلومات التى ظهرت فى كتابات الرحالة والمبشرين عن المجتمعات البدائية ، على فرض أن ثقافات تلك المجتمعات تمثل المراحل الأولى من تاريخ الثقافية الانسانية ، مما أدى إلى وقوعهم فى كثير من الأخطاء نتيجة إطلاقهم بعض الأحكام العامة التى لاتستند إلى وقائع يقينيه، والدليل على ذلك توصل علماء الانثروبولوجيا من أنصار التطورية إلى نتائج مختلفة بالرغم من دراستهم لنفس النظام (نسق القرابة) وبدايتهم من نقطة واحدة (الأصل : الاباحية الجنسية) : توصل «باخوفن» عام ١٨٦١ إلى القول بأسبقية نظام القرابة الأمومى على نظام القرابة الأبوى ، وفى نفس عام ١٨٦١ أيضاً،توصل سير هنرى مين إلى سبق ظهور نظام القرابة الأبوى ، رغم بدايتهم من فروض متشابهة.

وقد ظهر منهج التاريخ الظنى واضحاً فى معظم كتابات «مورجان» ومنها كتابه المجتمع القديم الذى يفترض ثلاث أحقاب مرت بها الحضارة الانسانية ، أولا التوحش ، ثم البربرية وأخيراً الحضارة الأوروبية ، قمة التطور.

وعلى أى حال فقد أدى به التخمين إلى بعض الأخطاء التى جعلته موضع نقد، نجد مثلا أنه فى نظريته عن أصل العائلة والزواج يفترض الاباحية الجنسية مرحلة أولى وليس هناك - فى رأى النقاد - مايدل على وجود الاباحية أو الشيوعية الجنسية ، إنها مجرد مرحلة افتراضية لجأ إليها «مورجان» وغيره من العلماء التطورين لاستكمال النسق الذهنى النظرى بحيث تبدو عملية التطور من البسيط إلى المعقد عملية متكاملة ، كما لايوجد بالمثل دليل علمى أيضاص على مرحلة زواج الجماعة.

وقع «مورجان» فى خطأ آخر حينما أشار إلى أن المقصود بمصطلح القرابة Kinship هو رابطة الدم Consangu:nity الذى يشير فقط إلى العلاقات والروابط الفيزيقية وبذلك يغفل علاقات القرابة الاجتماعية بما تلعبه من دور كبير ، وقد نتج عن هذا الموقف «لمورجان» وبصدد دفاعه عنه ، أنه ذهب إلى القول

بأن استخدام المصطلح الواحد فى الإشارة إلى عدد من الأشخاص فى جزر هاواى ، يشير بالضرورة إلى وجود علاقات جنسية من نوع ما ، وأن جميع الأشخاص الذين يطلق عليهم لفظ (أب) يتصلون جنسياً بالأم. يرفض العلماء هذا الرأي ويذهبون إلى أنه قد يحتل الرجل من شخص معين منزلة الأب ، وينادى بهذا اللفظ، دون أن يكون أبا حقيقياً له ودون أن يكون له حق الاتصال جنسياً بالأم، وذلك لأن هناك نوعين من القرابة : القرابة الفيزيقية ، والقرابة الاجتماعية [(١)].

ولقد اعترض «وستر مارك» - فى سياق نقده للتطورية وخاصة آراء «مورجان» - على مرحلة الزواج التعددى ، بل ورفض هذا النظام، معتمداً فى ذلك على المعلومات اليقينية عن الحياة الجنسية لدى القردة العليا ، حيث لاحظ أن القرد الذكر يكتفى بالاتصال جنسياً بأنثى واحدة ويتكفل بالدفاع عنها ، ورأى «وستر مارك» أن الزواج الأحادى هو الشكل الأول للزواج وال..كل الطبيعى.

ورغم اعتماد العلماء السابقين (مورجان - باخوفن - ماكلينان - مين) على المنهج التطورى إلا أن الدراسات التى قدموها كانت تحمل فى طياتها نزعة وظيفية ، نجد مثلاً أن سير هنرى مين يحاول فى كتابه القانون القديم أن يربط بين مختلف النظم ، وإن يبين علاقة القانون بالأخلاق والدين ، وكذلك الآثار الاجتماعية المترتبة على التشريعات القانونية. كما تظهر النزعة الوظيفية أيضاً لدى «باخوفن» فى كتاب حق الأم الذى يربط فيه بين نظام القرابة والنظم والتقاليد السياسية والأساطير [(٢)]. ونجد نفس النزعة لدى «ماكلينان» فى كتابه الزواج البدائى ، التى يشير إليها «ايفانز بريتشارد» بقوله : ان ماكلينان كان يشايع فى قوة وثبات فكرة التساند الوظيفى بين النظم الاجتماعية واعتماد هذه

---

(١) أحمد أبو زيد ، البناء الاجتماعى ، الانساق ، ص٢٨٨.

(٢) أحمد أبو زيد ، البناء الاجتماعى ، الجزء الأول ، المفهومات ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٠، ص٦٦ - ٦٧.

النظم بعضها على البعض الآخر.

ونختتم هذا الجزء عن العلماء التطوريين بقول «روبن فوكس» إنهم وإن وقعوا فى بعض الأخطاء إلا أن ذلك لايقلل من الأثر العظيم الذى تركوه ممثلاً فى تأسيس دراسات القرابة وانساقها ومصطلحاتها وادراكها ان انساق القرابة انساق متغيرة وان بين مكوناتها نوع من التماسك والانتظام [1].

ثانيا: الاتجاه الحديث والمعاصر للدراسات القرابية :

سوف نعرض الآن للاتجاه الحديث الذى سارت فيه الدراسات القرابية ، واعنى به الاتجاه البنائى الوظيفى فى مقابل الاتجاه التطورى ، ويتضمن هذا الإتجاه مدرستين أساسيتين هما :

(أ) المدرسة البريطانية : تمثل لها «براد كليف - براون»

(ب) المدرسة الفرنسية : تمثل لها «بكلودليفى - ستروس»

رادكليف - براون ودراسة نسق القرابة :

يبدأ «راد كليف - براون» عرض نظريته فى القرابة بداية منهجية ، حيث عرف «نسق القرابة» أو نسق القرابة والزواج (المصاهرة) على مايسميه بقوله : «يمكن النظر إلى نسق القرابة والزواج على أنه نوع من الترتيب الذى يجعل أعضاء المجتمع قادرين على العيش معاً وأن يعاون أحدهم الآخر فى حياة اجتماعية منظمة [2]. ثم يعرف القرابة :

بأنها ثمة علاقات مباشرة تقوم بين شخصين نتيجة انحدار أحدهما من الآخر ، مثلا كانحدار الحفيد من الجد ، أو أن كلاهما انحدر من جد واحد مشترك. سواء خلال خط الذكور أو خط الإناث [1].

(1) Fox, R., Kinship and Marriage, p. 18.
(2) Ibid, p. 3.

ونسق القرابة عند راد كليف - براون عبارة عن شبكة من العلاقات الاجتماعية ، تلك التى تكون جزءا من الشبكة الكلية من العلاقات الاجتماعية التى تؤلف البناء الاجتماعى ، فيرى أن حقوق وواجبات الأقارب تجاه بعضهم بعضاً ، والأعراف الاجتماعية التى نلاحظها فى اتصالاتهم الاجتماعية إنما تكون جزءا من هذا النسق ، وإن عبادة الأسلاف هى أيضاً جزء واقعى وأساسى فى نسق القرابة، حيث تمثل للعلاقات القائمة بين الأشخاص الأحياء وأقاربهم الموتى.

يقودنا هذا مباشرة إلى منهج التحليل السوسيولوجى ، الذى نستطيع به أن نكتشف طبيعة انساق القرابة كأنساق.

ويرى «رادكليف - براون» أن نسق القرابة هو - فى المحل الأول - نسق للعلاقات الثنائية التى تقوم بين شخص وآخر فى الجماعة - كما أن الوحدة البنائية التى يتكون منها نسق القرابة هى الجماعة التى يسميها «رادكليف - براون» بالأسرة الأولية Elementary Family[٢].

والأسرة الأولية أو الأسرة الصغيرة هى أبسط صور القرابة ، وعلى أساسها تقوم صور وأشكال العائلات الأخرى المعقدة والمركبة . وتتألف هذه الأسرة من زوج وزوجته ، وأولادهما غير المتزوجين ، وهذه الأسرة هى الأساس الأول الذى تقوم عليه الجماعات الزواجية الأكثر تعقيداً [٣].

يرى راكليف - براون بأن هناك ثلاث درجات لعلاقات القرابة داخل الأسر الأولية بعضها وبعض :

(1) Ibid, p. 4.
(2) Ibid, p. 51.
(3) Hammond, p. "An Introduction to Cultural and Social Anthropology", The macmillan, New York, 1971, pp. 152-153.

(١) علاقات القرابة من الدرجة الأولى :

هى تلك التى توجد داخل الأسرة الأولية وهى التى تنشأ بين الآباء والأبناء من جهة ، والتى تنشأ بين الأخوة الأشقاء من جهة ثانية ، وأخيراً التى تنشأ بين الزوج والزوجة كآباء لأولادهم . فالشخص يولد داخل أسرة ، فيكون ابناً أو ابنة بالنسبة لوالديه ، ويكون أخاً أو أختاً بالنسبة لبقية أخوته . فعندما يتزوج الرجل ويكون أسرة جديدة يقوم فيها بدور الزوج (بالنسبة لزوجته) والأب (بالنسبة لأولاده) معاً ، هذا الوشج من العلاقات الأولية ، إنما يخلق مايسميه «رادكليف - براون» بشبكة العلاقات الجينالوجية - أو شجرة العائلة - تلك التى تنتشر بابهام وغموض بين الأشخاص [١].

(٢) علاقات القرابة من الدرجة الثانية :

هى تلك التى تعتمد على اتصال عائلتين أوليتين عن طريق العضو المشترك كالعلاقة بين الشخص وجده (أب الأب) ، أو بين الشخص وخاله (أخ الأم) ، أو بينه وبين وزوجة الأب ، أو زوج الأخت ، أو بين الأخ ، أو أب الزوجة (الحمو)..

(٣) أما علاقات القرابة من الدرجة الثالثة :

فهى التى تقوم بين الشخص وابن أخ الأم (ابن الخال) ، أوبينه وبين زوج أخت الأب (زوج العمة) ، أو بينه وبين ابن أخ الأب (ابن العم) ، أو بينه وبين زوجة أخ الأم (زوجة الخال) [٢].

هكذا تتدرج درجات القرابة التى يدخل فيها الفرد مع أقاربه من الدرجة الأولى والثانية والثالثة . وعلى هذا الأساس تحدد درجات القرابة [٣].

(1) Radcliffe - Brown, Op. Cit:, pp. 51-52.
(2) RRadcliffe - Brown, and Forde, : "African Systems of Kinship and Marriage, pp. 6-7.
(3) Ibid, pp. 6-7.

تكلم «رادكليف - براون» عن الأسرة الأولية كوحدة أساسية فى نسق القرابة ، مما يدفعنا إلى تناول الأسرة بشىء من التفصيل.

تعتبر الأسرة مبحثاً من أهم المباحث التى يتعرض لها الانثروبولوجى عندما يقوم بدراسة القرابة والتنظيم الاجتماعى ، بما يتضمنه ذلك من نظم كثيرة فرعية مثل : مبدأ الإقامة - مصطلحات القرابة - قواعد الزواج.

ومن المعروف أن الأسرة هى خلية المجتمع بل هى نواته ، ذلك لأن الناس جميعاً إنما يعيشون داخل أسر ، فالإنسان بطبيعته ينتمى إلى جماعة.

ولقد قام ميردوك بمقارنة أشكال الأسرة فى ٢٣٨ جماعة فاستخلص وجود عدة أشكال رئيسية للأسرة فى المجتمعات البشرية أول تلك الأشكال هو مايعرف «بالأسرة النواة» والتى تسمى أحياناً الأسرة الزواجية وهى الأسرة الصغيرة (التى تتألف عادة من زوج وزوجة واحدة وأطفالهما[١]. كما أشار «رادكليف - براون» إلى الأسرة الأولية.

ويذكر «وليام جووده » Goode أن الأسرة تعتبر عنصراً جوهرياً فى البناء الاجتماعى لأى مجتمع ، ويعيش كل شخص حياته - بالأسرة - داخل شبكة واسعة من الحقوق والواجبات الأسرية التى لايمكن التخلى عنها ، وبالرغم من أن الأسرة تتكون من الأفراد إلا أنها تعتبر جزءاً من شبكة اجتماعية أكبر. والأسرة هى النظام الاجتماعى الوحيد المسئول عن تحويل الانسان من كائن عضوى بيولوجى إلى كائن اجتماعى، فهى التى تضفى على الإنسان آدميته وتكسبه الصفة الإنسانية الاجتماعية ، كما أنها تلقنه وتعلمه طريقة الكلام ، وتعلمه أيضاً كيف يقوم بعدد من الأدوار الاجتماعية [٢].

---

(١) أحمد الخشاب ، دراسات انثروبولوجية ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٠ ، ص.٤٣٦.

(2) Goode, W.J.: The Family, Prentice -Hall of India Private LTD, New Delhi, 1965,pp. 1-8.

وقد ظهرت عدة تعريفات للأسرة تدور معظمها حول اعتبار الأسرة جماعة قرابية مرتبطة ارتباطاً قوياً، عن طريق الدم والزواج ، تعيش فى منزل واحد معيشة مشتركة ، وغالباً ماتوصف تلك الجماعة بالتعاون الاقتصادى والتضامن، وهى فى الغالب تتكون من الزوج والزوجة وأولادهما [1].

وإذا نظرنا إلى الأسرة الأولية كنظام بالرغم من بساطتها ، وقلة عدد أفرداها ، وعدم تشعبها، إلا أنه يمكن التمييز فيها بين ثمانية - على الأقل - من أنماط العلاقات الاجتماعية الأساسية ، ولكل منها وظيفته المحددة [2].

١- علاقة الزوج بالزوجة.

٢- علاقة الأب والأبن.

٣- علاقة الأم والأبنة.

٤- علاقة الأب والأبنة.

٥- العلاقة بين الأم والأبن.

٦- العلاقة بين الأخوين.

٧- العلاقة بين الأختين.

٨- العلاقة بين الأخ والأخت.

يتضح إذن أن للأسرة بناءً معقداً من نوعه لايوجد فى التجمعات الأخرى، ذلك البناء الذى يقوم على تماسك أفراده جميعاً بعضهم ببعض وارتباطهم ارتباطاً وثيقاً وتعاونهم معاً ، وهذا من شأنه أن يؤدى إلى تكافل وتضامن البناء الكلى للأسرة[3].

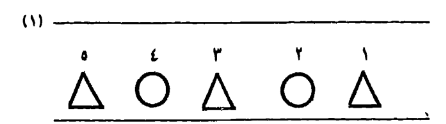
(1) Bredemeier and Stephenson, The Analysis of Social Systems, p. 194.

(2) Murdock, G. P. Social Structure, pp. 93-94.

(3) Campbell, B. G., Human Evolution, An Introduction to Man's Adaptations, Heinemann Education to Man's Adaptation Educational Book LTD, London, 1967,p. 279.

وسنواصل الحديث عن نظرية رادكليف - براون فى القرابة وخاصة دراسته لمصطلحات القرابة ، والتى يرى أنها جزء من نسق القرابة الكلى ، كما يرى أن العلاقات بين مصطلح القرابة وبقية النسق هى بمثابة علاقات داخل كل منظم. ويحتل مصطلح القرابة لدى «رادكليف - براوون» أهمية عظمى حيث لابد من الاهتمام به عند الدراسة الفعلية لانساق القرابة كما سبق أن ذكرنا.

وقد حاول رادكليف - براون فى نظريته أن يستعين فى دراسته لنظام مصطلحات القرابة عموماً والمصطلحات التصنيفية على وجه الخصوص بمبدأ «وحدة الجماعة القرابية» ولكن مع تطويره بما يتلاءم مع موضوع مصطلحات القرابة حتى توصل إلى ماأسماه «مبدأ وحدة جماعة الأخوة الأشقاء» وتماسك هذه الوحدة وتضامنها ويتضح هذا المبدأ من الشكل التالى :



يوضح هذا الرسم أن الشخص الذى يقف خارج تلك الجماعة يرى أنها متماسكة ومتضامنة ، فإذا كانت هذه الوحدة تتكون من ٣ أخوة وأختين ، وإذا كان الشخص نفسه أو ابن أحدهم (١) مثلاً فإن كل من ٣ ، ٥ أعمام له و ٢ ، ٤ عمات له فالعلاقة التى يدخل فيها معهم هى نفس نوع العلاقة التى ترتبط بأبيه ويطلق على أعمامه كلمة (أب) ، وعلى عماته (الأب الأنثى) . هذا هو المبدأ الأساسى الذى يرتكز عليه النظام التصنيفى وهو أن أى شخص يقف خارج

(1) Radcliffe Brown, Structure and function in Primitive Society, p. 65.

جماعة الأخوة يجدها وحدة متماسكة ومتكاملة ، ويقف من جميع أفرادها موقفاً واحداً بغض النظر عن السن والجنس.

وهذا نفس الموقف الذى نجده لدى الأوماها بالنظر إلى جماعة الأخوة التى تنتمى إليها الأم ، فكل أخوات الأم (أمهات تصنيفيات) ، وكل أخوتها (أخوال) وأولاد هؤلاء الأمهات (خالات) هم أخوة وأخوات له [1].

كما يذكر رادكليف - براون أنه فى بعض انساق القرابة يعامل الخال نفس معاملة الأم ويطلق عليه الأم الذكر ، ويوجد هذا عند قبائل البانتو فى أفريقيا وقبائل Tonge فى المحيط الهادى . مما يوضح تغليب العوامل الاجتماعية على فوارق الجنس الطبيعية. ويرى أيضاً أن هذا الموقف يوضح ويفسر رأى «لويس مورجان» عندما قال بمصطلح القرابة التصنيفى وذلك عندما عرض «رادكليف - براون» للنسق القرابى البريطانى حيث قال : أن لدينا مصطلحاً واحدا يطلق على الخال وعلى العم على السواء.

إن كل هذه الانساق التى نهتم بها ماهى إلا صورة مؤكدة لما يسميه «لويس مورجان» مصطلحات القرابة التصنيفية [2].

وفى معرض حديثة عن مصطلح القرابة الوصفية يذكر «رادكليف - براون» أنه يفسر بعض المصطلحات المهمة فمثلاً كلمة Uncle أو Cousin تفسرها المصطلحات الوصفية فنقول : بالنسبة للخال (أخ الأم) أو بالنسبة للعم (أخ الأب) أما بالنسبة لـ Cousin فنقول ابن العم أو ابن العمة أو ابن الخال أو ابن الخالة حيث تفسرها المصطلحات الوصفية عندما نقول (ابن أخت الأب)... وهكذا حتى نصل إلى القرابة من الدرجة الخامسة حين نقول : بنت بنت أخ أم الأم. فمصطلحات القرابة الوصفية إذن هى عبارة عن اتحاد عدد من مصطلحات

(1) Ibid, p. 66.
(2) Ibid, pp. 63-64.

القرابة النوعية أو المحددة بالنسبة للأقارب من الدرجة الأولى أو الثانية وجمعهم في وحدة تعبر عن درجة القرابة [1].

ولقد اتبع «رادكليف - براون» - أحد أقطاب المدرسة البنائية البريطانية فى دراسته لانساق القرابة المنهج التحليلى ، ويذكر أنه عن طريق ذلك المنهج يمكن تحليل نسق القرابة إلى جميع النظم الفرعية التى تدخل فيه وعن طريقه أيضاً يمكن الكشف على شبكة العلاقات التى تربط الأفراد داخل النسق الكلى ، وفى الوقت ذاته لابد من الاعتماد على المقارنة ، فهو يرى أن طريقة التحليل والمقارنة هى الطريقة الأجدى فى دراسة انساق القرابة ، وكان ينفى استخدام منهج التاريخ الظنى على إعتبار أنه لايستند إلى حقائق ووقائع يقينية فلم يعترض على التاريخ ذاته بقدر مااعترض على الظن والتخمين [2]. فالتاريخ حقاً يوضح لنا ويشير إلى الحوادث أو التغيرات فى الماضى، التى تقودنا إلى معرفة الحوادث الأخرى، ويحدث هذا عندما توجد الشواهد المباشرة عن كل الحوادث السابقة ، ولكن لايوجد للأسف فى منهج التاريخ الظنى أى شواهد أو بيانات Evidenc-es عن الأحداث السابقة لذلك يلجأ العلماء ازاء النقص الشديد عن تلك المعلومات إلى التخمين والظن ولهذا فهو لايؤدى إلى نتائج سليمة وصحيحة لأنه يعتمد على وقائع غير يقينية وغير مؤكدة [3].

---

(1) Radcliffe- Brown and Forde, African Systems of Kinship and Marriage, p. 7.

(×) من المعروف أن النزعة البنائية الوظيفية تدرس النظام أو الظاهرة فى غلاقته ببقية النظم الأخرى فى تفاعلها أحداها مع الأخرى كوحدة كلية وتأثير كل منها وتأثرها بالأخرى «ومن ثم يهتم هذا الاتجاه بالنظرة الشاملة والدراسة المركزة للنظم الاجتماعية وأى دراسة بنائية لنسق القرابة «تهتم بتحليل الزواج ، نظام الأسرة بجميع أشكالها ونظام النسب ، والميراث، والتنبىء ، الخ...

(2) Radcliffe - Brown, "Introduction To African Systems, p.2.

(3) Radcliffe - Brown, "Structure and Function, pp. 50-57.

كلود ليفى - ستروس ودراسة القرابة :

عالج «ليفى – ستروس» انساق القرابة فى عديد من مقالاته ودراساته ، إلا أنه خصص لمعالجة هذا النسق كتاب الأبنية الأولية للقرابة ، ونستطيع أن نجمل الأسس العامة لنظريته فى أنها تختلف اختلافاً واضحاً عن نظريات سابقيه ، فجاءت نظريته فريدة ومتميزة.

لقد اهتم «ليفى – ستروس» بالأبنية الأولية للقرابة والتى يرى أنها هى الأبنية الأساسية التى تقوم عليها نسق القرابة من حيث أنها تحدد نطاق الأقارب عن نطاق الأصهار كما أنها تقوم على الزواج بالأقارب (أقارب الدم المقربين)، ويرى أنها هى الأساس الأول الذى تقوم عليه الأبنية الأخرى المعقدة ، بالإضافة إلى اعتمادها على اعتبارات أخرى قد تكون اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية.

يحتل كتاب الأبنية الأولية للقرابة Les Structures Elementaires de la Parenté مكانة عظمى فى مجال العلوم الإجتماعية ، حيث يعتبر من أهم الكتب التى تناولت نظام القرابة ودراسته دراسة انثروبولوجية منذ عمل «مورجان» الذى يشاد به فى هذا المجال وهو كتابه عن : انساق روابط الدم والمصاهرة فى العائلة الإنسانية.

ويؤكد «ليتش» [1] أن كتاب الأبنية لليفى ستروس يعتبر من الأعمال الجليلة والرائدة فى تاريخ الانثروبولوجيا الاجتماعية. والذى عرض فيه لعدد من انساق القرابة المختلفة واعتبر كل نسق منها مثالاً لنموذج من النماذج القرابية الموجودة فى أنحاء العالم ، أى أن نظريته عن القرابة قد اعتمدت على قيام النماذج.

(1) Leach, E., Levi - Strauss, Fontana Collins, 1970, p. 9.

وقد طبق ليفى - ستروس المنهج البنائي على نسق القرابة حيث أشار إلى هذا النسق على أنه شبيه بالنسق اللغوى لأنه لايتحدد على مستوى الحدود ، بل على مستوى أزواج من العلاقات (كعلاقة الزوج بالزوجة ، والأب بالأبن ، والأخ بالأخت ، والخال بابن الأخت..) كما أنه لايمكن عزل أحد أطراف العلاقة عن الطرف الآخر داخل نسق القرابة ، فالبناء الأولى للقرابة - في رأى ليفى - ستروس - يشتمل على العلاقات التى تقوم بين أطراف أربعة هى الأخ والأخت والأب والإبن. هذا هو البناء الأولى والأساسى الذى تقوم علية الأبنية الأخرى الأكثر تعقداص التي توضح نسق القرابة ككل[1].

وقد انطلق «ليفى - ستروس» من نقطة أساسية وهى : ان علاقات وروابط القرابة ترد إلى تحريم الزواج من المحارم، لذا احتلت هذه المشكلة مكاناً بارزاً فى نظرية «ليفى - ستروس» كما أنها تمثل الهدية فى أجلى صورها من حيث أنها لاتنص على تحريم الزواج بالأم أو الأخت أو الابنة بقدر ماتنص على ضرورة اعطاء الأم أو الأخت أو الابنة للآخرين.

إذن فإن وظيفة هذا التحريم هو ضمان استمرار تبادل النساء عن طريق الزواج واستمرار الدوائر التى يتم فيها التبادل من أجل استمرار الجماعة وبقائها.

أما المبحث الأساسى فى نظرية «ليفى - ستروس» فهو التبادل حيث ترتبط قواعد التحريم - فى المجتمع الإنسانى - بقوانين التبادل تلك القوانين التى ترتبط بتفضيل الزواج من أبناء العمومة المتقاطعة بالذت والذى تمثل فى رأى ليفى ستروس البناء الأولى الذى يضمن للرجل الذى أعطى امرأة للزواج فإنه سوف يترقب ويتوقع أن يبادله ويعطيه امرأة لكى يتخذها كزوجة.

وقد اعتبر ليفى ستروس التبادل بنوعيه - المحدد والعام مظهراً من مظاهر

(1) Levi- Strauss. C.. Anthropologie Structureale, Plan, Paris, 1958, p. 58--59

التضامن الاجتماعى من حيث أنه يعمل على تقوية العلاقات بين الجماعات ويعمل على زيادة علاقات التضامن والترابط بينهم كما يؤدى إلى قيام التحالف.

عالج ليفى ستروس فى مقدمة كتابه الذى سبق الإشارة إليه مشكلة اثنوجرافية هامة ، وهى مشكلة الطبيعة والثقافة ، يعبر مفهوم الطبيعة عند ليفى ستروس عن العمومية والتلقائية بينما تعبر الثقافة فى مقابل ذلك عن النسبية والنظام.

وعلى هذا يرى ليفى ستروس أن كل ماهو عام لدى الإنسان يمكن ارجاعه إلى الطبيعة ويتميز بالتلقائية كما أن كل مايخضع لالزام القوانين الاجتماعية ينتسب إلى الثقافة ويتميز بالنسبية والجزئية [1].

لقد وجد ليفى ستروس فى نظم القرابة مواجهة درامية بين الطبيعة والثقافة[2] ، حيث تطالب الطبيعة بالتقاء واجتماع الجنسين ثم تتدخل الثقافة لكى تنظم هذا الالتقاء ، ومن هنا تظهر القاعدة الاجتماعية أو القانون الاجتماعى وهو تحريم الزواج من المحارم الذى ينتسب إلى الثقافة وهى المشكلة الثانية التى عرض لها ليفى ستروس فى نفس المقدمة - رغم أنه يتصف بالعمومية التى هى من خصائص الطبيعة. أن مبدأ تحريم الزواج من المحارم يوجد فى معظم المجتمعات ومن ثم فإنه يتصف بأنه عام وشائع لدى أغلب المجتمعات وبالرغم من عموميته فإنه ينتسب إلى الثقافة ، فكيف يكون ذلك ؟ وهل نجد مفارقة فى قول ليفى ستروس.

فى الواقع لانجد مفارقة فيما ذهب إليه ليفى ستروس حيث نلاحظ أن الطبيعة الإنسانية تميل إلى اشباع الغريزة الجنسية فهذا الإشباع يعود فى حد ذاته

(1) Levi - Strauss, Les Structures Elementaires de la Parente, p 9
(2) Ibid, p. 607

إلى الطبيعة ثم تتدخل الثقافة لكى تنظم هذا الإشباع وتحدد القيود والتحريمات التى يجب أن تفرض على العلاقة الجنسية ، وهذا أمر طبيعى. فالزواج نفسه من حيث هو اشباع للرغبة الجنسية يمكن ارجاعه إلى الطبيعة فى حين أن طريقته وأسلوبه يرجعان إلى الثقافة أى ظهور العوامل الاجتماعية التى تحدد درجات المنع والتحريم.

لذا يرى ليفى ستروس أن هذا التقابل بين الطبيعة والثقافة مهما يكن من شأنه – فما هو إلا مجرد تقابل نسبى ، نظراً لأن الطبيعة مفعمة منذ البداية بالثقافة . ومن ثم فإنه لايقيم تعارضاً بين الطبيعة والثقافة.

لذا يرى ليفى ستروس أن هذا التقابل بين الطبيعة والثقافة مهما يكن من شأنه – فما هو إلا مجرد تقابل نسبى ، نظراً لأن الطبيعة مفعمة منذ البداية بالثقافة. ومن ثم فإنه لايقيم تعارضاً بين الطبيعة والثقافة.

ولكن كيف يمكن الانتقال من حالة الطبيعة إلى حالة الثقافة ، يجيب ليفى ستروس بقوله : ان الانتقال من الطبيعة إلى الثقافة يعرف بما للإنسان من قدرة على النظر إلى العلاقات البيولوجية فى صورة أنساق تقابل بين الرجال المتلكين (زى الذين يمتلكون النساء) والنساء المتلكات، تقابل فى مجتمع النساء بين المتلكات وبين أخوة وأبناء المتلكين تقابل بين مجموعتين من الروابط :

روابط المصاهرة (التحالف) وروابط القرابة [1]. يكمن أصل الثقافة إذن فى ظاهرة المبادلة الجنسية حيث يستطيع الفرد أن يكون روابط قرابة مع أفراد آخرين لاتربطه بهم صلة قرابة من قبل ذلك عن طريق تبادل النساء. ويؤكد هذا ماذهب إليه ليفى ستروس من أن قيام الزواج بين الأشخاص الذين لاتربطهم صلة قرابة دموية إلى تحالف هؤلاء الأشخاص وتقوية صلات القرابة بينهم التى تنشأ عن

(1) Ibid, p. 175.

طريق المصاهرة ومن ثم يصبحون أقارب. يوضح هذا أيضاً الانتقال من حالة الطبيعة (قرابة الأم) إلى حالة الثقافة (المصاهرة) فالزواج القائم على روابط الدم - أى العلاقة البيولوجية - يمثل المرحلة الطبيعية فى حين أن الزواج القائم على دوافع أخرى قد تكون اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية - علاقة اجتماعية - أى الزواج بين الأغراب فإنه يمثل المرحلة الثقافية (الاجتماعية).

أما عن مشكلة تحريم الزواج من المحارم فهى من أهم المشكلات فى مجال دراسة القرابة ووجد ليفى ستروس فيها القاعدة الأساسية التى نقلت الإنسان إلى عالم الحياة الثقافية. كما يرى أن هذه الظاهرة تمثل الهدية فى أجلى صورها ، من حيث أنها لاتنص على تحريم الزواج بالأم أو الأخت أو الأبنة بقدر ماتنص على ضرورة اعطاء الأم أو الأخت أو الأبنة للآخرين [1].

ويذهب «كروسان» [2] إلى أن وظيفة هذا التحريم فى الحياة الاجتماعية - كما يرى ليفى ستروس - هى ضمان استمرار تبادل النساء عن طريق الزواج واستمرار قيام الدوائر التى يتم فيها التبادل من أجل استمرار الجماعة وبقائها. كما أن التبادل أو الأخذ والعطاء فى الزواج هو الذى يفسر هذا التحريم.

تشير دراسة ليفى ستروس إلى أن علاقات القرابة المختلفة ترد جميعها إلى مبدأ تحريم الزواج من المحارم - تلك القاعدة الاجتماعية التى تعتبر بمثابة ضمان توزيع النساء لضمان استمرار الجماعة. أى أنها لم توجد إلا لكى تضمن نوعا من التبادل سواء بطريق مباشر أو غير مباشر.

يذهب ليفى ستروس إلى أن تحريم الزواج من المحارم - كالاكسوماجية (يعد قانونا) للتبادل [3] ويقول فى ذلك :

(1) Ibid. p 596.
(2) Cressant, R., Levi Structure Phychotheque (ed.) University 1970. p 41
(3) Levi - Strauss. Op. Cit., p. 791.

إن المرأة التى ترفضك ، ترفض لأنها مقدمة لرجل آخر .. كما أنه فى الوقت نفسه الذى لا أسمح فيه لنفسى بالاقتراب من امرأة ستكون هى من نصيب رجل آخر فسوف يكون فى مكان ما رجل يتنازل عن امرأة حتى تكون لى بالتالى [1]

إن هذا التحريم هو الذى يفسر التبادل وبالتالى فإن التبادل يفسر التحريم. هذا عن وظيفة التحريم (فى الثقافة) ثم ننتقل من التبادل إلى المبادلة التى هى المبدأ العام الذى يضمن صفة العمومية (الطبيعة) . نجد أن ليفى ستروس يصرح بأن التحريم أى تحريم الزواج من المحارم هو المجال الذى تظهر فيه الثقافة كى تكون نظاماً جديداً كما أن تحليل مشكلة التحريم قد أدى إلى فهم معانى المبادلة والتبادل عن قرب [2].

إذا كان فى التبادل - كما يقول ليفى ستروس - شيء أكثر من الأشياء المتبادلة نفسها فما ذلك إلا أنه يمثل شكلاً من الاتصال. وعلى ذلك فإن كل زواج عبارة عن لقاء درامى بين الطبيعة والثقافة أو بين القرابة والمصاهرة.

يتضح لنا من هذا كله أن ليفى ستروس يقيم نظام القرابة على أساس التبادل نظراً لوجود المحرمات . كما ذهب إلى أن التبادل هو البناء الأساسى لكل نظم القرابة ، وأنه القاعدة الأساسية التى نبعث منها كل أشكال الزواج.

---

(2) Ibid, pp. 64-65.
(3) Yvan Simonis, Claude Levi-Strauss La Passion de l'inceste, Introduction au Structuralisme, Aubir-Montaigne, Paris, 1968, pp. 46-47.

تطبيقات الانثربولوجيا فى المجتمع المصرى

(١) الفصل التاسع

دراسات تطبيقية فى المجتمع المصرى

بدو الصحراء الغربية : العادات والتقاليد

(٢) الفصل العاشر

دراسة انثربولوجية للوظائف الثقافية والاجتماعية

للاغنية الشعبية فى المجتمع القروى برشيد

الفصل التاسع

دراسات تطبيقية فى المجتمع المصرى

بدو الصحراء الغربية : العادات والتقاليد *

* كتب هذا الفصل أ.د. فوزى العربى ، استاذ الانثروبولوجيا - بكلية الاداب- جامعة الاسكندرية.

الفصل التاسع

١دراسات تطبيقية فى المجتمع المصرى

بدو الصحراء الغربية : العادات والتقاليد

مقدمه الموقع :

تقع محافظة مطروح فى الركن الشمالى الغربي لجمهورية مصر العربية ، تمتد من علامة الكيلومتر (٦١) غرب محافظة الاسكندرية وحتى الحدود المصرية الليبية (مدينة السلوم) أى بطول ٥٠٠ كيلومترا على ساحل البحر المتوسط، وتمتد جنوبًا بعمق حوالى ٤٠٠ كيلومترا جنوب واحات سيوة. ويحد المحافظة من الجهة الشرقية محافظتا الاسكندرية والبحيرة وغربا الجماهيرية الليبية وجنوبا الجيزة والوادى الجديد.

ومساحة محافظة مطروح حوالي ٢١٢ ألف كيلومترا مربعا (٥٠ مليون فدان) وتمثل ٢٢٪ من إجمالى مساحة الجمهورية ، ومناخها شبه صحراوى.

وإن امتداد محافظة مطروح على طول ساحل البحر المتوسط والعمق الكبير يعتبر أحد الاتجاهات الاستراتيجية الرئيسية لأمن مصر القومى وأمن المنطقة الشمالية الغربية بصفة عامة.

وتمتد الصحراء الغربية من البحر الابيض المتوسط شمالا، والنيل شرقا، وحدود ليبيا غربا، ولا تقتصر تلك المساحات الصحراوية الشاسعة على مصر وحدها ، بل انها تمتد لتشمل العالم العربى كله ، فهو يحتوى على أطول امتداد صحراوى على وجه الكرة الأرضية يبدأ من جبال إيران شرقا وينتهى عند سواحل

المحيط الأطلس غربا .

والبداوة Nomadism طريقة للحياة للذين لا يقيمون فى مكان واحد ولكنهم يتحركون حركات دائرية ودورية، وهى لا تستخدم التجول غير المباشر أو غير المحدد ولكن يتجمع أفرادها فى مراكز مؤقته تعتمد الإقامة فيها على توافر الطعام وتكنولوجية استخدامه .

ولقد بدأت البداوة فى الزوال في القرن العشرين لأسباب اقتصادية وسياسية تتضمن انتشار الزراعة الجماعية المنظمة ونمو الصناعة، والسياسات الحكومية التى تعارض البدواة لتناقضها مع الحياة الحديثة.

وتعتبر تربية الأغنام والماعز هى النشاط الرئيسى لبدو المنطقة والمصدر الأساسى لدخل الأسرة البدوية ، وتعتبر الأغنام والماعز النواة التى ترتكز عليها حياة رجال القبائل ، ويواجه البدو بمشكلة الرعى الجائر وحمولة المرعى ، ولذلك فقد تدهورت أرض المراعى نتيجة الرعى الجائر.

ولقد كان بدو الصحراء الغربية يعتبرون الزراعة تأتى فى المرتبة الثانية بعد الرعى. ولكن ازداد الميل موخراً إلى الجمع بين الزراعة وتربية الحيوان نتيجة لازدياد الاتصال مع الفلاحين وما ارتبط به من ازدياد مطالب البدو وتنوعها والرغبة فى تحسين أحوالهم المعيشية والحصول على دخل أكثر ثباتًا بحيث يوفر لهم حياة أكثر استقراراً وأمنا وطمأنينة، وهذه كلها تدفع سكان الصحراء الآن إلى محاولة استغلال الأرض الصالحة للزراعة وموارد المياه الجوفية المحلية فى زراعة الحدائق والبساتين بأشجار الموالح والزيتون والتين واللوز والكروم وما إلى ذلك .

ومجتمع بدو مطروح مجتمع تقليدى ، وبالرغم من اتساع مساحته فإنه قليل السكان ، وثقافة ذلك المجتمع وتاريخه غير مكتوبين ، ولكنهما ينتقلان من جيل إلى جيل .

وقد شكلت البيئة القاسية وفقد الأرض كثيراً من النظم الاقتصادية والقرابية والقانونية والسياسية للبدو . وسبب ذلك الفقر البيئى اعتماد البدوى على قبيلته اعتماداً كبيراً ، وأدت إلى التضامن القرابى المعروف لدى البدو وجلعت البدو يقصرون ميراث الأرض على الأبناء الذكور فقط دون الإناث حتى لا تنتقل الأرض للغرباء . كما أنها جعلتهم يفضلون زواج بنت العم زيادة فى التضامن والتماسك القرابى . ومن الناحية الاقتصادية لجأ البدو إلى كثير من النظم فى مواجهة البيئة القاسية مثل نظام الزراعة بالمشاركة ونظام الزراعة بالمكاتفه ونظام عطية الأرض أو هبة الأرض، وفي مجال الضبط الاجتماعى جعلت البيئة البدو يضمنون قانونهم العرفى موادا للمحافظة على نظامهم وعقوبات توقع علي كل من يخالف القانون العرفى الذى وضعه البدو للمحافظة على ذلك النظام.

وقد ظل البدو لطبيعة حياتهم الاقتصادية القائمة على الحركة الواسعة من ناحية ، وطبيعة تكوينهم الاجتماعى القائم علي الفكرة الزمنية الممتدة من ناحية اخرى ، يفوتون القيود المكانية، فلم تدخل الحدود السياسية في حسابهم، بل استمروا يمارسون تكاملهم ووحدتهم فوق هذه الفواصل دون اعتبار للقيود السياسية ثم انهم، فيما وراء ذلك، ظلوا يقيمون علاقاتهم القرابية علي أسس زمانية تتخطى المكان .

وينظر بدو مطروح إلى أرضهم باعتبارها منطقة يمكن أن يستغلها أى عضو من اعضاء مجتمعهم، ولكنهم يحرمون هذا الحق بالنسبة للآخرين. فالبدوى فى مطروح - وبخاصة عضو القبيلة - يستطيع ان يستغل أى منطقة أو مساحة من الأرض داخل نطاق أرض القبيلة ويقوم بزراعتها ، ولكنه لا يملك هذا الحق بالنسبة لأية مساحة داخل أرض قبيلة أخرى ما عدا تحت ظروف خاصة، ونفس هذا المبدأ نجده فى أرض المرعى ولكن بدرجة أقل .

وتتحدد حدود الأرض بين بدو مطروح بكل جماعة قرابية عن طريق التقاليد،

ولهذا فأي بدوي يعرف ليس فقط حدود بلده وأرضه داخل جماعته القرابية ولكن أيضا تلك الأراضي التابعة لجماعات أخرى معرفة تامة. وقد تحدث خصومات حول حدود الجيرة، ولكن مثل تلك الخصومات والخلافات تحسم بسرعة إما عن طريق الرجوع إلى كبار السن الذين يوضحون التوزيع التقليدى لتلك القبائل والأراضى ، أو بواسطة قادة الجماعتين أو غيرهم من كبار السن الذين يعرفون عادة باسم «العواقل» أو عن طريق «حلف اليمين»، وفى تلك الحالة الأخيرة يجب أن يؤكد هذا اليمين عشرون من كل جانب .

ويبدو أن تربية الحيوانات الداجنة هى أفضل طريقة للحياة عند سكان الصحراء فى ظل الأحوال الموجودة الخاصة بندرة المطر وانخفاض متوسط الأمطار الذى قد يؤثر فى النمو الكامل لزراعة الشخص ولكنه لا يؤثر على الإطلاق فى حيواناته، فالثروة الحيوانية تعتبر عنصرا مهما واساسيا بالنسبة للبدو وتعتبر تربية الأغنام والماعز الحرفة الأساسية ورأس المال الرئيسى لأهالى تلك المنطقة من البدو .

وترتبط الزراعة عند بدو مطروح بدورة النجوم والكواكب فى السماء ، فتلك النجوم التى يطلق عليها أسماء معينة تظهر فى أوقات معينة من السنة، وترتبط تلك الأوقات بمواعيد الزراعة والحرث والحصاد وغيرها من العمليات الزراعية لدى البدو .

وبيوت البدو أفضل ما يتناسب مع البيئة الصحراوية بل أفضل ما يناسب حياتهم القائمة على الترحال والتنقل من مكان إلى مكان خاصة عندما تغمر السيول أراضيهم فيحملون بيوتهم إلى مكان أعلى لاتصلهم فيه مياه السيول أو ينتقلون إلى حيث نثروا الشعير فى أكتوبر أو يحملونها إلى جوار الشاطئ حيث يزرعون بعض الخضروات فى فبراير، أو يرحلون بأغنامهم إلى أسواق الحمام ليبيعوا نتاجها فى مارس ، ثم يعودون فى ابريل حيث يكون قد حان أوان حصاد

الشعير من أواخر أبريل الى أوائل مايو ويونيه .

ويبنى البدوى الذى يسكن مدينة مطروح مسكنه من الحجر الأبيض ويختلف عدد حجرات المسكن باختلاف حجم الأسرة ، ويوجد لكل مسكن فناء بداخله يسمى «حوش» بدون سقف يستخدم لتربية الحيوانات كالأغنام أو لتحضير الطعام فيه أو للجلوس فيه صيفا ، وقد يصل عدد حجرات المنزل الواحد إلى ١٣ حجرة وبخاصة اذا أقام الأبناء المتزوجون مع آبائهم هم وأولادهم أيضا ، وتخصص حجرة فى المسكن للزوار والضيوف الذين يجلسون علي الأرض وفوق الحصير بعد خلع أحذيتهم ونعالهم أمام باب الحجرة وقبل الجلوس على الحصير، وكذلك تخصص حجرة فى المسكن لعلف الحيوانات .

بينما يقام النجع عادة بعيداً عن قيعان الأودية أو سفوح التلال خوفا من طغيان السيول، ولذا تقام بيوت «النجع» أو «الحنيش» كما يسميه البدو فى منحدرات التلال ، كما تتفاوت بيوت الحنيش فى الشكل وإن اختلفت سعتها ونوع الحنيش طبقا للثروة والمركز الاجتماعى .

إن النظام التقليدى المتوارث لحياة البدوى فى الصحراء وحبه لها واعتزازه بالحرية المطلقة جعلته ينتقل فى أرجائها حيثما شاء بلا قيود ولا حدود بحثا عن الماء أو الكلأ ويجد فى ذلك سعادة ، فالبدوى معروف بكرهه التقليدى للأعمال اليدوية والحياة المدنية التى تقيده بقيود تتنافى مع عاداته وتقاليده.

إن تفشى الأمية والجهل وانعدام الاتصال الثقافى بحياة البدوى وخبراته المحدودة فى كل نواحى النشاط الثقافى المختلفة ضربت حوله ستاراً من. العزلة وأضعفت ثقته فى المجتمع القومى الذى ينتمى إليه.

ولقد كانت التقاليد الموروثة عند البدوى تمنعه من التزاوج الخارجى وتقصره على الزواج الداخلى من أقاربه وهو يشعر بأن استقراره فى بقعة بعينها يتيح له هذا الزواج إيجاد علاقة بينه وبين المجتمع، فينفر من هذا الاستقرار ويخاف من

النتائج المترتبة عليه ، إلا أن هذا المبدأ تغير بسبب الاتجاه الحالى للزواج الخارجى، ولقد أدى عدم سرعة الاستجابة وبطؤها للتغيرات المطلوبة بسبب وقوف العادات والتقاليد حجر عثرة فى سبيل تنفيذ عمليات التوطين .

كذلك أدت قلة اقبال البدو على الاعمال اليدوية أو التدريب على الأعمال الفنية فى المؤسسات والشركات فضلا عن عدم اهتمامهم بتوفير مسوغات التعيين.

ولقد تسببت ندرة الطعام فى معظم أوقات السنة ال[illegible]ماد الكبير والتضامن بين العشائر البدوية رتلك المشاركة فى الطعام كقاعدة والمساعدة المتبادلة والتعويض عن النقص فى الطعام أثناء فصل الجفاف بالنجوع يرجع أساسا إلى العلاقات القرابية، فالشخص الذى فى حاجة إلى مساعدة اليوم من شخص آخر قد يساعد هذا الشخص الآخر فيما بعد فى المستقبل.

واستنادا إلى ذلك فإنه للتعرف على الارتباط الوثيق للبدو المقيمين فى مدينة مطروح وولائهم لقبائلهم وخضوعهم لمختلف الالتزامات الاجتماعية كأعضاء فى قبيلة أو عشيرة لابد وأن ينظر إلى هذا كله من خلال تنظيمهم الاجتماعى التقليدى وروابط القرابة القوية الأبوية التى لها دور مماثل في حياة الفرد البدوى وتفرض التزامات وحقوقا محددة للأقارب تجاه بعضهم البعض.

ويقضى الالتزام القرابى بضرورة مشاركة الاقارب على أساس ان الأرض في الأصل كانت ملكية لتلك الجماعة بوضع اليد وأن لأى عضو من أعضائها الحق فى الانتفاع بنصيب الآخر دون شخص آخر من خارج الجماعة القرابية، بالاضافة إلي ما تفرضه القرابة من ضرورة مساعدة الأقارب بعضهم بعضا فى تلك الظروف الاقتصادية القاسية التى كانوا يعيشونها. فعنصر الالتزام القرابى كان أحد الخصائص المميزة لنظام الزراعة بالمشاركة ، كما أن نظام الزراعة بالمشاركة كان يعمل على تقوية العلاقات القرابية وتدعيمها .

والمعروف أراضى الرعى كانت تستغل بواسطة أفراد الجماعة النجعية فى المناطق الجنوبية والبعيدة عن الساحل ، فلكل نع أراضى الرعى التى تقع داخل حدوده والتى كان لكل فرد من أفراد الجماعة النجعية الحق فى أن يرعى حيواناته فيها وبخاصة الأغنام والماعز. أما الأراضى التى تقع بين النجوع فكان أفراد الجماعتين النجعيتين يشتركون فى استغلالها ، ويشاركهم فى ذلك بقية البدو إذا كان لهم الحق فى رعى أغنامهم فى مثل هذه الأراضى دون أن يعارضهم البدو من أفراد النجع ذلك أن الرعى مشاع بين الجماعات البدوية بالصحراء الغربية.

يتبين إذن مدى الأهمية التى كانت عليها الجماعة البدوية القرابية كوحدة اجتماعية إقليمية صغيرة ومدى قوة العلاقات القرابية بين أفرادها، الأمر الذى أدى إلى أن يكون الانتماء القرابى أكثر قوة وأهمية من الانتماء الإقليمى، فإن مثل هذا التعاون المتبادل والمصالح الاقتصادية المشتركة كفيلة بتقوية العلاقات بين أفراد الجماعة وبالتالى تدعيم وحدتها وتماسكها.

ويؤدى التقدم العلمى إلى زيادة الشعور بالفردية والانسلاخ عن المجتمع القبلى وتكوين جماعات أخرى لا تقوم على أساس القبيلة والانتماء القبلى أو القرابي أو وحدة التقاليد وإنما تقوم على أساس التشابه فى العمل والتخصص في الدخل، أى أن الوحدات الجديدة وحدات اقتصادية وليست وحدات اجتماعية بالمعنى القديم الذى يسود المجتمعات الصغيرة والبدائية.

وعلى الرغم من انتشار القبيلة فى عدة مناطق متباعدة علي مسافات طويلة، فإن عدم الإقامة المشتركة لا تمنع إفراد القبيلة أو إحدى جماعاتها من الاشتراك في الالتزامات والواجبات القبلية ، ولم يكن للأبعاد المكانية تأثير على الالتزام القرابي بضرورة تعاون جميع أفراد القبيلة فى مثل هذه الالتزامات مثل الاحتفال بمولد الرسول أو أحد الأولياء .

ولقد وجد كثير من الجماعات والأفراد من غير البدو المقيمين فى مطروح

والذين أتوا من وادى النيل إما للاشتغال فى المهن التجارية والحرة أو للعمل كموظفين بأجهزة المحافظة هناك أن المجتمع من حولهم مقسم لعدة قبائل كل منها تحمى أفرادها وتسعى للمصلحة المشتركة، ومن هنا وسعيًا لحماية أنفسهم كتب كل منهم مع إحدى القبائل البدوية القوية.

وقد أصبحت مسألة الاكتتاب الآن قليلة نظرًا لظروف المدينة، ويمكن لأى شخص الآن أن يعيش فى المدينة دون أن يتعرض له أحد ودون أن سيطلب حماية أحد، ولكنه يكفيه أن يطلب حماية شرطة المدنية، وكذلك ـــت البداوة الآن نتيجة للاستقلال الشخصى للأفراد .

وبالرغم من أن البدو يقررون أنهم يطبقون الشريعة الإسلامية فى الميراث، فإنهم لا يورثون المرأة لاعتبارات عديدة تفرضها أنساق البناء الاجتماعى السائدة ويؤيدها العرف والتقاليد، ولهذا فليس للإناث فى مجتمع بدو مطروح نصيب فى الملكية.

ومن. أسباب عدم توريث المرأة فى ذلك المجتمع هو أن زواجها ينقل ملكيتها فيه لزوجها للإشراف عليه، ولذلك فلو تزوجت المرأة من ابن عمها فسوف تنتقل ملكيتها إليه ومن هنا يعلو نصيبه على نصيب أبناء عمه أى إخوتها مما يثير الحقد والضغائن .

ونظرا لتعدد الزوجات فى المجتمع البدوى وكثرة عدد الأطفال لذا كانت حياة الأرض للذكور فقط حتى لا تتفتت الملكية وتتفرق، لأن المجتمع البدوى يقوم علي العصبية وسيادة الرجل .

فإذا تزوجت المرأة بعد وفاة زوجها أو بعد طلاقها فإن ذلك يؤدى إلى مشاكل عديدة لو كان لها ميراث وملكية معينة لأن ذلك الزواج الجديد يستلزم نقل ملكيتها للزوج الجديد .

ومبدأ المسئولية الجمعية معروف لدى الجماعات البدوية بمطروح إذ تنظر العشائر البدوية إلى الجرائم الكبيرة ليس فقط باعتبارها عقبة على المذنب وجماعته القرابية بسبب الخيانة التى ارتكبها ولكن أيضا باعتبارها عاملا ضاغطا ومؤثرا تقوم بواسطتها عشيرة الشخص مرتكب الإثم باستعادة احترامها ومركزها الاجتماعى . ولم يمنع تواجد الإجراءات القانونية الحديثة بمطروح من اللجوء إلى مبدأ الأخذ بالثأر ولكن درجة ميل جماعات البدو المتوطنه وأنصاف البدو أقل من الجماعات البدوية الكاملة عند الأخذ بالثأر ، ومع ذلك فدفع التعويض كسب أرضا طيلة الوقت بين الجماعات البدوية على حساب مبدأ الأخذ بالثأر .

وينص القانون العرفى لحيازة الأراضى أن لكل عشيرة من قبائل أولاد على فى مطروح أراضيها الخاصة، تسكن بها دون أن تقيم معها غريبا أو يجور أو يتطفل عليها أو يغزوها أحد. فإذا ما جار أحد أو تعدى على مقاطعة الآخر فإن مجلسًا خاصا من القبيلة ينعقد للنظر في القضية، ويطلب من كلا المتنازعين الدليل على إقامة دعواه، كذلك يطلب من حائزى الأراضى المجاورة للمنطقة المتنازع عليها الشهادة. وفى النهاية يصدر المجلس أحكامه بواسطة حلف اليمين. وعند تسوية النزاع فإن حلف اليمين هو أفضل الوسائل لتأدية هذا الغرض لأ بدو الصحراء الغربية يثقون إلى حد كبير فى القسم حيث أنه يوضح الحق.

ولا يستطيع أى غريب عن المنطقة أن يقوم بشراء الأراضى أو استغلالها دون موافقة وتعويض لمالك الأرض. وحتى المالك داخل القبيلة لا يستطيع التصرف فى الارض وعليه أن يتبع قواعد عرفية معينة . وعندما يبيع رجل القبيلة حصته فى الأرض فإن لقبيلته الأولوية في الشراء ، ويجب تخفيض السعر إذا كان المشترى أحد اقاربه .

ومن بين الظواهر المهمة لنظام الملكية هذا أننا نجد أن حدود المناطق التى

تملكها القبائل واراضى الأفراد الواقعة داخلها، برغم معرفة ملكيتها للجميع فإنها نادرا ما يتم تسجيلها فى أى سجل من سجلات الملكية أو يتم توقيعها على خريطة مساحية كى يدفع عنها ضريبة. والظاهرة الأخيرة الجديرة بالاحترام هى انتشار الحيازات الفردية وبخاصة فى المناطق الصحراوية المزروعة . فلم تعد المناطق القبلية تستغل جماعيا أو مشاعا بين أفراد القبيلة الواحدة، لكن حددت لكل من أفراد القبيلة الواحدة قطعة أرض خاصة به بطريقة يمكن بها أن يعرف كل حائز لقطعة أرض شكل وحدود حصته من الأرض داخل أرض القبيلة.

والاجراءات العرفية الشرعية فى مطروح لا تعتمد كثيرا على الشهادة فى كشف الحقيقة. وفى الحقيقة يمتنع الناس عن حلف اليمين لأن ذلك يجنبهم متاعب لا حصر لها من جانب الجماعة التى يشهدون ضدها، والرجل الذى يرفض حلف اليمين. يعتبر مذنبا ويفقد حريته .

والمتفق عليه فى مصدر العقوبة أن المجتمع هو الذى يعاقب وهو وحده الذى يملك العقوبة لدرء الضرر الذى وقع عليه والإهانة الموجهة إلى المجتمع هى التى تقصد العقوبة إلى ازالتها ومحو أثرها .

ومن أهم أسباب تضامن القبيلة المصالح الاقتصادية المشتركة فى الأرض، والتى يعتبر كل فرد من أفراد القبيلة بمناسبة الوارث لها. وهذه المصلحة المشتركة فى الأرض يسندها التضامن القائم على الأساس الاخلاقى الذي تفرضه العلاقات الوثيقة التى تربط أفراد القبيلة بعضهم إلى البعض الآخر إضافة إلى العواطف التى يتبادلها أعضاء القبيلة، وبذلك يقف كل أعضاء القبيلة مع كل عضو آخر سواد أكان معيبا او مخطئًا، وتعتبر الاختلافات التى تقوم بين أعضاء القبيلة بمثابة الخصام الشخصى الذى يزول سريعاً .

فالقانون البدائى في الحقيقة هو مجموع أعراف القبيلة، ويتضمن كل قواعد السلوك التى تنظم تصرف الأفراد والمجتمعات .

ومن الملاحظ بصفة عامة أن الخروج على العرف الجارى كان فى أول الأمر يعتبر خطأ كبيرا دائما ، وفى ضوء هذا يمكن أن يؤدى الثأر بالنسبة للجماعات المتخلفة وظيفة الضبط الاجتماعى، إذ أنه ولا شك يحذر هذا النظام كل من تسول له نفسه الاعتداء على الغير أنه وعشيرته كلها معرضون للانتقام ومسئولون عن هذا الاعتداء، ويعتبر الانتقام أو الثأر بين القبائل من أول الاجراءات العرفية التي وضعتها الجماعات الانسانية . كذلك ليس من الضرورى ان توقع العقوبة علي الجانى نفسه او عليه وحده وإنما يمكن من حيث المبدأ توقيعها على أى شخص من أعضاء الجماعة القرابية التى ينتمي إليها الجانى والتى تعتبر متضامنة ككل فى المسئولية الجنائية. ويظهر هذا بشكل واضح في حالات «عداوة الدم» التى تنجم عن قتل شخص ينتمى إلى عشيرة أخرى فى نفس القبيلة، فعلى الرغم من أن جماعة القتيل تضع نصب عينها فى المحل الأول ضرورة الاقتصاص من القاتل نفسه فإن القصاص يمكن أن يؤخذ من أى شخص ينتمى إلى عشيرته.

إن أحد الملامح الرئيسية للمجتمع البدوى هو إدعاء العائلة والقبيلة مسئوليتها عن سلوك أفرادها ، فالجرائم والإهانات والأخطار تضع حملا ثقيلا على كاهل الجماعات التى ينتسب اليها المذنب والفرد يخضع لإشراف الجماعة المباشر ولنظمها ، لأن سلوكه يلزم هذه الجماعات تماما.

وللعقوبة هدف عاجل هو تعبير عن السخط الأخلاقى للمجتمع عن طريق الجزاءات التى يقف ضدها المجتمع ويوقعها بواسطة ممثلين له يستطيعون تنفيذ العقوبة التى يفرضها المجتمع .

والعقوبة تعبير عن مواجهة الفعل الشائن من المجتمع بأكمله، سواء الجرائم التي يقف ضدها المجتمع عن طريق ممثليه مثل جرائم القتل العمد، أو الجرائم التى تحسم بواسطة أفراد أو جماعات معينة أو عن طريق دفع التعويض مثل القتل

الخطأ والسرقة وإتلاف الممتلكات فالقصاص على الأخطاء تفرضه القبيلة نفسها على أفرادها والقصاص اجراء عقابي يخضع للمساواة، وبالرغم من أن القصاص موضوع لردع جرائم إخرى فإن وظيفته الأساسية هي تعويض الضحية بارضاء نزوعها إلى الانتقام، أو دفع الدية لها فيما يتناسب مع الضرر من مال أسرة الجاني أو قبيلته.

ولا تستطيع العشيرة أو الأسرة ان تنعزل عن بعضها ولا أن تفصل بين أعمالها ولا يستطيع الأفراد أنفسهم مهما كان تأثيرهم ووعيهم الشخصي أن يفهموا بأن عليهم أن يعارض بعضهم البعض الآخر، وأن يعرفوا الفصل بين أعمالهم بعضهم عن البعض الآخر، فالرئيس يندمج في عشيرته ، وهذه تندمج فيه، والأفراد لا يفكرون في العمل إلا بطريقة واحدة.

ولا توجد في المجتمعات التقليدية هيئة متميزة تختص بالنظر في المنازعات التي تقوم بين أعضاء القبيلة أو تتولى الفصل في المنازعات والخصومات ، وانما يشرف على هذه الأمور كبار السن والشيوخ من أعضاء القبيلة دون أن يكون هناك أشخاص متخصصون أو منقطعون لهذه المهمة، ودون أن يكون هناك نظام محدد لأختيارهم.

وفي هذه المجتمعات التقليدية نجد أن نظام المحاكم بالمعنى الحديث للكلمة غير موجود وإنما الذي يوجد بالفعل هو نظام «التحكيم» أو نظام الوساطة بين طرفي النزاع . وليس المقصود بالمحكمة هنا وجود مكان معين يلجأ إليه المتقاضون بقدر ما نقصد به وجود الهيئة المتخصصة من ناحية ووجود القواعد القانونية الثابتة الجامدة من ناحية أخرى . ومع أن لكل هذه الجماعات التقليدية قواعد عرف خاصة بها أو القانون العرفي ، ومع أن القوانين العرفية كثيرا ما تكون مدونة بالفعل في بنود فإن العبرة في ذلك هي بالتطبيق .

وأخيرا فان الأحكام التي تصدر عن الجماعة التي تتدخل لفض النزاع

تستهدف في النهاية محاولة ارضاء أطراف النزاع بحيث أن القضية لا تعتبر منتهية تماما إلا اذا ارتضي المتنازعون بذلك الحكم ووافقوا عليه. فعنصر القهر أو القسر هنا غير متوفر بمعنى ان جماعة الوسطاء او المحكمين لا يستندون إلى أية قوة فيزيقية يستطيعون اللجوء إليها لفرض أحكامهم بالقوة، وإنما كانت أحكامهم التى تصدر فى العادة فى شكل وصايا أو نصائح تنفذ فى معظم الأحوال فإن هذا لا يعنى إطلاقا أن هذه النصائح والتوصيات لها قوة الأحكام النهائية وإنما كل ما يعنيه الأمر أن أطراف النزاع يتقبلون تلك الأحكام إما رغبة منهم فى المحافظة على التوازن الاجتماعى السائد في المجتمع، وإما رغبة في عدم إغضاب هيئة الوسطاء أو المجلس العرفي نظرا لمكانتهم الاجتماعية التى يتمتعون بها. فالعرف تغلغل فى كل ثغرة فى حياتهم نابعا من بيئتهم القاسية ليحمي مجتمعهم من. العبث به، بل لم يترك الحياة الاجتماعية والقيم الاخلاقية بلا رقيب ، فأوجد لها هذا العرف كضابط اجتماعى اصطلحوا عليه من قيم تقوم مقام القانون ، وتحوى نظمهم الاجتماعية والاقتصادية .

والفرد ليس الا شبكة من العلاقات الاجتماعية، وهو يشعر أكثر وأكثر بشخصيته كلما ازداد شعوره بانتمائه الى الجماعة، ولقد كان الفرد فى المجتمع البدائى يفنى فى الجماعة، ولذا اتسم القانون البدائى بطابع الجماعية والقداسة ثم أخذت النزعة الفردية تتأكد فيما بعد .

وعلى الرغم من ان القانون العرفى لأولاد على بمطروح والذى يعرف عندهم باسم «درايب اولاد على» مدونة فى سبع وستين مادة تغطى معظم – ان لم يكن كل – حالات النزاع التى يحتمل قيامها فى المجتمع البدائي مع اجراءات التسوية والاحكام الخاصة بكل حالة، فإن هذه النصوص ليست جامدة تماما كما هو الحال فى نصوص القانون الوضعى، بمعني انها تترك للشخص او الاشخاص الذين سوف ينظرون فى تلك المنازعات حرية التصرف إلى حد كبير تبعا لمقتضيات الموقف.

الفصل العاشر

دراسة انثروبولوجية للوظائف الثقافية والاجتماعية للاغنية الشعبية فى المجتمع القروى برشيد *

الفصل العاشر

دراسة انثروبولوجية للوظائف الثقافية والاجتماعية للاغنية الشعبية فى المجتمع القروى برشيد *

تمهيد :

الأغنية الشعبية هى تعبير عن روح الجماعة فهى إبداع فردى يتحول بعد ذلك ليصبح ملكا للشعب فيعبر عن قيمه وأفكاره واتجاهاته ورؤيته الذاتية للعالم المحيط به بالاضافة إلى وظيفته فى الترويح عن النفس .

الهدف من هذه الورقة :

تهدف هذه الورقة إلى دراسة الأغنية الشعبية فى المجتمع القروى وهو قرية البرج التابعة لمركز رشيد ، ومحاولة التعرف على القيم الثقافية التي تعكسها تلك الأغنية والوظائف الاجتماعية التي تحققها داخل اطار هذا المجتمع. كما أنها يمكن أن تعد إسهاما في المسح لبعض عناصر التراث الشعبي داخل إطار الثقافة المصرية.

وتعد دراستي للأغنية الشعبية فى قرية البرج والتى تمت عام ١٩٩٢، إستكمالا لدراستى الميدانية التي قمت بها فى مرحلة الدكتوراه فى هذه القرية

* كتب هذا الفصل د. مرفت العشماوى عثمان العشماوى ، مدرس الانثروبولوجيا ، بكلية الاداب - جامعة الاسكدرية.

وكان موضوعها «دورة الحياة عند الفرد : دراسة أنثروبولوجية مقارنة للعادات والتقاليد الشعبية فى مجتمع رشيد» .

ولقد اعتمدت الدراسة الميدانية علي الأدوات التقليدية للدراسة الانثروبولوجية وهى الإقامة فى مجتمع الدراسة، الملاحظة بنمطيها المباشرة والملاحظة بالمشاركة، المقابلة استخدام وسائل التصوير الصوتى والضوئي.

الأغنية الشعبية :

هى قصيدة غنائية ملحنة مجهولة النشأة بمعنى أنها نشأت بين العامة من الناس فى أمنة ماضية وبقيت متداولة ازمنة طويلة [(١)] .

أو هى أشعار قصيرة أو قصة قصيرة يتغنى بها الأفراد للترويح عن النفس أو لتخفف عنهم مشقة العمل، كما ان العمال الذين يتطلب عملهم وحدة فى الحركة ينشدون أغانى خاصة، إذ أن النغم يُوجد اتساقا فى الحركة الجسمية المتكررة [(٢)].

أو هى على نحو ما يقول «الكزندار كراب» هى قصيدة غنائية ملحنة مجهولة النشأة ظهرت بين أناس أميين فى الأزمنة الماضية ولبثت تجرى فى الاستعمال لفترة من الزمن ولم يهتم الناس بأمر مؤلفها أو ملحنها [(٣)] .

وهذا يعنى أنه يمكن أن يكون من وضعها في بادىء الأمر كان فردا واحدا أديبا في بعض الأحيان، أو رجلا من العامة ظل إسمه مغموراً يطويه الغموض، وقد يرجعه تأليفها إلى الإرتجال [(٤)] .

ويقرر «هانز مورز» ما يقوم به المجتمع الشعبى من تعديل الأغنية الشعبية تبعا لما يصل إليه المجتمع من تغييرات فى كل فترة من فترات التطور والتغيير الاجتماعى فتلائم التعبير عن حاجاته المتعددة لذا لهو يقرر أن الأغنية الشعبية هى الأغنية التى قام الشعب بتعديلها وفق رغبته بعد أن أصبح يمتلكها

إمتلاكا تاما.

أما «ريتشارد فايس» فهو يرى أن الأغنية الشعبية ليست بالضرورة هى الأغنية التى خلقها الشعب ولكنها الأغنية التى يغنيها الشعب وتؤدى وظائف يحتاجها المجتمع (٥) .

والأغنية الشعبية يتم حفظ ألفاظها وكلماتها دون كتابتها بالإضافة إلى إعتماد موسيقاها على السماع وليس النوتة الموسيقية المكتوبة، وهى قابلة للإضافة والتعديل حيث يستطيع المطرب الشعبى عن طريق قياسه الفطرى للإستجابات لدى المستمعين من إدخال ما يراه مناسبا على الأغنية بحيث يضمن حسن استماعهم واندماجهم فيما يؤدى ، وهى تتميز بصفة الجماعية بمعنى أن أى شخص يستطيع أن يشترك فى الأداء . وقد يرجع تأليف الأغنية الشعبية إلى المطرب نفسه أثناء تأدية أغنيته فيحاول أن يرتجل أغنية جديدة أو مقطع من أغنية تضاف إلى أغنيته. وهذا الشرط يرتبط دائما بالتحويلات والتعديلات والإضافات التى تراها جماعة المستمعين (٦) .

مما سبق أستطيع القول أن الأغنية الشعبية هى قصيدة غنائية ملحنة، مجهولة النشأة ظهرت بين العامة فى أزمان ماضية وظلت متداولة لفترات طويلة من الزمن، وغير معروف من الذي قام بتأليفها ولكن هذا لا يعنى أنه ليس لها مؤلف ولكنها فى الواقع هى إبداع فردى يتحول بعد ذلك ليصبح ملكا للشعب، ويتم حفظها عن طريق السماع، وليس لها نوته موسيقية مكتوبة. ويستطيع المطرب الشعبى بفطرته الإرتجال وإضافة ما يراه مناسبا على الأغنية حتى يضمن التواصل بينه وبين الجمهور. كما أنها قد تتحور وتتعدل لتتناسب مع الواقع والظروف الاجتماعية. وهذا يعني استمرارها وخلودها .

الاغنية الشعبية بين الانثروبولوجيا والفولكلور :

ينظر علماء الانثروبولوجيا والعلوم الانسانية الى الفولكلور باعتباره يشمل الفنون الشعبية، الصناعات والأدوات التقليدية، العادات والتقاليد والمعتقدات الشعبية، الملابس الشعبية، الطب الشعبى ، الرقص والموسيقى والألعاب الشعبية، طرق الطهى الشعبية، بالإضافة إلى فنون الأدب الشفاهى التى تشمل الحكايات الشعبية، قصص الخوارق ، الأساطير ، الأمثال ، الألغاز ، الشعر ، والنثر ، الأغانى ... الخ .

وإنه عند دراستنا له يجب استبعاد المعارف التى يتم اكتسابها عن طريق مؤسسات التعليم الرسمية، وان الفولكلور فى المجتمعات البسيطة والتقاليدية يعد مطلقا للثقافة أما فى المجتمعات المتقدمة فهو يعتبر جزءا من الثقافة الكلية. وهو ينتقل من جيل لآخر عن طريق التواتر الشفاهى (٧) .

ويرى الانثروبولوجيون أن فنون الأدب الشفاهى تلك هى فى الواقع أدلة وبراهين ودلائل متميزة للإبداعات الخلاقة التى تتمخض عنها الاشكال الفنية المختلفة كالموسيقى والشعر والأغانى .

فعلماء الأنثروبولوجيا عند دراستهم للفولكلور بشقيه المادى والمعنوى يدرسونه باعتباره جزءا من ثقافة المجتمع التى تنتقل عن طريق التواتر الشفاهى، والتى تعد براهانا ودليلا على الابداع والابتكار لأفراده، أو أنه ثقافة الطبقات الشعبية من الفلاحين والصيادين وسكان البادية داخل ثقافة المجتمع الكبير. وأن الاغنية الشعبية كمعنصر من عناصر الفولكلور أو الأدب الشفاهى تحقق العديد من الوظائف الاجتماعية والثقافية فى المجتمع .

الوظائف الثقافية والاجتماعية للأغنية الشعبية كعنصر من عناصر الأدب الشفاهي [٩] :

١ - تعكس الأغنية الشعبية القيم واهتمامات الجماعة. كما أنها تعمل على نقل تلك القيم والمعرفة والإتجاهات من جيل لآخر ومن ثم تساهم في استمرار وتواصل الثقافة Cultural Continuity [١٠] .

فالأغنية الشعبية بما تحويه من أفكار تؤثر في الجيل الذى توجد فيه. ثم تبقى ليتناقلها جيل آخر بعد أ تأثرت بما اكتسبته من الجيل السابق فتؤثر في الجيل الآخر وتتأثر به ، أي أنها عملية أخذ وعطاء مستمر وانتقال للأفكار من جيل إلى جيل تؤدى إلى وحدة فكرية بين جيل وجيل، وتلك وظيفة العقل الجمعي الذي يعمل على انتقال المعرفة بين الأجيال ويضمن توارث الأفكار والمبادىء والقيم [١١] .

والقيمة هي اختيار أو اهتمام أو تفضيل له مبرراته الخلقية أو العقلية أو الجمالية أو كلها مجتمعة بناء على المعايير التى تعلمها الفرد من الجماعة ووعاها في خبرات حياته نتيجة عملية الثواب والعقاب والتوحد مع الغير. فالمهفوم الاجتماعى للقيم يقتصر على تلك الأنواع من السلوك التفضيلي المبنى على مفهوم المرغوب فيه [١٢] .

فالأغنية الشعبية كعنصر من عناصر الأدب الشفاهي تعمل علي تثبيت القيم الإجتماعية والثقافية .

ومن أهم القيم التى تحظى بالاهتمام في المجتمعات القروية هي قيمة المحافظة على الشرف والتمسك بالعفة والطهارة .

وهذه القيمة تنتشر في العديد من الثقافات وترتبط بالتدين إلى حد بعيد كما هو الحال في الثقافات الإسلامية ولدى المسحيين واليهود [١٣] .

وتنعكس هذه القيمة فى بعض الأغانى الشعبية التي تنتشر فى قرية البرج برشيد [١٤] :

يا أحلى بنات العيلة يا صغيرة
إحنا علينا ١٠٠ جنيه حطينا يا صغيرة
وانتى عليكى تشرفينا الليلة يا صغيرة
احنا علينا ١٠٠ جنيه كفايتنا يا صغيرة
وانتى عليكى تطولى رقبتنا يا صغيرة
وان كان علينا من الدهب جبنا لك
وان كان علينا من الحرير جبنا لك

فهذه الأغنية تظهر أن أقارب العروس قد قاموا بكل التزاماتهم تجاهلها ووفروا لها كل متطلبات الزيجة من حلى ذهبية وملابس بالإضافة إلى الأثاث ومن ثم جاء دور العروس لكى ترفع شأن الأسرة .

ومن الأغانى الشعبية أيضا التى تعكس قيمة عذرية الفتاه :

قولوا لابوها ان كان جعان يتعشي
قولوا لابوها العجل هد الفرشه
قولوا لابوها فى البلد يتمشي
قولوا لابوها الدم غطى الفرشة

وهذه الأغنية تردد بعد قيام العريس بفض غشاء البكارة بنفسه دون أن يدخل معه أى طرف من العائلتين وذلك لإثبات رجولته من ناحية وللتأكد من عذرية عروسه من ناحية أخرى . ويقوم بعد ذلك بإخبار أمه التى تتولى إخبار رجال العائلة . وتأتى والدة العروس صباح اليوم التالى للإطمئنان على شرف

الإبنة وتأخذ معها شاشة دم البكارة [illegible]
بشرف إبنتهم .

كماأن الأغنية الشعبية قد تتضمن أيضا الإشارة [illegible] الأطعمة التي يجب أن يتغذى عليها العروسان لأنها مقوية من الناحية الجنسية .

وتناول الأطعمة يُعد من الأمور الحيوية [illegible] بعض الأطعمة التى تستخدم للإشارة إلى بعض المناسبات أو الاحتفالات أو القيم (١٥).

فلو نظرنا إلى المجتمع القروى فسوف نلاحظ [illegible] العروس على إعداد عشاء العرس لها ويعرف باسم «ميرام الإتفاق» [illegible] ما يتكون من أبرمة الحمام أو البط أو الدجاج المعد بالارز والفطير ، ويعتقدون أن تناول العروسين لتلك الوجبة يعنى أن العريس قد ارتاح لعروسه وقام بفض بكارتها . كما أن تناول الزوج لنوعية معينة من الأغذية تعد من وجهة نظر المجتمع مقوية من الناحية الجنسية ويظهر هذا فى المقطع التالى :

والله لا غنى لك يا عريس يا غالي
لاغـديك بوزة واعـشـيك بوزه
وحـيـاة رب العـزه
ده انت عندى غالي

والله لاغنى لك ياعـريس يا غـالى
لاغديك بحمامة واعشيك بحمامه
وحيـاة الأمـانة ده انت عندى غـالي

* * *

ومن القيم الإجتماعية الأخرى التى تظهر فى الأغنية الشعبية القيم المتعلقة بالإختيارالزواجى . فالاختيار هو سلوك يمارس لختيار الشريك الآخر ، وتختلف هذه العملية تبعا للثقافة الموجودة وتبعا للمعايير والقيم السائدة في المجتمع وتبعا للطبقة التى ينتمى العروسان لها (١٦) .

وتقوم فكرة الاختيار على من الذى يختار ومن الذى يقع عليه الإختيار [١٧] .

أو بمعنى آخر ما هى الصفات التى يحرص العريس على أن تتوفر فى العروس. ونلاحظ فى المجتمعات التقليدية ومنها مجتمع الدراسة أن مسألة الأختيار ليست مسألة فردية أو اتفاقا شخصيا ، ولكننا نجد أن لأعضاء الجماعة القرابية لكل من العروسين سيطرة كبيرة على ترتيبات الزواج ومن ثم نجد أن سمعة العائلة وكرامتها هى الاعتبار الأول فى الأختيار الزواجى ويدعم تلك السمعة رجال العائلة ونساؤها . والسمعة الطيبة للرجال تعنى الشجاعة، الولاء للأسرة، توفير الراحة والأمان لها، الكرم ، وسمعة النساء تعنى العفة والطهارة [١٨] .

وتعكس الأغنية الشعبية أهمية **الأصل العائلى** الطيب والسمعة الحسنة في الاختيار وأهمية مكانة أفراد العائلة ومراكزها بين العائلات منها :

يا بنت دوسى على الحشيش   اهلك رجاله متخافيش.
يا بنت دوسى على البلاط   أهل رجاله مش بنات
يالى عمامك ١٠٠   سادين الزراعية
يا نخله يا طويله   احنا العيلة الاصيلة

ياللى اخوالك خمسة
واحد يكتب الكتاب واثنين يعلو الجواب واثنين يشرفوكى
ياللى اخوالك خمسة
اثنين يكتبوا كتابك وثلاثة يحلوا الجلسة
ياللى اعمامك ستة
اثنين وزرا واثنين كتبه واثنين اسياد الحته

يا نازل الكار تنقى من الفـروع العـال
اوعى تناسب غـجـر ولا تناسب عـار
إلا تناسب جدع منسوب من الجدعـان
يمكن تخلف ولد يبـقى الولد له خـال
يا نازل الكار تنقى من الفـروع العـال

وهذه الأغنيـة تعكس أهمية الأصل العـائلى الطيب للعروس لأ هذا الأصل يرتبط بالأبناء الذين سوف يأتون نتيجة لهذه الزيجة ، ولأن الأولاد قد يحتاجون لأخوالهم لمساندتهم فى أى موقف من مواقف الحياة .

ولعل هذه الأغانى تعكس لنا مبدأ هاماً وهو «وحدة جماعة الإخوة الأشقاء» وتماسك هذه الوحدة وتضامنهـا وذلك علي اعتبار أن الروابط التى تربط الأخوه والأخوات تعتبر من أهم الروابط فى كل المجتمعات الانسانية. فوحدة الجماعة القرابيـة التي قد يعتمل فيـهـا من الداخل كثير من اسباب النزاع والخلاف قد تنقسم من الداخل الي أقسام متمايزة، ومع ذلك فإنها تعتبر من الخارج وحدة متكاملة ومتماسكة حينما ينظر إليها من الخارج. فليس المهم هو الإتحاد الداخلي الذى يظهر فى سلوك أفراد هذه الوحدة أو الجماعة ازاء بعض إنما المهم هو وحدتهم بالنسبة للأشخاص الآخرين.فعلاقة الإبن مع إخوه وأخوات الأب تعتبر فى نظره من نفس نوع العلاقة التى تربطه بأبيه ويحدث نفس الشيء بالنسبة لجماعة الأم بحيث تُعامل أخوات الأم نفس معاملة الأم الحقيقية ذاتها ويصدق هذا على أخى الأم (الخال) فى كثير من المجتمعات الذى يعامل نفس معاملة الأم [(١٩)] .

فـوجـود لفظ العم والخـال في هذه الأغنيـات يعكس لنا منزلتـهم بالنسبـة للشخص والتزاماتهم ومسئولياتهم الإجتماعية التى يجب أن تتم تأديتها فى أى أزمة من الأزمات الحياتية كالزواج والميلاد والخلافات الزوجية وفى مسئولية تربية الأولاد حيث أن الأم القروية فى كثير من الأحيان ما تلجأ إلى استخدام أسلوب

التخويف للأبناء بالخال وذلك فى حالة عدم استطاعتها السيطرة عليهم فتهددهم باللجوء إلى الخال ليتولي تأديبهم . وتمتد هذه المسئولية لتشمل الإخوة ومن ثم تنعكس فى هذا المقطع من الأغنية الشعبية :

كـــدابه يالى تقـــولى الأخ فى زيه
الأخ زى القـمـر مـاشـيـه على ضـيـه
كـدابه يالى تقـولى الأخ فى غـيـره
الأخ زى القـــمـر مـاشـيــه على نوره

* * *

ومن الإعتبارات الهامة فى المجتمع القروى التى يجب مراعاتها فى الإختيار الزواجى **صغر سن العروس** .

ويبدأ سن الزواج بعد سن النضج البيولوجى بكثير أو قليل وتبعا لظروف الشخص المقبل علي الزواج وفى استطاعة الشخص أن يختار من يتزوجة سواء كان مماثلا له فى السن أو أكبر أو أصغر [٢] .

ومن عادة الريفيين أن يتزوجوا فى سن مبكرة حوالى التاسعة عشرة للذكور والسادسة عشرة للإناث [٢١].

ولقد ظهر لى أثناء الدراسة الميدانية أن الفتاة فى القرية من الممكن أن تتم خطبتها منذ سن الرابعة عشرة والغرض من ذلك هو المحافظة علي شرفها وحتى تستطيع أن تنجب أكبر قدر من الأولاد وتقوم بكل الأعباء المنزلية. كما أن الفتاة صغيرة السن تكون أكثر طاعة داخل نطاق الأسرة الممتدة وأسلس قيادة وتؤدى كل ما تؤمر به من أعمال . وقد تتزوج الفتاة قبل أن تصل إلى السن القانونية وفى هذه الحالة يقوم الطبيب بتسنينها .

وينعكس هذا المعنى فى الأغنية الشعبية التى تقول .

حلوة يا واد وصغيره مالية عليك المندره
حلوه ياواد وبيضه ماليه عليك الأوضه

* * *

يا أحلى بنات العيله يا صغيره
انتى عليك تشرفينا الليلة يا صغيره

وإذا كان الزواج المبكر يشكل قيمة كبيرة فى حياة القرويين فإن الخوف من تأخر الزواج أو عدم الزواج يعد مشكلة تواجه الفتيات فى القرية خاصة اللاتى تجاوزن سن الخمس وعشرين عاما .

ولا تزال توجد بعض الحالات التى تلعب فيها «الخاطبة» ، أو وسيط الزواج دورا فى الاختيار الزواجي حيث يحمل الكثير من المعلومات عن كل طرف من طرفى الزيجة ويحاول عرض مواصفات كل طرف علي الآخر قبل أن يلتقيا وبذلك تحتفظ كل من عائلة الشخصين المرشحين للزواج بماء وجهيهما إذا لم يتوفر القبول [٢٢].

لذا توجد الكثير من الاغنيات التي تعكس تطلع الفتاة إلى الزواج قبل أن تصل إلى هذا الوضع المقلق والمحرج في نفس الآن :

يجيىء علي المحطة وادبح له البسطة
يجيىء على باب دارنا وادبح له دكرنا
يجيىء على الزراعية وادبح له روميه

بس الولد يجى

يا ريتني كنت لمونه ليمونه ليه
على الشجر انا مركونه مركونته ليه
كل البنات اتجوزوا وانا في حبك مجنونة

* * *

وتعد صفة **الجمال** من الصفات المستحبة فى الخطبة . فنلاحظ أن الريفيين بصفة عامة يحبون فى الفتاة الجمال الطبيعى ولا يقيمون وزنا للجمال المصطنع بأدوات الزينة (٢٣) .

والجمال على الرغم ن نسبيته إلا أنه من الأمور المطلوبة في الزيجة وتنعكس ملامح الجمال فى الأغنية الشعبية التالية :

طالعه من بيت ابوها رايحه بيت الجيران
قلت لها يا حلوه اورينى على شعرك وفرجينى
قالت لروح يا مسكين دانا شعرى ديل حصان

قلت لها يا حلوه اورينى على بقك وفرجينى
قالت لى روح يا مسكين ده نا بقى خاتم سليمان
قلت لها يا حلوه اوريني على قورتك وفرجينى
قالت لى روح يا مسكين ده أنا قورتى هلال شعبان
قلت لها يا حلوه اورينى على صدرك وفرجينى
قالت لى روح يا مسكين ده انا نهدى جبال لبنان
قالت لى روح ده انا صدرى فرط الرمان
قلت لها يا حلوه اورينى على بطنك وفرجينى
قالت لى روح يا مسكين ده بطنى عجين خمران

* * *

على الحزام فى الوسط اتفرجوا يا صبايا على الحزام في الوسط

إن خـيـروك فى العنب خـد عنقـودين من الوسط
ان خـيـروك فى البلح خـد حـبـتين من الوسط
ان خـيـروك فى القـصب خد عـقلتين من الوسط
وإن خـيـروك فى البنات نقى رفـيـعـة الوسط

فالجمال إذن يتمثل في بعض الصفات الفزيقية التي يجب ان تتسم بها العروس في المجتمع القروي.

وتعد **المهارة** من الصفات المرغوبة في الزواج في كل المجتمعات التقليدية كالمهارة في الزراعة وتنسيق الحدائق والصناعات المنزلية (٢٤) .

والفتاة فى قرية البرج يجب ان تجيد بعض الأعمال لتؤهلها للزواج منها المهارة فى أداء الأعمال المنزلية خاصة الطهى وحلب الماشية والعجن وتنظيف المنزل والحظيرة وتلبية رغبات الزوج واقاربه من أعضاء الأسرة الممتدة والقيام ببعض الصناعات التقليدية كتضفير سعف النخيل لصنع السلال أو صنع أغطية للأقفاص أو دواسات للأرضية توضع تحت الأوانى .

وتعكس الأغنية الشعبية تلك المهارة :

أنا اللى شاطره فى اخواتى .. اعجن واصبن يوماتى آه آه
والكل يحلف بحـيـاتى .. نعـمين ياروحى
انا اللى شاطره فى اخواتي اعجن واصبن لحماتي آه آه

* * *

يـا حـنـيـنـه يـا عـين يـا حـنـيـنـه
قـايـمه من النوم تحلب فى البـقـرة
ياوشـهـا الابيض بلون القـمـرة
قـايمه من النوم تحلب في الجـاموسة
يـا وشـهـا يضـوي زي الفـانـوسـه

ولعل تلك الأعمال تتمشى مع مبدأ تقسيم العمل فى المجتمعات التقليدية الذى يقوم علي أساس الجنس حيث يشغل الرجال الوظائف العبيدة عن البيت البعيدة والمرأة تتولى شئون المنزل ورعياة الأبناء [٢٥] .

وتعكس الأغنية الشعبية القيم المتعلقة بالتمايز النوعى بين الجنسين والتدرج الإجتماعى داخل الأسرة فيما يتعلق بالفروق بين الذكور والاناث حيث تُظهر إنخفاض مكانة البنت وعدم الرغبة فى إنجابها وما يرتبط بذلك من ألوان التفرقة فى المعاملة التى تحدث خلال الحياة [٢٦].

فالمرأة تزداد مكانتها فى مجتمع الدراسة حينما تنجب خاصة الذكور وأم البنات تُعاير من أعضاء الوحدة السكنية خاصة الحماة وأخوات الزوج كما أنهم قد يطلقون عليها صفة شخص معوق تعبيرا عن عجزها وضعفها . وإنجاب الذكور يعنى أن الرابطة الزوجية قد أزدادت قوة بين الزوجين بل أن عدم إنجابهم قد يؤدى في بعض الأحيان إلى الطلاق أو الزواج بأخرى . كما تتحسن معاملة أهل الزوج للزوجة بل قد تعفى من القيام ببعض الأعباء المنزلية لأنها على حد تعبيرهم أصبحت أم الرجالة وإن كانوا أطفالاً صغاراً .

وتنعكس هذه القيمة العالية للأبناء الذكور بمجرد الولادة في الأغنية التالية :

أمــــا قــــالوا ده ولد	انشــد ظهــر أمــه وانسند
وكلوها البـيض مـقـشـر	وعليـــه ســمن البلد
لما قـلـوا ده غــــلام	انشــد ظهــر أمـه وقــام
وكلوها البـيض مـقـشـر	وعليـــه الســمن عــام

* * *

يــــا ولـــــد يـــــا ولـــــد حـــــــــسك طبل فى البلد
والمدينـة اترجـــــــــرجت والعـــــز قـــام على العــــرب
يـا ولـد الـولاد جـــــــولك ينضـــرم عــــرضك وطولك
يـا ولـد الـولاد جـــــــولك ينضـــرم شمـالك حـــرير
يا ترى مين جايبولك

فالذكور هم الذين يسندون الأب وهم المسئولون عن الحفاظ على شرف العائلة.

من سبله الغلة يا حمام من سبل الغلة
عروستنا حلوة يا حمام تستاهل اللمة
يجعل قدمها أبيض على الخالة والعمة
وتبكرى بالولد وتعـــمـــرى دارنا

فالأغنية تعكس جمال العروس ويأملون في أن يجعل الله مدخلها عل من.زل أهل زوجها مدخل خير وتفاؤل وأن يكون الصبى هو الإبن الأول الذى تنجبه لكى يحمل اسم عائلة والده (تعمرى دارنا).

أما المكانة المنخفضة للأنثى فتنعكس فى الأغنية التالية :

أمـــا قـــالوا دى بنيـــه دردكـــوا البـــيت عليـــا
أمـــا قـــالوا دى بنيـــه هدوا الدار علـيـــــــا
أمـــا قـــالوا دى بنيـــه استخســـروا السمن فيّ
وكلونى البـيض بقـشـره مـــا عليــه حـتى المينـه

* * *

٢ - الوظيفة النفسية الاجتماعية :Socio-Psychological Function:

تعمل الأغنية الشعبية كإحدى عناصر الأدب الشفاهى على مد الأفراد بقدر كبير من الراحة النفسية حيث تعمل على تخليصهم من الضغوط التى يفرضها

المجتمع علـى أعضائه كما أنها تتيح الفرصة لهم للحديث عن الأنماط السلوكية التى يحظر المجتمع عليهم الخوض فيها، كما أنها تعكس نظرتهم إلى بعض الأشخاص أو المواقف ومن ثم تحقق قدرا كبيرا من الراحة النفسية للأعضاء [٢٧].

وهذه الوظيفة تبدو واضحة بصورة كبيرة فى قرية البرج حيث أن نمط الإقامة المفضل بعد الزواج هو الإقامة الأبوية حيث تنتقل المرأة للإقامة مع زوجها وأقاربه العاصبين [٢٨] .

ولا شك أن هذا يتمشى مع طبيعة الاقتصاد المجتمعى فحينما يقوم الرجال بأعمال جماعية كالصيد أو الزراعة الكثيفة فيكون النمط الأبوي هو نمط الإقامة الأمثل حيث يكون الرجال محور الحياة الاقتصادية [٢٩].

والنشاط الاساسى لسكان قرية البرج هو الزراعة وصيد الأسماك والزوج هو المسئول عن توفير مسكن الزوجية وغالبا ما يكون مكان الإقامة فى نفس منزل أسرته حيث يوفرون له حجرة أو حجرتين داخل المنزل أو يتم بناء طادق جديد له في نفس البيت أو في أرض مقابلة وذلك تمشيا مع نمط الأسرة الممتدة وهو النمط المفضل فى المجتمعات القروية.

وتتعرض العروس لكثير من المعاناة نتية إعتبارها غريبة أو وافدة جديدة داخل هذه الجماعة [٣٠] .

لذا فهي تساهم فى الأعمال المنزلية منذ اليوم التالي للزفاف حيث تحاول كسب ود والدة الزوج وشقيقاته وزوجات الإخوة. وقد تعانى العروس من سيطرة والدة الزوج (الحماة) وقيامها بتقسيم العمل على سيدات الوحدة السكنية كما أنها تقوم بتحديد نوعية الطعام الذي يعد ومن الذي يعده ومنَ من السيدات يخرج للأرض فى حالة غياب الرجال . فهى إذاً المسئولة الرسمية عن إدارة شئون المنزل، وزوجات الأبناء وبناتها هن مساعدات لها لذا فهى تعد مظهراً من مظاهر

السلطة والسيطرة . لذا نجد ان الأغنية الشعبية الجماعية غالبا ما تحمل رؤية نقدية «للحماة» فهى تعمل على التخلص من القلق والتوتر الموجه إليها .

ياوله حلة أمك الألمونيا مش قاعدة مع أمك ولا حتى ثانية
أخضر يا صباح الموز لا نحب الحماه ولا أخت الجوز

يا سمك بسارية يا وله يا سمك بسارية
امك تاكل على اللقمة سبعة ثمانية
يا سمك يديله يا وله باسمك يديله
أمك بتاكل على اللقمة ثلاثة كيلو

وتبدو الوظيفة النفسية الاجتماعية للاغنية الشعبية فى أنها تعكس محاولة الإنسان الهروب الخيالى من قيود بيئته الجغرافية المحدودة ومن مجتمعه الذى يعيش فيه ومن الكبت الواقع عليه والناجم فى أغلب الأحيان عن عدم التكافؤ الاجتماعى والاقتصادى ومن التحريمات والقيود الجنسية [٣١] .

وهذا الهروب يتمثل في بعض الأغنيات التي ترددها الفتيات وتتعلق بالحب والغزل وهجر الحبيب وتمنى عودة الغائب والجنس منها :

ياليل يا ابو الليالى وعروستك حلوه وعجبانى
يا رب من له حبيب ما تحرموش منه
ما تلوعوش يا زمن إلا ان شبع منه
يارب من لام عليا يجي له ما جالى

حبيبي يا أحمد يا للى على الجبهة يا روحى يا احمد ياللى على

أحمد ماجاش لا ولا يأخذ له عضه لا ولا

من ورك البطة لا ولا

احمد ماجاش لا ولا

ياخد له بوسه لا ولا

من ورا الكوشه لا ولا

احمد ماجاش لا ولا

ولا اتعشاش لا ولا

ولا خش جوه لا ولا

فتش على السوه لا ولا

فالأغنية كما نرى تشير إلي تمنى عودة الحبيب أو الزوج والأشتياق إلى ممارسة الحياة الزوجية الجنسية.

٣ - الأغنية الشعبية والضبط الاجتماعى :

يذهب «لندبرج» Lindberg إلى أن الضبط الاجتماعى عبارة تستخدمها لنشير إلى المسالك الإجتماعية التى تقود الأفراد والجماعات نحو الإمتثال للمعايير المقررة أو المرغوبة . ويذهب إلى أن أنماط السلوك الاجتماعى ذات الطابع الدائم - النظم الاجتماعية - تعتبر نوعا من انواع الضبط الاجتماعى وأن الحكومة هي التي يناط بها في المجتمع الحديث مسألة الضبط الاجتماعى ، ويشير إلى الدور الكبير الذى تلعبه الأنماط الاجتماعية كالعادات الشعبية والبدع والعرف والرأى العام وغير ذلك في الضبط الاجتماعى [٣٢] .

فالأغنية الشعبية كإحدى عناصر التراث الشفاهى تلعب دورا هاما فى الضبط الإجتماعي حيث أنها تمجد الأنماط السلوكية المقبولة والتى يجب أن يراعيها الأفراد ويتمسكوا بها ، كما أنها تستهجن الأنماط

السلوكيــة المذمومة [٣٣].

فلو نظرنا إلى هذا المقطع من الأغنية الشعبية في المجتمع القروى :

اللــــه ياليــــل اللــــه
عــلى الجـــــــر شـــــــاور لى بمنديلــه
بيـــحـــسب انى قليلة العـــقل واجـــرى له
على الجــســـر شـــاور لى بتـــفـــاحـــة
بيـــحـــسب إنى قليلة العـــقل فـــلاحـــه

نلاحظ أن هذا المقطع يشير إلى القواعد السلوكية التى يجب أن تتحلى بها الفتاة فى المجتمع فهى لا يجب ان تتأثر أو تنخدع بأى مظهر من مظاهر الإغراء فى حالة خروجها للأرض للمساعدة فى رش المواد الكيماوية أو فى تعبئة الخضر والفاكهة فى أقفاص بل يجب أن تقاومها لأ من ينخدع بها شخص غير ناضج وغير مسئول عن تصرفاته .

وتشير الأغنية التالية إلى القواعد التى يجب أن تراعيها الفتاة أثناء سيرها كالإحتشام والإعتدال فى السير :

أبـويـا قـــــالـى يـا لـولـه مـــا تـعـــوجـــيش القلـه

يمسكوها عليك زله وانا من يومى
كـــايده العـــزال أنا من يومى

أبوا قـالى يا روايح البحـر جـاى ولا رايح

يكفـــينا شـــر الفـــضـــايح

٤ - الأغنية الشعبية والتغير الاجتماعي :

إذا كانت الأغنية الشعبية تعكس الواقع الإجتماعي لأعضاء المجتمع كما هو الحال في هذا المقطع من أغاني الصيد والذي يعرف باسم (الحدو) ، ويقوم الصيادون بترديده أثناء خروجهم لرحلات الصيد .

البحر كبير يا ريس مليان سردين يا ريس
اديني سردينه يا ريس تكون كبيرة يا ريس
اتعشى بيها يا ريس عندك بحرية يا ريس
صافيين النية يا ريس بزنود قوية يا ريس

هذا المقطع الغنائي يعكس صيد السردين في قرية البرج التابعة لمركز رشيد حيث كان موسم السردين حتى أوائل الستينيات مصدرا لرخاء المجتمع فلقد كان الفيضان يحمل معه الطمي الذي يغذي الأرض، وكان الصياد يشتري كساء أسرته ويقوم بسداد دينه وتقام احتفالات الزواج في هذا الموسم، وكانت تزدهر بجانب ذلك العديد من الأعمال والحرف كصناعة الأقفاص والسلال لحمل السردين، والبراميل لتعبئته، وتجارة الملح لتمليح الأسماك بالإضافة إلى مصانع الثلج وأصحاب عربات الخيل التي تنقل السردين إلى أماكن التخزين . وكل هذه الأعمال كانت تستوعب مجموعة كبيرة من الشباب الذي لا يعمل .

والأغنية الشعبية تعكس التغير الإجتماعي الذي يحدث في المجتمع والتغير الاجتماعي قد يتم تلقائيا نتيجة لاتصال المجتمع بالثقافات والنظم ومحاولة تمثلها وما يتبع ذلك من استعارة بعض ملامح وعناصر هذه الثقافات ومحاولة تمثلها . ويتم ذلك التغير ببطء وبالتدريج ولكنه يحدث باستمرار طيلة الوقت ولا يتخلف عنه أي تفكك اجتماعي ملحوظ. ولكن يوجد إلى جانب ذلك تغيرات أخرى عميقة تحدث في وقت قصير وتنشأ نتيجة تنفيذ سياسة معينة أو تنفيذ

أحد مشروعات التنمية الاقتصادية أو الاجتماعية مما يتطلب إدخال التجديدات على الأنماط وتظهر آثار هذه التغيرات واضحة قوية فى كل النظم الاجتماعية التى تؤلف البناء الإجتماعى وفى كل أنماط السلوك [٣٤] .

والتغيرات التى حدثت فى قرية البرج ورشيد حدثت نتيجة بناء السد العالى والحرمان من الطمى الذى ينتج عن فيضان النيل وما كان يحمله من خيرات خاصة موسم السردين، كما قلت خصوبة التربة والأرض الزراعية، وتدهورت صناعة الطوب بالاضافة الى التآكل المستمر للشواطىء نتيجة عملية المد والجزر التى تتعرض لها الأرض بدون تعويض الطمى مما استتبع معه إنتقال أعداد كبيرة من الصيادين إلى الاسكندرية خاصة منطقة أبى قير .

وتعكس الأغنية الشعبية هذا الوضع :

يابو رقعك يا رخيه	وزن الوزان ماجاش وقيه
ياما فرشوه وغطى البحيره	من الشام لاسكندرية
وانا قلوعى قماش مقطع	اسرح واصلح والبر داير
يا بور قعك يارخيه	وزن الوزان ماجاش وقيه
واسكندرية مداريه	ياالله اخربك يا أبو قير
يالى ترابك عماني	وحلفت لم صدقونى
جابوا الكتاب وحلفونى	وما يحلف العبد باطل

الا الخلاصة من الله

- الخلاصة والنتائج :

مما سبق نخلص إلى أن الأغنية الشعبية هى عنصر من عناصر التراث الشعبى التى تنتقل عبر الأجيال عن طريق التواتر الشفاهى، ولقد ظهرت بين العامة فى أزمان ماضية وظلت متداولة لفترات طويلة من الزمن نظرا لما تحققه

من وظائف اجتماعية وثقافية مختلفة داخل المجتمع، ولا شك أنها تعد صورة من صور الإبداع الذى تحول ليصبح ملكا للشعب.

الوظائف الثقافية والاجتماعية للأغنية الشعبية فى قرية البرج :

١ - تعكس الأغنية الشعبية القيم واتجاهات الجماعة وتساهم في تواصل الثقافة واستمرارها عبر الأجيال . وهذه القيم تتعلق بالزواج كصغر سن العروس والخوف من. تأخر الزواج والصفات الفيزيقية التى يجب أن تتسم بها والمهارة والتمايز النوعى بين الجنسين. كما تعكس أيضا قيم الشرق والطهارة ، والأصل العائلى الطيب وارتباطه بمبدأ وحده جماعية الأخوة.

٢ - تعمل الأغنية الشعبية على تخليص الأفراد من الضغوط والتوترات حيث تتيح للأفراد الفرصة للحديث عن الأنماط السلوكية التى يحظر عليها المجتمع الخوض فيها وابداء الرأى كالحب والهجر والزواج والجنس وتمنى عودة الحبيب . كما تعكس نظرة الأفراد الى بعض الأشخاص (كالحماة مثلا) ، ومن ثم تعمل على تحقيق قدرا كبيرا من الراحة النفسية لأعضاء المجتمع، وبهذا تتحقق الوظيفة النفسية الإجتماعية للأغنية الشعبية.

٣ - تلعب الأغنية الشعبية دورا هاما فى الضبط الاجتماعى حيث أنها تمجد الأنماط السلوكية المقبولة وتستهجن الأنماط السلوكية المذمومة.

٤ - تعكس الأغنية الشعبية الواقع الإجتماعى للسكان كما أنها تعكس التغير الإجتماعى الذى يحدث فى المجتمع .

المراجع :

١ - فوزى العنتيل ، ١٩٧٨ ، بين الفولوكلور والثقافة الشعبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ص ٢٤٥ .

٢ - أحمد زكى بدوى ، ١٩٧٧ ، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية ، مكتبة لبنان، ساحة رياض الصلح، بيروت ، ص ٤٠٤.

٣ - الكزندار هجرتى كراب ، ١٩٦٧، علم الفولوكلور ، ترجمة رشدى صالح، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة، ص ٢٥٣, ٢٥٤.

٤ - نفس المرجع السابق ، ص ٢٨٠.

٥ - فاطمة حسين المصرى ، ١٩٨٤، الشخصية المصرية من خلال الفولكلور المصرى، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ص ٥٠.

٦ - فاروق احمد مصطفى ، ١٩٨١، دراسات فى المجتمع المصرى ، الموالد ، دراسة للعادات والتقاليد الشعبية فى مصر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الاسكندرية ، ص ١٥٢ ، ١٥٣.

7 - Bascom, William, Folklore "in". Sills, L. David (ed.), 1972, International Encyclopeadia of the Social sciences, The Macmillan Company, The Free Press, N.Y., Vol. 5,6. PP. 496, 500, PP. 496, 497.

8 - Haviland, A. William, 1985, Anthropology, Holt Rinehart and Winston, N.Y., P. 602.

9- ____________, 1975, Cultural Anthropology, Rinehart and Winston, U.S.A., P. 343.

10. Bascom, William, Op.cit., 498.

١١ - فاطمة حسين المصرى ، المرجع السابق ، ص ٥٢ .

١٢ - فوزية دياب ، ١٩٦٦ ، القيم والعادات الاجتماعية ، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ، ص ٥٣.

13 Winans. Paul, V. and Winans, Edgar V 1974, Cultural Anthropology, J.B Lippincott. N.Y . P 166.

١٤ – قرية البرج هى احدى القرى التابعة لمركز رشيد الذى يتكون من تسع عشرة ناحية وتبلغ مساحتها ٩ر٣ من جملة المساحة الكلية للمركز والقرية تقع علي بعد ١٠ كم الي الشمال من رشيد ويبلغ عدد السكان حوالى ١٠ آلاف نسمة ، وزمام القرية ٣٩٦٢ فدانا ما بين منانع وأراضى بور . ويعمل السكان بزراعة الأرز، الذرة، السمسم، القمح ،الفول ، الشعير، الموالح، المانجو، الجوافة، الطماطم ، الكوسة، الكرنب، الباذنجان ونظرا لارتفاع نسبة الاراضى غير المزروعة فنجد أن العمران هناك قد يرتبط بأشكال اخرى من استغلال الأراضى وعلي وجه الخصوص فى نطاق التكوينات والكثبان الرملية التى تنمو فيها أشجار النخيل حيث تبلغ نسبة جملة أعداد النخيل حوالي ٣٧٪ من جملة المنزرع، ولقد ارتبطت به إحدى الصناعات الشعبية وهى صناعة أقفاص الجريد. كما تقوم فى القرية أيضا مهنة الصيد.

– انظر : مرفت العشماوى ، ١٩٩١ ، دورة الحياة عند الفرد، دراسة أنثروبولوجية مقارنة للعادات والتقاليد الشعبية فى مجتمع رشيد ، رسالة دكتوراه غير منشورة، إشراف أ.د.محمد عبده محجوب ، كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية .

15 - Hayakawa, S.L., Symbols "in "Hughes, Charles C., (ed.), 1976, Custom Made: Introductory Readings for Cultural Anthropology, Second Edition, McNallx College, Publishing Compány, Chicago, P. 215.

16 - Stinnett, N. and Walters, J.S., 1977. Relationships in Marriage and Family, Macmillan Publishing and Company. N.Y., P 23.

١٧ - سناء الخولى ، ١٩٧٨، مدخل إلى علم الإجتماع، دار المعرفة الجامعية، ص ٢١٩

18- Nanda, Serena, 1980 , Cultural Anthropology, D. Van Nostrand Company, N.Y. P. 208.

١٩ - أحمد أبو زيد ، ١٩٦٧، البناء الاجتماعى ، مدخل لدراسة المجتمع - الجزء الثانى - الأنساق - دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، الاسكندرية ، ص ٤٠١ - ٤٠٤ .

٢٠ - سناء الخولى ، ١٩٧٩، الزواج والعلاقات الأسرية، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية ، ص ١٣٥.

٢١ - سامية الساعاتى ، ١٩٧٣، الاختيار للزواج والتغير الاجتماعى ، دار النجاح ، بيروت ، ص ٨٣.

22- Nanda, Serena, op.Cit, P. 210.

٢٣ - فوزية دياب ، المرجع السابق ، ص ٢٤٥ .

24- Beals, Ralph and Hoijer, Harry, 1979, An Introduction to Anthropology, The Macmillan Company, N.Y., P. 530.

25 - Evans, Pritchard, E., 1965, The Position of Women in Primitive Societies and other Essays in Social Anthropology, Faber and Faber, N.Y., P. 49.

٢٦ - نبيل صبحى حنا ، ١٩٨٤، المجتمعات الصحراوية فى الوطن العربى : دراسات نظرية وميدانية ، دار المعارف بمصر ،و القاهرة، ص ١١١.

27 - Bascom, William, op.cit., P. 499.

28- Haviland, William, A. 1974, Anthrpology, Holt Rinehard and Winston, Inc., U.S.A., P. 367.

29- Nanda, Serena, op.cit., P. 219.

30 - Howard, Michael C., 1988, Contemporary Cultural Anthropology, Scott Foresman and Company, Boston, London, P. 255.

31 - Bascom, William, Op.cit., P. 499.

٣٢ - محمد عاطف غيث ، ١٩٧٣ ، علم الاجتماع - الجزء الاول - النظرية والمنهج والموضوع ، دار الكتب الجامعية، الاسكندرية، ص ٤٠١ - ٤٠٢.

33- Bascom William, op.cit., P. 498, 499.

٣٤ - أحمد أبو زيد ، ب . ت، التصنيع والتغير الاجتماعى فى افريقيا ، جامعة الكويت ، ص ٤.

محتويات كتاب
المدخل الى علم الانسان